تراث الإسلام

٣

عُمدة التَّفسير

عن

الحافِظ ابن كثِير

٧٠٠ — ٧٧٤

اختصارٌ وتحقيق

بقلم

أحمد محمد شاكر

الجزء ١



هٰذا بلاغٌ للنّاس
ولِيُنْذَرُوا بِه

عمدةُ التفسير

الجزء ١



بسم الله الرحمن الرحيم
تبركة من الله ونور

الحمد لله حقَّ حمده ، حمداً وشكراً ، نسأل ربَّنا عز وجل أن يتقبّلهما بفضله وكرمه ، وأن يجعلهما خالصَيْن لوجهه الكريم . ونرجو أن نستوجب بهما المزيد من فضله ونَعمائه ، إنه الجواد الكريم ، البَرّ الرحيم . لا نحصى ثناءً عليه ، هو — سبحانه — كما أثنى على نفسه . إنه العليّ الأعلىٰ . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبيّ الأميّ ، سيد المرسلين وإمام المهتدين وخاتِم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليماً كثيرًا .

وبعدُ : فإن تفسير الحافظ (ابن كثير) أحسنُ التفاسير التى رأينا وأجودُها وأدقُّها ، بعدَ تفسير إمام المفسرين أبى جعفر الطبرى .

ولسنا نوازنُ بينهما وبين أىّ تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلَهما ولا ما يقاربُهما .

وقد حرص الحافظُ ابن كثير على أن يفسّر القرآنَ بالقرآن أولًا ، ما وَجَد إلى ذلك سبيلًا . ثم بالسنة الصحيحة التى هى بيانٌ لكتاب الله . ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف فى تفسير الآى .

وإنه ليذكر الأحاديث — فى أكثر المواضع — بأسانيدها من دواوين السنة ومصادرها . وكثيراً مّا يذكر تعليلَ الضعيف منها . ولكنه يحرص أشدَّ

الحرص على أن يذكر الأحاديثَ الصِّحاح ، وإن ذكر معها الضِّعاف .

فكتابُه — بجانب أنه تفسيرٌ للقرآن — معلِّمٌ ومرشدٌ لطالب الحديث ، يعرفُ به كيف يَنقُدُ الأسانيدَ والمتون ، وكيف يميّز الصحيحَ من غيره . فهو كتاب — فى هذا المعنى — تعليمىّ عظيم ، ونفعُه جليل كثير.

وكان اتّصالنا به منذ أكثر من خمس وأربعين سنة، فى طبعته الأولى ببولاق ، التى طُبع فيها بهامش تفسير آخر من سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٢ . وهى طبعة محرفة لايكادُ يُنتفعُ بها نفعاً صحيحاً .

ثم طبعه أُستاذُنا السيد محمد رشيد رضا رحمه الله — ومعه تفسير البغوى — فى مطبعة المنار فى تسعة مجلدات ، من سنة ١٣٤٣ — ١٣٤٧ ، بأمر جلالة الملك إمام أهل السنة ومحيي مذهب السلف ، وباعث النهضة الإسلامية والعربية الإمام (عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) رحمه الله رحمةً واسعةً وأسكنه فسيح جناته .

واجتهد أستاذُنا رحمه الله فى تصحيحه ما استطاع . ولكن فاته من ذلك الشىء الكثير .

ثم تداولت المطابع فى مصر طبعَه طبعاتٍ تجاريةً ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة . إنما اعتمدوا طبعةَ المنار ، فأخذوها بما فيها من أغلاط ، ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف .

فكان انتفاعُ الناس بهذا التفسير العظيم انتفاعاً قاصراً ، لما امتلأت به طبعاتُه من غلط وتحريف . يجب معهما أن يُعادَ طبعه طبعةً علميةً محققةً ، يُرجَع فيها إلى النسخ المخطوطة منه ما أمكن ، ثم الرجوعُ إلى مصادر السنة التى يَنْقل عنها المؤلفُ الإمامُ الحافظ ، وإلى مراجع رجال الحديث والتراجم ، لتصحيح أسماء الرجال فى الأسانيد — وهم شىء كثير ، وعدد ضخم .

هذه ناحية . وناحية أخرى : أن القارئ المتوسط ، الذى يريد أن يَصِلَ إلى المقصد الأول من التفسير ، وهو فهم الآيات الكريمة على معناها الصحيح ، الذى يؤيده الكتاب والسنة الصحيحة — يجدُ أمامه بحراً خِضَمًّا لا يَكاد يُدرَك ساحلُه ، من الأسانيد والآثار والأقوال ، ودقائق العلم فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال . مما يجب معه أن نمهّد الطريقَ لهذا القارئ المتوسط ، و نُيَسِّرَ له السبيلَ . فنَضَعَ بين يديه مقاصدَ هذا التفسير العظيم قريبةً صافية ، يفهم منها القرآنَ الكريم فهماً صحيحاً . لا يخوض معه عُباب الأبحاث الفنية الدقيقة فى تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، ولا يَطغى عليه اختلافُ ألفاظ المفسّرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وهى فى الأكثر الأغلب ترجع إلى معنًى واحد فى تفسير الآيات .

وقد بدا لى أن أقومَ بالعملين : نشر هذا التفسير فى طبعة علمية محققة متقنة . وإخراج مختصر منه للقارئ المتوسط يحفظ عليه مقاصده — إن شاء الله ذلك ويسَّره ووفقنى له .

ثم رأيتُ أن أبدأ بالذى هو أيسرُ وأقربُ للناس — وهو التفسير المختصر — وإن كان العمل فيه أكثرَ مشقةً ، وأصعبَ دِقّةً . بعد طول تردّدٍ ، وعمقِ تفكيرٍ ، واستشارةِ كثيرٍ من الإخوانِ العارفين الخُلَصاء الأُمناء على العلم والدين . جزاهم الله عنّى وعن العلم أحسن الجزاء ، ووفقنى وإياهم للعمل الصالح ، والعلم النافع .

واعتمدتُ « مخطوطة الأزهر » أصلاً لتصحيح نصوص الكتاب . وهى أقربُ إلى الصحة من كل طبعاته . والخطأ من الناسخ فيها قليل ، يمكن تداركه بسهولة .

وسيأتى وصفها فى فصل خاصّ ، إن شاء الله .

وسميتُ هذا المختصر : (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) وأرجو أن يكون المُسَمَّى جديراً باسمه ، إن شاء الله تعالى ، و به الثقة .

منهج الاختصار

١ — حافظتُ كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير ، الميزةِ التى انفرد بها عن جميع التفاسير التى رأيناها ، وهى تفسيرُ القرآن بالقرآن ، وجمعُ الآيات التى تدل على المعنى المراد من الآية المفسَّرة أو تؤيده وتقوّيه . فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ فى ذلك .

٢ — حافظتُ على آراء الحافظ المؤلف وترجيحاته فى تفسير الآيات ، مجتهداً فى إبقاء كلامه بحروفه ما استطعتُ .

٣ — اخترتُ من الأحاديث التى يذكرها أصحَّها وأقواها إسنادًا ، وأوضحَها لفظاً . فإن المؤلف رحمه الله كثيرًا مّا يذكر الحديثَ الواحدَ برواياتٍ متعددة ، ومن أوجهٍ مختلفة .

٤ — حذفتُ أسانيد الأحاديث التى أذكرها . فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيدها مفصلةً من دواوين السنة . فيقول مثلًا « قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا . . . » — ثم يسوق الإسنادَ والحديث . ثم كثيراً مّا يذكر بعده تخريجَه من الصحاح والسنن وغيرها ، بأسانيدها كاملة أو بالإشارة إلى الأسانيد .

٥ — فاكتفيت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابىّ راويه ، أو التابعى إذا كان الصحابىُّ غيرَ مُسَمًّى . ثم أذكرُ بعد ذلك مَن رواه من الأئمة ،

معتمداً فى ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله ، وهو حجةٌ فى ذلك . فلم أرجع إلى المصادر التى يذكرها إلا عند الضرورة القصوى ، لتحقيق لفظ الحديث ، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة ، التى تتعلق بالرواية أو الدراية . ولم أزد على تخريجه إلّا ما لم يكن منه بُدٌّ .

٦ — حذفتُ كل حديث ضعيف أو معلول ، إلّا أن يكون إثباتُه فى موضعه ضرورةً علمية : لرفع شبهة ، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بمرّةٍ ، أو ردٍّ على احتجاج به لِذِى هوًى أو ضِغْنٍ على الإسلام وأهله . أو غير ذلك من المقاصد العالية .

٧ — حذفتُ المكرَّر من أقوال الصحابة فى التفسير ، وكثيراً من آراء التابعين ، اكتفاء ببعضها . خصوصاً وأنها كثيراً مّا تختلفُ لفظاً وتتفق أو تتقارب معنًى ، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله (ص ٤٥ س ١١) : « والكل بمعنًى واحد فى أكثر الأماكن » .

٨ — نَفَيْتُ عن كتابى هذا كلَّ الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها . فإن المؤلف رحمه الله قد جَدَبَها[1] فى مواضعَ كثيرةٍ من تفسيره ، وأبان عن خَطَلها وضَرَرها ، وأنْحى باللائمة على روايتها ورُواتِها ، ورسم لنفسه خطةً فى شأنها . ومع ذلك فإنه — فيما يَبْدُو لى — لم يستطعْ أن يسيرَ على ما رَسَم ، وغلبَه ما وجَدَ من الروايات فى كثير من المواطن ، فأثبتَ طائفةً منها غيرَ قليلة . فحذفتُها كلَّها ، والحمد لله .

٩ — حذفتُ أكثرَ ما أطال به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية والفروع الفقهية ، والمناقشات اللغوية واللفظية ، مما لا يتّصل بتفسير الآية

(١) جدبها : أى ذمها وعابها .

اتّصالاً وثيقاً. وأبقيتُ من ذلك ما لم أجد منه بدًّا فى إيضاح معنى الآية، أو تقوية المعنى الراجح المختار فى تفسيرها.

١٠ — أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلًا لمناسبة تفسير آية أو لمعنًى يتعلق بها، ولا يكون كلُّه فى موضع الشاهد المتعلق بالآية، بل بعضُه فقط.

فرأيت أن أقتصر فى مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه، لأن المقصدَ الأصلىّ هو التفسير، لا روايةُ الحديث كلِّه. وأشيرُ بكلمة تدل على ذلك، وأضعُها بين معكّفين هكذا: [ ] دون أن أنبه عليه، ليعلمَ القارئُ أن هذا من صنيعى، لا من صنيع ابن كثير.

١١ — وأصنعُ نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحداث التاريخية المطوّلة، التى تتعلق بالتفسير. فأضعُ الملخَّصَ الذى أكتبه بين المعكّفين أيضاً. دلالة على أنه من كلامى لا من كلامه.

١٢ — أما الزياداتُ التى أضعُها بين المعكّفين أثناءَ الكلام، سواءٌ أكانتْ زائدةً فى المخطوطة الأزهرية على المطبوعة، أم كانت زيادةً من قِبَلِى لتصحيح الكلام، مما لا يُفهم الكلام أو لا يَتِمُّ إلّا به — فإنى أنبّه على ذلك وعلى سبب الزيادة فى الهامش. حتى يثقَ المطَّلعُ على الكتاب أنّى لم أتصرفْ فى الأصل إلّا على أساسٍ علمىّ صحيح. وأُصِيبُ وأُخطئُ، كما يخطئُ الناسُ ويصيبون. والتوفيقُ من الله.

١٣ — وهناك تغيير أكتفى بالإشارة إليه هنا. وهو ما اقتضاه حَذْفى للأسانيد التى يسوقُها المؤلف للأحاديث — كما بينتُ فى الفقرتين الرابعة والخامسة: فإمّا أن أذكرَ الحديثَ أولًا، مبتدئًا باسم الصحابى مثَلًا: «عن فلان»، ثم أذكرَ الكتب التى نسبها إليه الحافظ. وإما أن

أذكرَ الكتابَ الذى رَوَى منه أولًا ، فأقولَ مثلًا : « روى البخارى » أو « روى الإمام أحمد » ، ثم أُكمل التخريج الذى ذكره المؤلف ، بعد سياق الحديث . دون أن أشير فى كل موضع إلى هذا التغيير ، فإنه بديهى ألجأ إليه حذفُ الإسناد .

١٤ — وتغيير آخر بسيط ، فى سياق أقوال الصحابة أو التابعين فمن بعدهم ، فى تفسير الآيات . فقد أذكر القول ثم أبيّن قائلَه ، وقد أقدّم اسم قائل ذلك بعد حذف الإسناد إليه — على ما يقضى به نظامُ الكلام وسياقُه .

١٥ — وآيات القرآن الحكيم المفسَّرة ، التى يذكرها الحافظ ابن كثير ويبدأ بها مجموعةً — نرسمها على رسم المصحف العثمانى ، مضبوطةً بالشكل الكامل ، على الرسم الثابت فى المصحف الذى طبعته الحكومة المصرية مراراً ، بعد تصحيحه ومراجعته فى لجنة علمية عظيمة ، برئاسة الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى — شيخ المقارئ المصرية إذ ذاك ، رحمه الله — فى سنة ١٣٣٧ .

١٦ — ونثبتُ فى آخر كل آية رقمها على ما فى ذلك المصحف الجليل .

١٧ — وأما الوقوف أثناء الآيات ، فنضع بجوارها شولةً هكذا ، دون تقيد بالاصطلاح فيه بين : وقف جائز على التساوى ، أو جائز مع أولويته ، أو جائز مع أولوية الوصل . إلّا الوقف اللازم ، فإننا نضع فوق الشولة ميماً صغيرةً هكذا : م .

١٨ — وأما الكلمة التى فيها وقفانِ : قبلها وبعدها ، والتى لا يجوز فيها إلا أحدهما — ولها اصطلاح خاص فى ذلك المصحف — فإنا سنتخير أجودهما وأولاهما فى المعنى . مثل ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدًى

للمتقين ﴾ . فإن الوقف بعد " فيه " أدق فى المعنى وأجود من الوقف قبلها .

١٩ — ونضع فى رأس كل صفحة اسمَ السورة ورقم الآيات المفسّرة ، حتى يسهل على القارئ البحث عما يريد من التفسير دون عناء .

٢٠ — ونثبت بجوار أوائل أجزاء القرآن الثلاثين — بالهامش — كلمة « الجزء » وتحتها رقمه .

٢١ — ونثبت بجوار أوائل الأرباع — بالهامش أيضاً — كلمة « ربع » . ومعناها : ربع حزب ، والحزب نصف جزء . ولكنَّا لا نتقيد بذكر الأحزاب ولا أرقام أرباعها : « نصف الحزب » ، « ثلاثة أرباع الحزب » — المثبتة بهامش المصحف . لأن أكثر الناس لا يعرفون إلا أنها كلها أرباع . فذلك أيْسَرُ لهم .

٢٢ — وإذا كان أولُ الربع أول الآيات التى يذكرها الحافظ المفسّر ، اكتفينا بكلمة « ربع » . أما إذا كان أثناء الآيات ، فإنا نضع بجواره — بعد رقم الآية التى قبله — نجمةً صغيرة هكذا * للدلالة على ذلك .

٢٣ — ونكتب بالهامش أيضاً بجوار مواضع السجدات فى الآيات — كلمة « سجدة » . ليعرف موضع السجود عند التلاوة . إن شاء الله .

وأنا بفطرتى العلمية ، وبما خَبَرْتُ من شأن الكتب ونفائس التراث الإسلامىّ العظيم — أكرهُ اختصارَ الكتب أو أىَّ تصرّف فيها . ولكنى اَمَتْتُ الحاجةَ الماسّةَ والضرورةَ المُلِحَّةَ لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين ، الذين لم يُمارسوا دقائق العلم ، ولم يتَّصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة فى الفنون ، ولطلَّاب العلوم الإسلامية فى شتَّى أنحاء العالم الإسلامىّ . فرأيتُ أن لا بدَّ مما ليس منه بُدٌّ .

ثم قوّى من عَزْمتى وأزال تردّدى ما رأيتُ فى (مخطوطة الأزهر) من (تفسير ابن كثير) . فإنى وجدتُها قد خَلَتْ من كثير مما رأيتُ حذفَه ، كأنها مختصرةٌ من الـكتاب ، وما هى بمختصرة . ولـكنّى رجَّحت — كأنَّه اليقين — أنّ الحافظ رحمه الله كان لا يزال ينظرُ فى كتابه ، فيزيدُ فيه ما يَرَى زيادتَه ، من أبحاثٍ كلامية ، وفروع فقهية ، وأبحاث لغوية ، وأقوالٍ وآراءٍ للعلماء الأئمة . فخرجتْ نُسَخُ الـكتاب مختصرةً ومطوَّلَةً . كما هو شأنُ كثيرٍ من العلماء الكبار الذين يحرصون على العلم والمعرفة . والمُثُل فى ذلك حاضرةٌ ، لا نُطِيل بذكرها .

* * *

وأسأل الله العلىّ القدير أن يوفّقنى لإتمام هذا المختصر ، على النحو المفيد المُجْدِى المُجزِى . وأن يوفّقنى لإخراج الأصل إخراجاً علمياً صحيحاً . إنه سميع الدعاء ، وهو ولىُّ التوفيق .

كلمات لابن كثير

بشأن الإسرائيليات

للحافظ ابن كثير كلماتٌ قويةٌ فى شأن الإسرائيلياتِ وروايتها ، وقد رَسَم فى بعضها خطَّتَه نحوَها . ولـكنّى رأيتُه — على الرغم من ذلك — يحكى بعضَها ، وكثيراً مّا يُعقِّب على ما يحكى بالردّ .

وقد رأيتُ أن أجمع هنا — فى هذه المقدمة — ما وجدتُه أثناء قراءتى فيه مما قيَّدْتُ الإشارةَ إلى موضعه . وعسى أن أستطيعَ جمعَ ما فاتنى من ذلك ، ثم أذكرَه فى آخر هذا الـكتاب (العمدة) إن شاء الله .

فقال فى مقدمة تفسيره (ص ٤٣ — ٤٤ من كتابنا هذا) — بعد أن ذَكر حديثَ « بلِّغُوا عنِّى ولو آيةً ، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَجَ ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأْ مقعده من النار » — : « ولـكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام : أحدها : ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما نشهدُ له بالصدق ، فذاك صحيح . والثانى : ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه . والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمِنُ به ولا نكذّبه ، وتجوزُ حكايتُه لما تقدّم . وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه تعودُ إلى أمرٍ دينىّ . ولهذا يختلف علماء أهل الـكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسّرين خلافٌ بسبب ذلك . كما يَذكرون فى مثل أسماء أصحاب الـكهف ولون كلبهم وعِدّتهم ، وعصا موسى مِن أىّ شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبرهيم ، وتعيين البعض الذى ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلّم الله منها موسى .

إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعودُ على المكلَّفين فى دنياهم ولا دينهم . ولكن نقلُ الخلاف عنهم فى ذلك جائز . كما قال تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ » . إلى آخر الآية .

ويقول أحمد محمد شاكر عفا الله عنه : إن إباحةَ التحدّث عنهم فيما ليس عندنا دليلٌ على صدقه ولا كذبه — شىء ، وذكرُ ذلك فى تفسير القرآن ، وجعلُه قولاً أو روايةً فى معنى الآيات ، أو فى تعيين ما لم يعيَّن فيها ، أو فى تفصيل ما أُجْمِل فيها — شىء آخر ! ! لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يُوهم أنّ هذا الذى لا نعرفُ صدقه ولا كذبَه مُبَيِّنٌ لمعنى قول الله سبحانه ، ومُفصِّلٌ لما أُجمل فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ أَذِنَ بالتحدّث عنهم — أَمَرنا أن لا نصدقَهم ولا نكذبَهم . فأىّ تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نَقْرِنَها بكتاب الله ونضعَها منه موضعَ التفسير أو البيان ؟ ! اللهمّ غَفْرًا .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسُه ، فى تفسير الآية : ٥٠ من سورة الكهف — بعد أن ذكر أقوالاً فى « إبليس » واسمه ومن أىّ قبيلٍ هو ؟ ! — : « وقد رُوى فى هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبُها من الإسرائيليات التى تُنقل ليُنْظَرَ فيها ، واللهُ أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه ، لمخالفته للحقّ الذى بأيدينا . وفى القرآن غُنْيَةٌ عن كلّ ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وُضِعَ فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفّاظ المُتْقِنين الذين يَنْفُون عنها تحريفَ الغَالِين وانتحالَ المبطلين — كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقّاد ، والحُفَّاظ الجياد ، الذين دَوّنوا الحديث وحَرَّرُوه ، وبيَّنوا صحيحَه من حَسَنِه من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا

الوضّاعين والكذّابين والمجهولين ، وغيرَ ذلك من أصناف الرجال . كلُّ ذلك صيانةً للجناب النبوىّ والمقام المحمدىّ، خاتم الرسل وسيد البشر ، صلى الله عليه وسلم — أن يُنْسَب إليه كذبٌ ، أو يُحَدَّثَ عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجَعَل جنّاتِ الفردوس مأواهم . وقد فَعَلَ » .

وقال عند تفسير الآيات ٥١ — ٥٦ من سورة الأنبياء ، بعد إشارته إلى حال إبرهيم عليه السلام مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات — : « وما قَصَّه كثيرٌ من المفسّرين وغيرهم ، فعامّتها أحاديثُ بنى إسرائيل . فما وافقَ منها الحقّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلْناه ، لموافقته الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك رَدَدْناه ، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ ، لا نصدّقه ولا نكذّبه ، بل نجعله وَقْفاً . وما كان من هذا الضَّرْب منها فقد رخّص كثير من السلف فى روايته . وكثيرٌ من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصلَ له مما يُنْتَفَع به فى الدّين . ولو كانت فائدتُه تعود على المكلَّفين فى دينهم لبيَّنَتْه هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ . والذى نَسْلُكُه فى هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثيرٌ منها من الكذب المُرَوَّج عليهم . فإنهم لا تَفْرِقَةَ عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حَرّره الأئمةُ الحُفّاظ المُتْقِنُون من هذه الأمة » .

وقال عند تفسير الآية : ١٠٢ من سورة البقرة : « وقد رُوى فى قصة هاروتَ وماروتَ عن جماعة من التّابعين ، كمجاهد والسُّدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والرَّبيع بن أنس ومقاتل بن حيّان وغيرهم ، وقصَّها خلقٌ من المفسّرين ، من المتقدّمين والمتأخّرين . وحاصلُها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ، إذ ليس فيها حديثٌ مرفوع صحيح متّصلُ الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة

من غير بَسْطٍ ولا إطنابٍ فيها ، فنحن نُؤمِنُ بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال » .

وقال فى أول سورة قٓ : « وقد رُوى عن بعض السلف أنهم قالوا : قٓ ، جبل مُحيطٌ بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف ! ! ! وكأنّ هذا — والله أعلم — من خرافاتِ بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعضُ الناس ، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدَّق ولا يكذَّب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهَه من اختلاقِ بعض زنادقتهم ، يَلْبِسُون به على الناس أمرَ دينهم . كما افْتُرِىَ فى هذه الأمة — مع جلالة قدر علمائها وحُفّاظها وأئمتها — أحاديثُ عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وما بالعَهْدِ من قِدَمٍ . فكيف بأمةِ بنى إسرائيل ، مع طول المَدَى ، وقلة الحُفّاظ النُّقّاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلمَ عن مواضعه ، وتبديلِ كُتُب الله وآياتِه . وإنما أباح الشارعُ الروايةَ عنهم فى قوله "وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" — فيما قد يُجَوِّزُه العقل . فأما فيما تُحيلُه العقول ، ويُحْكَمَ فيه بالبُطلان ، ويَغلبُ على الظنون كذبُه — فليس من هذا القَبيل » .

وقال عند تفسير الآيات ٤١ — ٤٤ من سورة النمل ، وقد ذكر فى قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عن ابن عباس ، وَصَفَه بأنه « منكر غريب جدًّا » — ثم قال : « والأقربُ فى مثل هذه السياقات أنها متلقَّاةٌ عن أهل الكتاب ، مما وُجد فى صُحُفهم ، كروايات كعْب ووَهْب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حُرِّف وبُدِّل ونُسِخَ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضحُ وأبلغُ . ولله الحمد والمنة » .

وقال عند تفسير الآية : ٤٦ من سورة العنكبوت ، بعد أن رَوَى الحديث :

« إذا حدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم» — قال : « ثم لِيُعلَمْ أنّ أكثرَ ما يتحدَّثون به غالبُه كذبٌ وبهتانٌ، لأنه قد دخله تحريفٌ وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقلَّ الصدقَ فيه . ثم ما أقلَّ فائدتَه لو كان صحيحاً » .

وقال عند تفسير الآية : ١٩٠ من سورة الأعراف : « ثم أخبارُهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحتَه ، بما دلَّ عليه الدليلُ من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها ما علمنا كذبَه ، بما دلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها ما هو مسكوتٌ عنه ، فهو المأذون فى روايته ، بقوله عليه السلام "حدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج" . وهو الذى لا يُصدَّق ولا يُكذَّب ، لقوله "فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم" » .

وهناك قصةٌ طويلة جدًّا ، رواها النسائى فى باب التفسير من السنن الكبرى — التى لم نرَها — وابنُ أبى حاتم فى تفسيره ، عن ابن عباس . ويسميها الحافظُ ابنُ كثير « حديثَ الفُتُون » . ساقه بِطُوله عند تفسير قوله تعالى ﴿ وفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ من الآية : ٤٠ من سورة طه — ثم قال : « وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوعٌ إلاّ قليلٌ منه . وكأنّه تلقّاه ابنُ عباس مما أُبيح نقله من الإسرائيليات ، عن كعب الأحبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعتُ شيخَنا أبا الحجاج المِزِّى يقول ذلك أيضاً » .

وهذا الحديثُ — حديثُ الفتون — يشيرُ إليه الحافظ ابن كثير ، فى مواضعَ متعددةٍ من تفسيره . وقد نفيتهُ عن كتابى هذا نَفْياً ، ولم أُشِرْ إليه إلاّ مرةً واحدةً ، عند أول مرة أشار إليه ابنُ كثير فيها ، عند تفسير الآية : ٤٩ من سورة البقرة . ثم أعرضتُ عن الإشارة إليه ، إن شاء الله . فلا أُشِيرُ إليه إلاّ أنْ أُضْطَرَّ إلى ذلك اضطراراً . وأسأل الله التوفيق والتيسير ، والهدى والسداد .

* * *

ومن أعظم الكلم فى الدلالة على تنزيه القرآن العظيم عن هذه الأخبار الإسرائيلية — كلمة لابن عباس رواها البخارى فى صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة البقرة . فقال ابن عباس : « يا معشرَ المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابُكم الذى أنزل الله على نبيّه أحْدَثُ أخبارِ الله ، تقرؤنه مَحْضاً لم يُشَبْ ! وقد حدَّثكم الله أنّ أهل الكتاب قد بَدَّلُوا كتابَ الله وغيَّروه ، وكتَبوا بأيديهم الكتابَ ، وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلَا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلَتِهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قَطُّ سألكم عن الذى أُنزل إليكم » .

وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخارى فى ثلاثة مواضع من صحيحه ٥ : ٢١٥ ، و ١٣ : ٢٨٢ ، ٤١٤ من فتح البارى .

مخطوطة الأزهر

هى مخطوطة نفيسة فى المكتبة الأزهرية ، تحت رقم : ١٦٨ تفسير . فى سبعة مجلدات ، مجموع أوراقها : ٢١٩٥ ورقة . وهى كاملة إلاّ خرماً فى المجلد الثالث منها . وقد صوّرتُها لمكتبتى .

كتبَها « محمد بن على الصوفى ، البوّاب بالخانقاه السمسطائية ، بدمشق المحروسة » ، كما أثبتَ ذلك ناسخُها . وفرغَ من كتابتها يوم ١٠ جمادى الأولى سنة : ٨٢٥ . أمره بكتابتها « قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين ، حجة الإسلام والمسلمين . . . عمر ، ابن سيدنا ومولانا . . . أبى محمد حجّى السعدى الشافعى . . . برسم خزانته » . وأثبتَ كاتبُها ذلك فى وثيقةٍ مطوّلة فى آخر النسخة .

وقاضى القضاه نجم الدين بن حجى ولد سنة : ٧٦٧ بدمشق ، ومات فيها قتيلاً ليلة الأحد مستهل ذى القعدة سنة ٨٣٠ . وهو مترجم فى الضوء اللامع للسخاوى ٦ : ٧٨ — ٧٩ . والدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٢٥٧ — ٢٥٨ . والشذرات ٧ : ١٩٣ . وكنيتُه عندهم « أبو الفتوح » ولكن كاتب هذه النسخة قال : « أبو حفص » . فلا أدرى : أكان له كنيتانِ ؟ أم أن ما أثبتَه كاتبُ النسخة أقربُ إلى القبول ، لأنه من أتباعه ؟

وهذه النسخة يغلبُ عليها الصحةُ ، والخطأُ فيها قليل ، بما خبرتُها فى مواضعَ كثيرة ، وفى عملى فى هذا الكتاب . ولكن أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله لم يُنْصفها حين وَصَفَها :

فإنه حين وصَف عملَه فى إخراج هذا التفسير ، فى آخر كتاب « فضائل

القرآن » الذى ألحقه بالمجلد التاسع الأخير منه — قال : « ثم استعرنا من خزانة كتب الجامع الأزهر النسخةَ الخطيةَ الوحيدةَ التى فيها ، وليست من الأصول الصحيحة التى يُعتمد عليها ، بل هى كثيرةُ التصحيف والتحريف والسقط » !

هكذا قال رحمه الله . أما « السقط » ، فقد بيّنا أنه ليس كذلك ، و إنما هناك نسخ أخرى فيها زيادات زادها الحافظ ابن كثير بعد التأليف . ولعلنا نزيد ذلك بياناً و إثباتاً ، إذا يُسّر لنا إخراجُ التفسير كلّه فى طبعة علمية محقَّقة ، إن شاء الله .

وأما « التصحيف والتحريف » ، فإنه فيها قليل ، مما لا يخلو منه مخطوط أو مطبوع . بل إنّى لأستطيع أن أقرر أن أكثرَ ما أجِدُ فى مطبوعة المنار من أغلاط وتصحيفَات ، أجدُه ثابتاً على الصواب فى هذه المخطوطة ، « مخطوطة الأزهر » ، و إنى لَأَجِدُ فى بعض المواضع هامشةً لأستاذنا رحمه الله ، يذكر فيها ما فى نسخة الأزهر ، ثم يتبينُ أنه هو الصواب ، وأن ما أُثبت فى صلب الكتاب هو الخطأ أو التصحيف .

والذى أرجحه أن أستاذَنا رحمه الله لم يقابِلِ الكتابَ على نسخة الأزهر بنفسه ، ولعله عهد بذلك إلى بعض من يَلُوذ به من الطلّاب أو غيرهم ، بعدَ أنْ نظر إلى النسخة نظرةً عَجْلَىٰ ، على ما كان من مشاغله الكثيرة ، وما اعتذر به فى آخر كلمته من المرض الطويل الذى منعه من كل عمل . رحمه الله رحمة واسعة .

وها هى ذى نماذج مصورة من بعض صحفها ، قد تُقنع القارىء ببعض ما أقول ، إنْ لم يكن به كلِّه .

وأسأل الله سبحانه الهُدَىٰ والسَّدادَ ، والعِصْمَةَ والتوفيقَ .

الإثنين { ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٧٥ / ٢ يوليو سنة ١٩٥٦ }

أحمد محمد شاكر

عفا الله عنه

بمنه

ترجمة

الحافظ ابن كثير

الإمام الحافظ الحجة المحدّث المؤرخ الثقة ، ذو الفضائل ، عماد الدين ، أبو الفداء : إسمعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، الشافعي .

ولد رحمه الله بقرية « مِجْدَل » من أعمال « بُصْرَى »[1] . وكان أبوه من أهل « بصرى » ، وأمه من قرية « مجدل » .

وقومه كانوا « ينتسبون إلى الشرف ، وبأيديهم نِسَب . وقف على بعضها شيخنا المِزّى فأعجبه ذلك وابتهج به ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك "القرشي" » — كما قال هو فى ترجمة أبيه ، فى تاريخه « البداية والنهاية » .

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠ ، كما ذكر أكثر من ترجم له ، « أو بعدها بقليل » كما قال الحافظ ابن حجر فى الدرر الكامنة . وهو تاريخ تقريبى . أرجح أنه مستنبط من كلامه فى ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه « توفى سنة ٧٠٣ . . . وكنتُ إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلّا كالحلم » .

و « ابن ثلاث سنين » لا يعرف تواريخ السنين — على اليقين — فى تلك السنّ . فقد سمع إذنْ تحديدَ السنةِ التى مات فيها أبوه ممن حوله من إخوةٍ أو أهلٍ أو جيرانٍ . ولكنه يدرك أباه « كالحلم » . فالذى هو فى سنّ أقل من

(١) « مجدل » : بكسر الميم وفتحها مع سكون الدال و « بصرى » بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة : بلد بالشام من أعمال دمشق . وهى قصبة كورة « حوران » .

الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً « كالحلم » ولا أبعدَ من الحلم ولا أقرب . فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة — فى أكبر ظنى — ولذلك أرجح أن مولده كان فى سنة ٧٠٠ أو قبلها بقليل . وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر « أو بعدها بقليل » . لأن الذى « بعدها » لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه .

وكان أبوه « الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير » من العلماء الفقهاء الخطباء . ولد — كما قال ابنه — فى حدود سنة ٦٤٠ . وترجم له ابنه الحافظ فى تاريخه الكبير « البداية والنهاية » ، ج ١٤ ص ٣١ — ٣٣ . ومما قال فى ترجمته : « اشتغل بالعلم عند أخواله بنى عقبة ببصرى . فقرأ "البداية" فى مذهب أبى حنيفة . وحفظ "جُمَل الزجَّاجى" . وعُنى بالنحو والعربية واللغة . وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق فى المدح والمراثى وقليل من الهجاء . وقرر بمدارس بُصرى بمَبْرَك الناقة شمالىّ البلدة ، حيث يُزَار ، وهو المَبْرَك المشهور عند الناس[1] ! والله أعلم بصحة ذلك . ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقىّ بصرى ، وتمذهب للشافعى . وأخذ عن النواوى والشيخ تقى الدين الفزارى — وكان يكرمه ويحترمه ، فيما أخبرنى شيخنا العلامة ابن الزملكانى . فأقام بها نحواً من ١٢ سنة . ثم تحوّل إلى خطابة "مجدل" : القرية التى منها الوالدة . فأقام بها مدة طويلة ، فى خير وكفاية وتلاوة كثيرة . وكان يخطب جيداً ، وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ، لديانته وفصاحته وحلاوته . وكان يؤثر الإقامة فى البلاد[2] ، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله . وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها . أكبرهم : إسمعيل ، ثم يونس ، وإدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عدة . ثم أنا

---

(١) يريد هؤلاء الناس — فيما يزعمون — : مبرك ناقة صالح عليه السلام .

(٢) يعنى القرى .

أصغرهم وسُمِّيت باسم الأخ " إسمعيل " — لأنه كان قد قدم دمشق ، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة فى النحو ، وحفظ التنبيه ، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزارى ، وحصل المنتخب فى أصول الفقه . قاله لى شيخنا ابن الزملكانى . ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية ، فمكث أياماً ومات . فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، ورثاه بأبيات كثيرة . فلما ولدتُ أنا له بعد ذلك سمانى باسمه . فأكبر أولاده : إسمعيل ، وأصغرهم وآخرهم : إسمعيل . فرحم الله مَن سَلَفَ ، وخَتَمَ بخيرٍ لِمَنْ بَقِي . توفى والدى فى شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣ . فى قرية مجدل . ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون . وكنت إذْ ذاك صغيراً ، ابن ثلاث سنين أو نحوها . لا أدركه إلا كالحلم . ثم تحولنا من بعده فى سنة ٧٠٧ إلى دمشق ، صحبة " كمال الدين عبد الوهاب " وقد كان لنا شقيقاً، و بنا رفيقاً شفوقاً . وقد تأخرتْ وفاته إلى سنة خمسين [يعنى سنة ٧٥٠] . فاشتغلتُ على يديه فى العلم ، فيسَّر الله تعالى منه ما يسَّر ، وسَهَّل منه ما تعسَّر » .

وقد بدأ الاشتغال بالعلم على يدى أخيه عبد الوهاب — كما قال آنفاً — ثم اجتهد فى تحصيل العلوم على العلماء الكبار فى عصره . وحفظ القرآن الكريم ، وختم حفظه سنة ٧١١ ، كما صرح بذلك فى تاريخه ١٤ : ٣١٢ . وقرأ بالقراءات ، حتى عده الداودى من القراء[١] ، وترجم له فى طبقاتهم التى ألفها[٢] . وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ فى عصره . وعنى بالسماع والإكثار منه . فممَّا ذكر فى

---

(١) الداودى : هو شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى المصرى ، مات سنة ٩٤٥ . ولكن ابن الجزرى لم يذكر ابن كثير فى طبقات القراء .

(٢) ومما ينبغى التنبيه إليه : أن « ابن كثير » هذا الحافظ المفسر ، غير « ابن كثير » أحد القراء السبعة . فذاك اسمه « عبد الله بن كثير المكى » ، إمام أهل مكة فى القراءة ، وهو قديم من التابعين ، روى عن ابن الزبير وأنس بن مالك . ولد سنة ٤٥ ، ومات سنة ١٢٠ .

تاريخه ١٤ : ١٤٩ ، أنه سمع صحيح مسلم فى تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلانى ، بقراءة الوزير العالم أبى القاسم محمد بن محمد بن سهل الأزدى الغرناطى الأندلسى ، المتوفى بالقاهرة فى ٢٢ محرم سنة ٧٣٠ — حين قدم دمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٢٤ عازماً على الحج .

وذكر فى ترجمة شيخه الكبير المعمَّر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة : أنه سمع عليه « بدار الحديث الأشرفية فى أيام الشتويَّات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات والسماع » . وهذا الشيخ « عاش مائة سنة محقَّقاً ، وزاد عليها » . وتوفى سنة ٧٣٠ . (التاريخ ١٤ : ١٥٠) .

وتفقّه على الشيخين برهان الدين الفزارى وكمال الدين بن قاضى شهبة . وحفظ التنبيه للشيرازى فى فروع الشافعية ، ومختصر ابن الحاجب فى الأصول . ولزم الحافظ الكبير أبا الحجاج المزّى ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم فى الرجال « تهذيب الكمال » . وصاهره على ابنته زينب[1] . وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرج على يديه ، وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، واتّباع له فى كثير من آرائه . وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق[2] ، وامتُحن بسبب ذلك وأوذى .

وكان من أفذاذ العلماء فى عصره . أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومَن بعدهم — الثناء الجمّ :

فذكره الحافظ الذهبى فى طبقات الحفاظ ٤ : ٢٩ ، مع أن الذهبى يكاد يكون من طبقة شيوخه ، لأنه مات سنة ٧٤٨ ، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة . فقال فى

---

(١) ذكرها باسمها فى ترجمة شيخه الحافظ المزى ، المتوفى سنة ٧٤٢ . (التاريخ ١٤ : ١٩١ — ١٩٢) .

(٢) أى وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، كما هو الحق الذى تدل عليه الدلائل الصحاح .

طبقات الحفاظ : « وسمعتُ مع الفقيه المفتى المحدِّث ، ذى الفضائل ، عماد الدين إسمعيل بن عمر بن كثير البُصْرَوى الشافعى . . . سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة . له عناية بالرجال والمتون والفقه . خرّج وناظر وصنّف وفسّر وتقدّم » . وقال الذهبى فى المعجم المختص — فيما نقل ابن حجر وغيره: « الإمام المفتى المحدّث البارع ، فقيه متفنّن ، محدث متقن ، مفسّر نقّال » .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجى : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها . وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك . وكان يستحضر كثيراً منْ التفسير والتاريخ ، قليل النسيان . وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن ، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت . ويشارك فى العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر . وما أعرف أنى اجتمعت به — على كثرة ترددى عليه — إلا واستفدت منه » . (عن النعيمى فى كتاب الدارس) .

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسينى فى ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٨) : « وصاهر شيخنا أبا الحجاج المزّى فأكثر عنه . وأفتى ودرّس وناظر ، وبرع فى الفقه والتفسير والنحو . وأمعن النظر فى الرجال والعلل » .

وقال الحافظ ابن حجر فى الدرر الكامنة : « ولازم المزّى ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ففُتن بحبه ، وامتُحن بسببه . وكان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة . سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته . ولم يكن على طريقة المحدثين فى تحصيل العوالى ، وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم . وإنما هو من محدّثى

الفقهاء . وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح[١] ، وله فيه فوائد » .

ونقل السيوطى فى ذيل طبقات الحفاظ كلام الحافظ ابن حجر فى أنه « لم يكن على طريقة المحدثين ... » ثم تعقبه بقوله : « العمدة فى علم الحديث معرفةُ صحيح الحديث وسقيمه ، وعلله واختلاف طرقه ، ورجاله جرحاً وتعديلًا . وأما العالى والنازل ونحو ذلك — فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » . وهذا حق .

وقال السيوطى أيضاً : « له التفسير الذى لم يؤلَّف على نمطه مثلُه » . يشير إلى هذا التفسير العظيم الذى نختصره .

وقال العلامة العينى — فيما نقل عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة — : « كان قدوة العلماء والحفّاظ ، وعُمدةَ أهل المعانى والألفاظ . وسَمع وجَمَع ، وصنَّف ودرَّس ، وحدَّث وألَّف . وكان له اطّلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير . وله مصنفات عديدة مفيدة » .

ووصفه الحافظ العلامة شمس الدين بن ناصر ، فى كتاب « الرد الوافر » — بأنه « الشيخ الإمام العلامة الحافظ ، عماد الدين ، ثقة المحدّثين ، عمدة المؤرخين ، عَلَمُ المفسّرين » .

وقال فيه ابن حبيب — فيما نقل الداودى فى طبقات القراء وابن العماد فى الشذرات : « إمام ذوى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل . سمع وجَمَع وصنَّف ، وأطرب الأسماع بأقواله وشنَّفَ ، وحدَّث وأفاد ، وطارت فتاويه إلى

---

(١) كتابه هو هذا « اختصار علوم الحديث » . طبع أول مرة فى مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣ ، بتصحيح أخينا العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكى . ثم شرحته أنا شرحاً متوسطاً ، وطبع فى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٥ . ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح فى الشرح ، فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٧٠ .

البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسه العلم فى التاريخ والحديث والتفسير » .

وروى له الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر ، وابن العماد فى الشذرات — البيتين المشهورين ، الذائعين على الألسنة :

تَمُرُّ بنا الأيامُ تَتْرَى وإنمـــا نُسَاقُ إلى الآجال والعينُ تَنْظُرُ
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذى مَضَى ولازائلٌ هذا المَشِيبُ المُكَدِّرُ

وصحبتُه وملازمتُه لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد ، فى علمه ودينه ، وتقوية خلقه ، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة .

فهو مستقلّ الرأى ، يدور مع الدليل حيث دار ، لايتعصب لمذهبه ولا لغيره . وكتبه العظيمة ، وخاصةً هذا التفسير الجليل — فيها الدلائل الوافرة . ونَجِدُه — مع أنه شافعى المذهب — يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح ، أنه يقع طلقة واحدة . ثم يُمتَحن ويَلقى الأذى ، فيثبت على قوله ، ويصبر على ما يلقى فى سبيل الله .

وهو — وهو تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره — يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام وبين قاضى القضاة تقى الدين السبكى — ومع ذلك فإنه لا يُعين عليه فى محنة لحقَتْه ، بل يعلن عن غبطته بأن تزول عنه المحنة . فيذكر فى التاريخ — فى حوادث سنة ٧٤٣ (١٤ : ٢٠٤) أنه أرجف الناس كثيراً بقاضى القضاة — فى دمشق — « واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخرى . وكُتبت فتوى عليه بذلك فى تغريمه ، وداروا بها على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضى جلال الدين بن حسام الدين الحنفى ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة . وسُئلتُ فى الإفتاء

عليها فامتنعتُ ، لما فيها من التشويش على الحكام » . ثم يقول : « وكانوا له فى نية عجيبة ، ففرّج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية » .

فهذا خلق أهل العلم النبلاء الأتقياء

وقد طار ذكره فى الأقطار الإسلامية ، حتى إنه ليذكر فى حوادث سنة ٧٦٣ (١٤ : ٢٩٤ — ٢٩٥) أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان ، « يزعم أنه يحفظ البخارىّ ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشرى وغير ذلك » ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخارى وغيره بحضرة قاضى القضاة الشافعى وجماعة من الفضلاء ، ثم قال : « وفرح بكتابتى له بالسماع على الإجازة . وقال : أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك ، وأن تجيزنى . وذِكْرُك فى بلادنا مشهور » .

وهذا الخبر يدل على أن كتابه « جامع المسانيد » وصل إلى أقصى الشرق ، فى بلاد تبريز وخراسان ، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمى أو يحفظ شيئاً منه . فى حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف « جامع المسانيد » كما هو معروف . فكأن العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه ، و يتداولونه بينهم ، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحى النائية .

ولم يكن ممن يخدع فى الفتاوى التى ظاهرها قصد الاستفتاء ، ووراءها ألاعيب سياسية ، أو أغراض شخصية غير سليمة ، و إن كان المستفتى من الأمراء أو ممن يخشى بأسه . فهو يقول فى حوادث سنة ٧٦٢ : « وجاءتنى فتيا صورتها : ما تقول السادة العلماء فى ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدّمه . ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه ؟ وتصرف فى المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله : فهل له الامتناع منه ، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يُقتل يكون شهيداً ؟ وهل يثاب الساعى فى خلاص حقِ ورثة الملك

المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين ؟

فهذا استفتاء صِيغَ فى صورة تُوحِى بالجواب . و باطنُه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على المَلِك الذى دعاه للحضور عنده ، ويريد أن يثير فتنةً وقتالًا على صاحب الأمر ، لعله يصلُ إلى ما وصل إليه ذاك من المُلْك ، كعادة الأمراء من المماليك فى ذلك العهد . ولـكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيما يَكشف عن بعض مقصده ، ويضمِّن جوابَه النصيحةَ الواجبةَ فى مثل هذه الحال ، فيقول : « فقلت للذى جاءنى بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاصَ ذمته فيما بينه و بين الله تعالى — فهو أعلم بنيته فى الذى يقصده ! ولا يسعى فى تحصيل حقٍّ معَيَّنٍ إذا ترتّب على ذلك مفسدة راجحة فى ذلك، فيؤخِّر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه ! و إن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوّى بها فى جمع الدولة ، والأمراء عليه — فلا بدّ أن يكتب عليها كبارُ القضاة والمشايخ أولًا ، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه » . (التاريخ ١٤ : ٢٨١ — ٢٨٢) .

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية ، وأشاعوا فيها الرعب ، وارتكبوا الفظائع غدراً . وذلك : أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ « فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً . فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار ، بعد ما حرقوا أبواباً كثيرة منها . وعاثوا فى أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ، و يأخذون الأموال ، ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله العلىّ الـكبير المتعال . وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والإثنين والثلاثاء . فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصرى [1] ، فأقلعت الفرنج — لعنهم الله —

---

(١) فى النجوم الزاهرة (١١ : ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية) : « فلما وصل السلطان إلى الطرانة أرسل جاليشاً من الأمراء أمامه فى خفية . . . » . وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهامى منصور ، بهامشة : « الجاليش : مقدمة الجيش والراية العظيمة فى رأسها خصلة من الشعر » . وهى كلمة أعجمية — لعلها تركية أوفارسية — وفى مثلها الجيم شديدة التعطيش — بين الجيم والشين ، فيجوز تعريبها جيماً أو شيناً ، مثل « شاويش » و « جاويش » .

عنها ، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاربون الأربعة آلاف ، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ، ما لا يُحدّ ولا يُوصف . وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهْر يومئذ وقد تفارط الحال ، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر ، فسُمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله ، والاستغاثة به وبالمسلمين — ما قطَّع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصمّ الأسماع . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون . ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جدًّا ، وذكر ذلك الخطيبُ يوم الجمعة على المنبر ، فتباكى الناس كثيراً . فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج — كعادتهم — والنفوس تتقزز من مثلها ، وتثور من أجلها . والملوك والأمراء الظالمون ينتهزون فرصة تعبئة الرأى العام الإسلامى — وثورته من أجل هذا الغدر ، وغضباً لهذه ، الفظائع — ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب . ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل ، ولا يرضى بالظلم ، ولو كان ظاهره الانتقام والثأر للمسلمين . فيقول : «وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية ، إلى نائب السلطنة ، بمَسْك النصارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ، لعمارة ما خُرّب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكب تغزو الإفرنج . فأهانوا النصارى ، وطُلبوا من بيوتهم بعُنْف . وخافوا أن يُقتلوا ، ولم يفهموا ما يُراد بهم ، فهربوا كل مهرب . " ولم تكن هذه الحركة شرعيةً ولا يجوز اعتمادُها شرعاً" . وقد طُلبت يومَ السبت السادس عشر من صفر [أى سنة ٧٦٧] إلى الميدان الأخضر ، للاجتماع بنائب السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ ، بعد الفراغ من لعب الكرة . فرأيت منه أُنْسًا كبيراً ، ورأيته كامل الفهم ، حسن العبارة كريم المجالسه " فذكرتُ له أن هذا لا يجوز اعتمادُه فى النصارى "

[يعنى المرسوم بالمصادرة] . فقال : إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك ! فقلتُ له : " هذا مما لا يسوغُ شرعاً ، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا . ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدُّون إلينا الجزيةَ ملتزِمين بالذِلَّة والصَّغَار ، وأحكامُ الملة قائمة — لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهمُ الواحدُ الفردُ فوقَ ما يبذلونه من الجزية . ومثل هذا لا يخفى على الأمير" ! فقال : كيف أصنعُ وقد ورد المرسوم بذلك ؟ ولا يمكننى أن أخالفَه ؟ ! » . ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية . ولـكن هذا النائب لم يكن عند قوله ، فنفذ المرسوم ، و « طلب النصارى الذين اجتمعوا فى كنيستهم إلى بين يديه ، وهم قريب من أربعمائة ، فحلّفهم : كم أموالـكم ؟ وألزمهم بأداء الربع من أموالهم ، "فإنا لله و إنا إليه راجعون" » . وكانت هذه المصادرة الظالمة فى شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ . ثم قال الحافظ — فى حوادث شهر ربيع الآخر : « وفى أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطانى ، بالردّ على نساء النصارى ما كان أُخذ منهنّ مع الجباية التى كان تقدّم أخذها منهم " وإن كان الجميع ظُلماً ، ولـكن الأخذُ من النساء أفْحَشُ وأبلغُ فى الظلم " » . (التاريخ ١٤ : ٣١٤ — ٣١٥ ، ٣١٨) .

فانظر إلى هذا الإمام العظيم ، الذى يقف عند حدود الشريعة المطهرة ، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف ، و يألم و يسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى و بغيهم ، وشتان هذا وذاك . ولـكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل .

فكان هذا العقل المستقلّ العظيم الثابت على الحق ، والذى لا تغلبه العواطف والأهواء ، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة . يثق به أنصاره وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين ، حتى ليستشيره

بعض رؤسائهم ، فى أخصّ شؤونهم الكنيسية . فإنه يذكر قصة طريفة ، فى استشارة أحد البتاركة إياه فى ذلك . يحسن أن نذكرها بعبارته بحروفها :

فقال — فى حوادث سنة ٧٦٧ : « وحضر عندى يوم الثلاثاء تاسع شوال ، البَتْرَكُ بشارة ، الملقّب بميخائيل ، وأخبرنى أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بَتْرَكاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية . فذكرتُ له أن هذا أمر مبتدع فى دينهم ، فإنه لا تكون البتاركة إلّا أربعة : بالإسكندرية ، وبالقدس ، وبأنطاكية ، وبرومية . فنُقل رومية إلى إسطنبول ، وهى القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذْ ذاك ، فهذا الذى ابتدعوه فى هذا الوقت أعظم من ذلك . لكن اعتذر بأنه فى الحقيقة هو عن أنطاكية ، وإنما أُذن له فى المُقَام بالشام الشريف ، لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص ، يذكر له ماحلّ بهم من الخزى والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية . وأحضر لى الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول ، وقرأها علىّ من لفظه . لعنه الله ولعن المكتوبَ إليهم أيضاً ! ! وقد تكلمتُ معه فى دينهم ، ونصوص ما يعتقده كلٌّ من الطوائف الثلاثة ، وهم : الملكية ، واليعقوبية — ومنهم الإفرنج والقبط — والنسطورية ، فإذا هو يفهم بعضَ الشىء . ولكن حاصله أنه حمار ، من أكفر الكفّار ! لعنه الله » . (التاريخ ١٤ : ٣١٩ — ٣٢٠) .

ولا يعجبنّ القارئ من أن يكون ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بتاركتهم . أستغفر الله ، بل إنه يذكر عن ذاك البترك ميخائيل الذى تكلم معه « أنه يفهم بعض الشىء » — لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل ، وخاصة مذاهب المسيحيين . كما يدل عليه كلامه فى مواضع كثيرة فى التفسير والتاريخ . بل يكفى فى الدلالة على سعة اطلاعه فى

ذلك أن يكون تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ، الذى ألف موسوعته النفيسة فى ذلك : « كتاب الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » . وهو مطبوع معروف .

وكان ـــ رحمه الله ـــ قد أضرَّ فى آخر عمره . ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤ . وقال ابن ناصر : « وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه فى تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق » .

مؤلفاته : له مؤلفات كثيرة ، ما أظن أنى أستطيع استقصاءها الآن . و بعضها مفقود ، أو لم نعرف مكان وجوده إلى الآن . وهو يشير إلى كثير منها فى التفسير وغيره من كتبه عند المناسبات . وسنذكر هنا ما وصل إليه علمنا . وجُلّه ومعظمه مما ذكره أخونا العلامة الشيخ محمد عبد الرزّاق حمزة ، فى ترجمته إياه فى كتاب (اختصار علوم الحديث) :

١ ـــ التفسير . وهو هذا الكتاب الذى نختصره . وقد فصلنا وصفه فى المقدمة .

٢ ـــ البداية والنهاية . وهو التاريخ النفيس المعروف . طبع منه بمصر سنة ١٣٥٨ ـــ ١٤ مجلداً كباراً ، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨ ، أى قبل وفاته بنحو ٦ سنوات . و بقى منه مجلدان لم يطبعا . وهو القسم الأخير منه المشار إليه فى اسمه « النهاية » ، جمع فيه ما ورد من الأخبار فى الفتن وأشراط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة .

٣ ـــ السيرة النبوية (مطولةً) . ولم نره ، ولكنه أشار إليه و إلى السيرة المختصرة فى تفسير الآية : ٦ من سورة الأحزاب « فى كتاب السيرة التى أفردناها موجزًا و بسيطاً » .

٤ — السيرة (مختصرةً) . وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٨ تحت اسم « الفصول في اختصار سيرة الرسول » . وهذا المطبوع غير كامل يقيناً . فلا أدرى اقتصر المؤلف رحمه الله على هذا القدر ؟ أم فقد باقى الكتاب ؟ فإنه يقول فى خطبة الكتاب : « لا يجمل بأولى العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية » . ثم يقول : « وقد أحببت أن أعلق تذكرة فى ذلك .... وهى مشتملة على ذكر نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وأعلامه ، وذكر أيام الإسلام بعده ، إلى يومنا هذا » . ولكن المطبوع هو السيرة النبوية فقط ، عن مخطوطة (مكتبة عارف حكمت) بالمدينة المنورة . فالكتاب ناقص بيقين .

٥ — اختصار علوم الحديث . اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح فى المصطلح . وقد طبع بمكة ، وطبعته بشرحى مرتين ، كما بينت آنفاً ص : ٢٧ .

٦ — جامع المسانيد والسنن . ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم (الهَدْى والسَّنَن فى أحاديث المسانيد والسنن) ، وأنه « جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبى يعلى وابن أبى شيبة مع الكتب الستة » . ولست أدرى حقيقة هذا الوصف . فإن المؤلف رحمه الله لم يتمه . ثم المقدار الذى عمله لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية . وقد صورتُ المجلد الأخير منها . وفيه معظم (مسند أبى هريرة) ، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبى هريرة — على حروف المعجم . وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم ، وأول الأسماء فيه « جعفر بن عياض المدنى عنه » ، يعنى عن أبى هريرة . وآخره « آخر مسند أبى هريرة » . وهو فى ٢٦٩ ورقة . وقد درسته طويلًا ،

بعملي في « مسند أبي هريرة » من مسند الإمام أحمد . ولم أجد فيه إشارة إلى « البزار وأبي يعلى وابن أبي شيبة » ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة . ولست أدرى خطته فيه بالدقة . فإنه محتاج إلى دراسة وافية ، بعد تصوير سائر المجلدات الموجودة . ومجموع أوراق المجلدات السبعة — على ما فيها من خروم — : ٢٢٨٠ ورقة .

٧ — التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل . جمع فيه كتابَىْ شيخيه : المِزِّى والذهبي ، (تهذيب الكمال) و (ميزان الاعتدال) مع زيادات في الجرح والتعديل .

٨ — مسند الشيخين : أبي بكر وعمر .

٩ — رسالة في الجهاد . وهي مطبوعة .

١٠ — طبقات الشافعية ، ومعه مناقب الشافعي .

١١ — اختصار كتاب (المدخل إلى كتاب السنن) للبيهقي .

١٢ — كتاب (المقدمات) . ولعله في المصطلح .

١٣ — تخريج أحاديث أدلة التنبية ـ في فروع الشافعية .

١٤ — تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب ـ في الأصول .

١٥ — شرح صحيح البخاري ـ شرع فيه ولم يكمله ، وأشار إليه مرارًا في كتبه .

١٦ — كتاب (الأحكام) وهو كتاب كبير لم يكمله ـ وصل فيه إلى « الحجّ » .

مصادر الترجمـــــة

البداية والنهاية . وهو التاريخ الـكبير لابن كثير ـ الجزء ١٤ طبعة مصر ١٣٥٨

تذكرة الحفاظ للذهبي طبعة جيدر آباد ١٣٣٤

الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى الجزء الأول طبعة دمشق ١٣٦٧

الدرر الـكامنة للحافظ ابن حجر الجزء الأول طبعة حيدر آباد ١٣٤٨

ذيول تذكرة الحفاظ للحسينى طبعة مصر ١٣٤٧

» » » للسيوطى » » ١٣٤٧

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى الجزء ١١ طبعة دار الـكتب المصرية ١٣٦٩

شذرات الذهب لابن العماد الجزء ٦ طبعة مصر ١٣٥١

الرد الوافر لابن ناصر الدين » » ١٣٢٩

ترجمته بقلم الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة

فى أول (اختصار علوم الحديث) بشرحنا » » ١٣٧٠



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الأوحد ، البارع الحافظ المتقن ، عماد الدين أبو الفداء ، إسمعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كثير الشافعى – رحمه الله تعالى ورضى عنه :

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم، كبرتْ كلمة تخرج من أفواههم إنْ يقولون إلاَّ كذباً ﴾ وافتتح خلقه بالحمد ، فقال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرضَ وجعل الظلمات والنورَ ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ . واختتمه بالحمد ، فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار : ﴿ وَترَى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمدُ فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه ترجعون ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير ﴾ .

فله الحمد فى الأولى والآخرة ، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق . هو المحمود فى ذلك كله ، كما يقول المصلى : « اللهم ربنا لك الحمد، ملءَ السموات وملءَ الأرض ، وملءَ ما شئت من شىء بعد » . ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس . أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ، لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته وعظم سلطانه ، وتوالى مننه ودوام إحسانه ،

كما قال تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهارُ فى جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلامٌ ، وآخرُ دعواهم أن الحمدُ لله رب العالمين ﴾ .

والحمد لله الذى أرسل رُسله ﴿ مبشرين ومنذرين لئلايكونَ للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾. وختمهم بالنبي الأمي العربي المكى ، الهادى لأوضح السبل . أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن ، من لدنْ بعثته إلى قيام الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لأنذرَكم به ومن بلغَ ﴾ .

فمن بلغه هذا القرآنُ من عرب وعجم ، وأسود وأحمر ، وإنس وجان ، فهو نذير له . ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعده ﴾ . فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنارُ موعده بنصّ الله تعالى . وكما قال تعالى : ﴿ فذرْنى ومَن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثتُ إلى الأحمر والأسود » . (١) قال مجاهد : يعنى الإنس والجن .

فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن ، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز : ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حَميد ﴾ .

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم فيه إلى تفهمه ، فقال تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ كتابٌ أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكرَ أولو الألباب ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ﴾ .

---

(١) معناه ثابت ضمن حديث رواه مسلم ١ : ١٤٧ ، عن جابر . وآخر رواه أحمد فى المسند : ٢٢٥٦ ، ٢٧٤٢ ، عن ابن عباس .

فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله ، وتفسيرُ ذلك ، وطلبه من مظانّه ، وتعلم ذلك وتعليمه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننهُ للناس ولا يكتمونه [١] ، فنبذوه وراءَ ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ، فبئس ما يشترون ﴾. وقال تعالى : ﴿ إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاقَ لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ .

فذم الله تعالى أهلَ الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم ، وإقبالهم على الدنيا وجمعها ، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به ، وأن نأتمر بما أمرنا به ، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهيمه ، قال الله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ . ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوبَ بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى . والله المؤمل المسؤل أن يفعل بنا هذا ، إنه جواد كريم .

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : أن أصح الطرق فى ذلك أن يفسر القرآنُ بالقرآن ، فما أُجمل فى مكان فإنه قد فُسر فى موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له . بل قد قال الإمام الشافعى : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك

---

(١) « ليبيننه للناس ولا يكتمونه » : هى ثابتة فى الأزهرية بالياء فى الحرفين . وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وغيرهما من القراء السبعة . وقرأ الباقون بالتاء المثناة فيهما ، وهى قراءة حفص التى يقرأ لها الناس بمصر وغيرها .

الله ، ولا تكنْ للخائنين خصيماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا إنى أوتيتُ القرآن ومثله معه »(١). يعنى السنة . والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى ، كما ينزل القرآن ، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن . وقد استدل الإمام الشافعى وغيرُه من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنة . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « بمَ تحكم؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : أجتهد برأيي . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسول الله لما يرضى رسولَ الله » . وهذا الحديث فى المسانيد والسنن بإسناد جيد .

وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح . لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، وكعبدالله بن مسعود

فقد قال ابن مسعود : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزْهن حتى يعرفَ معانيهن والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً » .

ومنهم الحبر البحر ، عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترجمانُ القرآن ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، حيث قال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » .

وروى الطبرى ، عن ابن مسعود ، قال : نعم ترجمانُ القرآن ابن عباس . وإسناده صحيح .

وقد مات ابن مسعود فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعُمّر بعده ابن عباس ستّاً وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود .

وقال أبو وائل : استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ فى خطبته سورة البقرة ، وفى رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالبُ ما يرويه إسمعيل بن عبد الرحمن السدّى الكبير فى تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود وابن عباس ، ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التى أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرَج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار» . رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى . ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك . كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبرهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى . إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم .

ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز ، كما قال تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون

سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل * فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ . فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا : فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين ، وسكتَ عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال فى مثل هذا : ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذا قال : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أى : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف : أن تستوعبَ الأقوال فى ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته ، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لافائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم .

فأما من حكى خلافاً فى مسئلة ولم يستوعب أقوال الناس فيها ، فهو ناقص، إذ قد يكون الصوابُ فى الذى تركه ، أو يحكى الخلافَ ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضاً . فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذبَ ، أو جاهلاً فقد أخطأ . وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبىْ زور . والله الموفق للصواب .

فصل

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد بن جبر ، فإنه كان آية فى التفسير .

فقد روى الطبرى عن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفيان الثورى يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبى رَباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس، وقتادة ، والضحاك بن مُزَاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم وَمن بعدهم . فتذكر أقوالهم فى الآية ، فيقع فى عبارتهم تباينٌ فى الألفاظ ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً ، فيحكيها أقوالاً ، وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه . والكل بمعنى واحد فى أكثر الأماكن ، فليتفطن اللبيبُ لذلك . والله الهادى.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوالُ التابعين فى الفروع ليست حجة ، فكيف تكون حجة فى التفسير ؟ يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح . وأما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة . فإن اختلفوا فلا يكون قولُ بعضهم حجة على قول بعض ، ولا على من بعدهم . ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك .

فأما تفسير القرآن بمجرّد الرأى فحرام ، لما رواه محمد بن جرير ، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوّأ مقعده من النار » . ورواه الترمذى، والنسائى، وأبو داود . وقال الترمذى: حديث حسن .

وروى ابن جرير، عن جندب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ » . ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : غريب ، وقد تكلم بعض أهل العلم فى سهيل .

وفى لفظ لهم : « من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » . أى لأنه

قد تكلف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه . كمن حكم بين الناس على جهل ، فهو فى النار ، وإن وافق حكمه الصوابَ فى نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ . والله أعلم [١] .

وهكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال : ﴿فإذْ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ . فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر ، لأنه أخبر بما لا يحلّ له الإخبار به . ولو كان أخبر بما يعلم ، لأنه تكلف ما لا علم له به . والله أعلم .

ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إذا قلتُ فى كتاب الله بما لم أعلم .

وروى أبو عبيد القاسم بن سلاّم : أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾ ؟ فقال : أىّ سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إذا أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم . إسناده منقطع .

وروى أيضاً : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾ ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه ، فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر .

---

(١) أما فى عصرنا ، فقد نابت نوائب ، ونبتت نوابت ، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم . وممن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم ، وجهلوا القرآن فلم يقرؤه ، ولا يكادون يسمعونه إلا قليلا ، وجهلوا السنة ، بل كانوا من أعدائها . وممن سخروا من علم علماء الإسلام ، وسفهت أحلامهم ، ومردت ألسنتهم على قولة السوء فى سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلا . هؤلاء وأشباههم وأمثالهم ، اجترؤا على العبث بالقرآن ، واللعب بالسنة . فعرضوا لتفسير القرآن ، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل ، يفتون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث ، وينزعون من قلوبهم الإيمان . لا أقول إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم ، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلا . بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام . وقد نضرب المثل لذلك عند المناسبات ، فيما سيأتى . إن شاء الله .

وروى عبد بن حميد عن أنس ، قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى ظهر قميصه أربعُ رقاع ، فقرأ ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾ ، فقال : ما الأبّ ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف ، فما عليك أن لا تدريه .

وهذا كله محمول على أنهما رضى الله عنهما إنما أرادا استكشافَ علم كيفية الأبّ ، وإلاّ فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله تعالى : ﴿ فأنبتنا فيها حبًّا وعنباً ﴾ الآية .

وروى الطبرى عن ابن أبى مليكة : أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها . وإسناده صحيح .

وروى أبو عبيد عن ابن أبى مليكة : سأل رجل ابنَ عباس عن يوم كان مقدارُه ألف سنة ؟ فقال له ابن عباس : فما يوم ﴿ كان مقدارُه خمسينَ ألف سنة ﴾؟ فقال له الرجل : إنما سألتك لتحدثنى ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله فى كتابه ، الله أعلم بهما . فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم .

وروى الطبرى عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرّج عليك إنْ كنت مسلماً لما قمتَ عنى — أو قال : أن تجالسنى .

وروى مالك عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن ؟ قال : إنا لا نقول فى القرآن شيئاً .

وروى الليث عنه : أنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن .

وقال ابن شوذب : حدثنى يزيد بن أبى يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكتَ كأن لم يسمع .

وروى ابن جرير عن عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركتُ فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القولَ فى التفسير ، منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع .

وروى أبو عبيد، عن هشام بن عروة، قال : ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله قط .

وروى أيضاً عن مسلم بن يسار ، قال : إذا حدثت عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده .

وروى أيضاً عن مسروق ، قال : اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به .

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه . ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوالٌ فى التفسير . ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه .

وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى : ﴿ ليبيننه للناس ولا يكتمونه ﴾ .

ولما جاء فى الحديث المرويّ من طرق: « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العربُ من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

مقدمة

قال قتادة : نزل فى المدينة من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، و﴿ ياأيها النبى لم تحرم﴾ إلى رأس العشر ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلت بالمدينة ، وسائر السور بمكة .

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية . ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتى آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل : ومائتان وست وثلاثون . حكى ذلك أبو عمرو الدانى فى كتابه البيان .

وأما التحزيب والتجزئة : فقد اشتهرت الأجزاءُ من ثلاثين ، كما فى الربعات بالمدارس وغيرها .

وأما تحزيب الصحابة للقرآن . ففى مسند الإمام أحمد ، وسنن أبى داود ، وابن ماجة ، وغيرهم ، عن أوس بن حذيفة : « أنه سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزبُ المفصل حتى نختم » .[1]

---

(١) سيذكر المؤلف هذا الحديث مطولا ، ويشرحه ، فى أول سورة قٓ ، وهى أول المفصل . وانظر ابن حبان بتحقيقنا ١ : ١١٠ .

فصل

واختلف فى معنى « السورة » : مما هى مشتقة ؟ فقيل : من الإبانة والارتفاع ، فكأنّ القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة . وقيل : لشرفها وارتفاعها ، كسور البلدان . وقيل : سميت « سورة » لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه ، مأخوذ من سؤر الإناء ، وهو البقية . وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها . وقيل : لتمامها وكمالها ، لأن العرب يسمون الناقة التامة : سورة .

قلت : ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمى سورُ البلد ، لإحاطته بمنازله ودوره .

وجمع السورة « سور » بفتح الواو ، وقد يجمع على « سورات » و « سوارات».

وأما الآية ، [فأصل معناها : العلامة . سميت بذلك لأنها العلامة] [1] على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها وانفصالها . أى : هى بائنة عن أختها ومنفردة . قال الله تعالى: ﴿ إن آية ملكه ﴾ .

وقيل : لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ، كما يقال : خرج القوم بآياتهم ، أى بجماعاتهم .

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . قال سيبويه : وأصلها « أيَيَة » مثل « أكمة وشجرة » ، وتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ، فصارت « آية » بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائى : أصلها « آيية » على وزن « آمنة » فقلبت ألفاً ثم حذفت لالتباسها . وجمعها « آى » و« آياى » و « آيات » .

---

(١) فى المطبوعة « وأما الآية فمن العلامة » ! وهو كلام غير مستقيم . فزدنا ما بين القوسين لإقامته . وهذه المقدمة من أولها ليست فى الأزهرية ، فلم نجد مناصاً من تصحيحها اجتهاداً .

وأما الكلمة ، فهى : اللفظة الواحدة . وقد تكون على حرفين مثل « ما » و « لا » ونحو ذلك . وقد تكون أكثر . وأكثر ما تكون عشرة أحرف ، مثل « ليستخلفنهم » و « أنلزمكموها » و « فأسقيناكموه » .

وقد تكون الكلمة الواحدة آية ، مثل « والفجر » « والضحى » « والعصر » . وكذلك « ألم » و « طه » و « يس » و « حم » فى قول الكوفيين ، و « حم عسق » عندهم كلمتان . وغيرهم لا يسمى هذه آيات ، بل يقول : هذه فواتح السور .

وقال أبو عمرو الدانى : لا أعلم كلمة هى وحدها آية ، إلا قوله تعالى ﴿ مدهامتان ﴾ بسورة الرحمن .

فصل

قال القرطبى : أجمعوا على أنه ليس فى القرآن شىء من التراكيب الأعجمية. وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية ، كإبرهيم ، ونوح ، ولوط . واختلفوا : هل فيه شىء من غير ذلك بالأعجمية ؟ فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى ، وقالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات .[1]

---

(١) هذا هو الحق الذى تدل عليه الدلائل . وقد شنع الشافعى رحمه الله بمن زعم أن فى القرآن ألفاظاً أعجمية ، تشنيعاً شديداً بأبلغ عبارة وأعلاها وأقواها ، فى كتاب (الرسالة) فى الفقرات : ١٣١ – ١٧٨ ، بتحقيقنا .

سورة الفاتحة

وهى مكية ، وقيل : مدنية ، ويقال : نزلتْ مرتين ، مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أشبه .

وهى سبع آيات بلا خلاف . وإنما اختلفوا فى البسملة : هل هى آية مستقلة من أولها ، كما هو المشهور عن جمهور قراء الكوفة ، وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف ؟ أو بعض آية ؟ أو لا تعدُّ من أولها بالكلية ، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء ؟ على ثلاثة أقوال ، سيأتى تقريرها . إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

قال البخارى فى أول كتاب التفسير : وسميت « أم الكتاب » لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقيل : إنما سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مقدم لأمر ، إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع — « أمًّا » ، فتقول للجلدة التى تجمع الدماغ « أم الرأس » ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التى يجتمعون تحتها « أمًّا » .

ويقال لها أيضاً « الفاتحة » ، لأنه تفتح بها القراءة ، وافتتحت الصحابةُ بها كتابة المصحف الإمام . وصح تسميتها بـ « السبع المثانى » ، قالوا : لأنها تثنَّى فى الصلاة ، فتقرأ فى كل ركعة . وإن كان للمثانى معنى آخر غير هذا ، كما سيأتى بيانه فى موضعه . إن شاء الله .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال فى أم القرآن : « هى أمّ القرآن ، وهى السبع المثانى ، وهى القرآن العظيم » . ورواه ابن جرير أيضاً بنحوه .

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن مردويه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « "الحمد لله رب العالمين" سبعُ آيات ، "بسم الله الرحمن الرحيم" إحداهنّ ، وهى السبع المثانى ، والقرآن العظيم ، وهى أمّ الكتاب ، وفاتحة الكتاب » . وقد رواه الدارقطنى أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله ، وقال : كلهم ثقات .

وروى البيهقى عن على ، وابن عباس ، وأبي هريرة : أنهم فسروا قوله تعالى ﴿ سبعاً من المثانى ﴾ بالفاتحة ، وأن البسملة هى الآية السابعة منها .

فضل الفاتحة

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد بن المعلّى رضى الله عنه، قال : « كنت أصلى ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت ، فأتيته ، فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدى ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله ، إنك قلتَ لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : نعم ، ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته [1] » . ورواه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجة . ورواه الواقدى ، عن أبى سعيد بن المعلى ، عن أبىّ بن كعب ، فذكر نحوه .

وقد وقع فى الموطأ للإمام مالك بن أنس ما ينبغى التنبيه عليه ، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقى ، أنّ أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى أبىّ بن كعب وهو يصلى فى المسجد ، فلما فرغ من صلاته لحقه ، قال : فوضع النبى صلى الله عليه وسلم يده على يدى وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال : إنى لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها ، قال : أبىّ : فجعلت أبطئُ فى المشى رجاءَ ذلك ، ثم قلت : يا رسول الله ، السورة التى وعدتنى ؟ قال : كيف تقرأ إذا

---

(١) هو فى المسند (٤ : ٢١١ طبعة الحلبى) ، ورواه أيضاً قبل ذلك بنحوه : ١٧٥٩٥ (٣ : ٤٥٠ حلبى) .

افتتحت الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، حتى أتيت على آخرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى هذه السورة ، هى السبع المثانى والقرآنُ العظيم الذى أعطيت » . فأبو سعيد هذا ليس بأبى سعيد بن المعلى ، كما اعتقده ابن الأثير فى جامع الأصول ومن تبعه ، فإنّ ابن المعلى صحابى أنصارى ، وهذا تابعى من موالى خُزَاعة ، وذاك الحديث متصل صحيح ، وهذا ظاهره أنه منقطع إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبىّ بن كعب ، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم .[1] والله أعلم .

على أنه قد روى عن أبى بن كعب من غير وجه : كما روى الإمام أحمد : عن أبى هريرة ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبىّ بن كعب وهو يصلى ، فقال : يا أبىّ ، فالتفتَ فلم يجبه ، ثم صلى أبىّ فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : السلام عليك أى رسول الله ، قال : وعليك ، ما منعك أى أبَىُّ إذ دعوتك أن تجيبنى ؟ قال : أى رسول الله ، كنتُ فى الصلاة ، قال : أفلستَ تجد فيما أوحى الله إلىّ أن ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ؟ قال : بلى أى رسول الله ، لا أعود ، قال : أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل فى التوراة ولا فى الزبور ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها ؟ قلت : نعم أى رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى يحدثنى ، وأنا أتبطَّأ ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث ، فلما أن دنونا من الباب ، قلت : أى رسول الله ، ما السورةُ التى وعدتنى ؟ قال : فكيف تقرأ فى الصلاة ؟ قال : فقرأت عليه أم القرآن ، قال : والذى نفسى بيده ، ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، إنها السبع المثانى » .[2] ورواه الترمذى ، وعنده : « إنها من

---

(١) الحديث فى الموطأ ، ص : ٨٣ ، باختلاف فى الألفاظ قليل . وانظر جامع الأصول : ٦٢٢٥ .

(٢) الحديث فى المسند : ٩٣٣٤ (٢ : ٤١٢ – ٤١٣ حلبى) . وقد صححناه فى هذا الموضع على ما فى المسند .

السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيته » . ثم قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى الباب عن أنس بن مالك .

ورواه عبد الله بن أحمد ، عن أبى هريرة ، عن أبىّ بن كعب ، فذكره مطولا ، بنحوه أو قريباً منه [١] .

وقد روى الترمذى والنسائى ، عن أبى هريرة ، عن أبى بن كعب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثلَ أمّ القرآن ، وهى السبعُ المثانى ، وهى مقسومة بينى وبين عبدى» . هذا لفظ النسائى . وقال الترمذى : حسن غريب .

وروى الإمام أحمد : عن ابن جابر ، قال : « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهراق الماء ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله، فلم يردّ علىّ ، قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يردّ علىّ ؟ قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، فلم يردّ علىّ ، قال : فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى وأنا خلفه حتى دخل رَحله ، ودخلتُ أنا المسجد ، فجلستُ كثيباً حزيناً ، فخرج علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تطهر ، فقال : عليك السلام ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله ، وعليك السلام ورحمة الله ، ثم قال : ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة فى القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : اقرأ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى تختمها ». هذا إسناد جيد[٢]. وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابى : ذكر ابن الجوزى أنه هو العبدى ، والله أعلم . ويقال : إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى ، فيما ذكره الحافظ ابن عساكر [٣] .

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على

---

(١) هو فى المسند ٥ : ١١٤ – ١١٥ (حلبى) .

(٢) هو فى المسند : ١٧٦٧٣ (٤ : ١٧٧ حلبى) .

(٣) بين الحافظ ابن حجر فى التعجيل ، ص : ٢١٦ – أنه البياضى الأنصارى . وأما العبدى فذكر أن له حديثاً آخر ، وأنه قيل إن اسمه « عبد الرحمن » .

بعض ، كما هو المحكيّ عن كثير من العلماء ، منهم : إسحق بن راهويه ، وأبو بكر بن العربى ، وابن القصّار من المالكية .

وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك ، لأن الجميع كلام الله ، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه ، وإن كان الجميع فاضلاً . نقله القرطبي عن الأشعرى ، وأبى بكر الباقلانى ، وابن حبان ، ويحيى بن يحيى ، ورواية عن الإمام مالك .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « كنا فى مسير لنا ، فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إنّ سيد الحىّ سليم ، وإنّ نفرنا غُيَّب ، فهل منكم رَاقٍ ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية ، فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبناً ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رُقية ، أو كنت ترقى ؟ قال : لا ما رقيتُ إلا بأم الكتاب ، قلنا لا تحدثوا شيئاً حتى نأتى أو نسألَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدمنا المدينة ، ذكرناه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : وما كان يدريه أنها رُقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم » [١] .

ورواه مسلم وأبو داود . وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث أنّ أبا سعيد الخدرى هو الذى رقَى ذلك السليم ، يعنى اللديغ ، يسمونه بذلك تفاؤلا .

وروى مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه ، عن ابن عباس ، قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصرَه إلى السماء ، فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفاً منها إلاّ أوتيته » . وهذا لفظ النسائى [٢] .

---

(١) هو فى فتح البارى ٩ : ٤٩ . وقوله « ما كنا نأبنه برقية » – قال ابن الأثير : « أى ما كنا نعلم أنه يرق . فنعيبه بذلك » . وهو من قولهم « أبنه يأبنه » ، إذا رماه بخلة سوء .

(٢) هو فى سنن النسائى ١ : ١٤٥ . وفى آخره « إلا أعطيته » ، بدل « أوتيته » . ورواية مسلم هى فى الصحيح ١ : ٢٢٢ . وهذا الحديث لم أجده فى مسند أحمد ، على سعته .

وروى مسلم : عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خداجٌ، ثلاثاً ، غيرُ تمام ، فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها فى نفسك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل : قسمتُ الصلاةَ بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾، قال الله : أثنى علىّ عبدى ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، قال : مجدنى عبدى ، وقال مرة : فوض إلىّ عبدى ، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهدانا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال : هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل ». ورواه النسائى . وفى رواية لهما : « فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل»[1] .

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختصّ بحكم الفاتحة من وجوه :

أحدها : أنه قد أطلق فيه لفظ « الصلاة » ، والمراد القراءة ، كقوله تعالى: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافتْ بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ ، أى بقراءتك ، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح عن ابن عباس . وهكذا قال فى هذا الحديث : «قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل ». ثم بين تفصيل هذه القسمة فى قراءة الفاتحة ، فدل على عظم القراءة فى الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها ، إذ أطلقت العبادةُ وأريد بها جزء واحد منها ، وهو القراءة . كما أطلق لفظ « القراءة » والمراد به الصلاة فى قوله: ﴿ وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾، والمراد صلاة الفجر ، كما جاء مصرحاً به فى الصحيحين من أنه : « يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار». فدل هذا كله على

---

(١) هو فى صحيح مسلم ١ : ١١٦ . والنسائى ١ : ١٤٤ — ١٤٥ . ورواه مالك فى الموطأ ، ص : ٨٤ — ٨٥ ، بنحوه . وكذلك رواه أحمد فى المسند : ٧٢٨٩ ، ٧٤٠٠ . ورواه الطبرى مختصراً : ٢٢١ — ٢٢٣ .

أنه لا بد من القراءة فى الصلاة، وهو اتفاق من العلماء . ولكن اختلفوا فى : أنه هل يتعين للقراءة فى الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هى وغيرها ؟ على قولين مشهورين : فعند أبى حنيفة ، ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ، أنها لا تتعين ، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه فى الصلاة ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فاقرؤا ما تيسر من القرآن ﴾ ، وبما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة ، فى قصة المسىء صلاته : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إذا قمتَ إلى الصلاة فكبّر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » . قالوا : فأمره بقراءة ما تيسر ، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها ، فدل على ما قلنا .

والقول الثانى : أنه يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها . وهو قول بقية الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وأصحابهم ، وجمهور العلماء . واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور ، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهى خداج » . والخداج : هو الناقص ، كما فسر به فى الحديث : « غير تمام » . واحتجوا أيضاً بما ثبت فى الصحيحين ، عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وفى صحيح ابن خزيمة ، وابن حبان ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأمّ القرآن » .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم إن مذهب الشافعى وجماعة من أهل العلم : أنه تجب قراءتها فى كل ركعة . وقال آخرون : إنما تجب قراءتها فى معظم الركعات . وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها فى ركعة واحدة من الصلاة ، أخذاً بمطلق الحديث : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى : لا تتعين قراءتها ، بل لو قرأ بغيرها أجزأه ، لقوله تعالى : ﴿ فاقرؤا ما تيسر من القرآن ﴾ . والله أعلم .

وقد روى ابن ماجة ، عن أبى سعيد ، مرفوعاً : « لا صلاة لمن لم يقرأ فى

كل ركعة بالحمد وسورة ، فى فريضة أو غيرها » . وفى صحة هذا نظر .

الوجه الثالث : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه ، لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثانى : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية ، لا الفاتحة ولا غيرها ، لا فى الصلاة الجهرية ، ولا فى السرية .

لما رواه الإمام أحمد ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من كان له إمامٌ فقراءة الإمام له قراءةٌ » . ولكن فى إسناده ضعف . ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه. وقد روى هذا الحديثُ من طرق ، ولا يصح شىء منها عن النبى صلى الله عليه وسلم . والله أعلم.

والقول الثالث : أنه تجب القراءة على المأموم فى السرية لما تقدم ، ولا تجب فى الجهرية ، لما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا » . وذكر بقية الحديث. وروى أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « وإذا قرأ فأنصتوا » . وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً . فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول ، وهو قول قديم للشافعى ، ورواية عن الإمام أحمد .

وروى الحافظ أبو بكر البزار ، عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا وضعت جنبك على الفراش ، وقرأتَ فاتحة الكتاب و " قل هو الله أحد " فقد أمنتَ من كل شىء ، إلا الموتَ » .[1]

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد ١٠ : ١٢١ ، وقال : « رواه البزار ، وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان . وبقية رجاله رجال الصحيح » . أقول : وغسان بن عبيد الموصلى ، مترجم فى لسان الميزان ، وأنه ضعفه أحمد ، والبخارى . وأنه اختلف فيه قول يحيى بن معين ، بين التوثيق والتضعيف ، إلا أنه صرح بأنه « لم يكن من أهل الكذب » . وترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٣/٢/٥١ ، ولم يذكر فيه جرحاً ، أمارة توثيقه عنده .

الكلام على تفسيرها

الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذْ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضُرُون ﴾ . وقال تعالى: ﴿ ادفعْ بالتى هى أحسنُ، فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هوالسميع العليم ﴾ .

فهذه ثلاثُ آيات ليس لهنّ رابعة فى معناها ، وهو : أنّ الله تعالى يأمر بمصانعة العدوّ الإنسىّ والإحسان إليه ، ليرده عنه طبعه الطيبُ الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمرُ بالاستعاذة به من العدوّ الشيطانى لا محالة ، إذْ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ، ولا يبتغى غيرَ هلاك ابن آدم ، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل . كما قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننّكم الشيطانُ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياءَ من دونى وهم لكم عدو . بئس للظالمين بدلاً ﴾ . وقد أقسم للوالد آدم : أنه له لمن الناصحين ، وكذب ، فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾ ؟ وقال الله تعالى : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

والمشهور الذى عليه الجمهور : أنّ الاستعاذة لدفع الوسواس فيها إنما تكون قبل التلاوة . ومعنى الآية : ﴿ فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ . أى : إذا أردتَ القراءة ، كقوله : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴾ الآية . أى : إذا أردتم القيام .

والدليل على ذلك الأحاديثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك :

فروى الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، ويقول : لا إله إلا الله — ثلاثاً — ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » . وقد رواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : هو أشهر شىء فى هذا الباب . وقد فسر الهمز بالمُوتة ، وهى الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر .[1] كما روى أبو داود ، وابن ماجة ، عن جبير بن مطعم ، قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل فى الصلاة قال : الله أكبر كبيراً — ثلاثاً — الحمد لله كثيراً — ثلاثاً — سبحان الله بكرَة وأصيلاً — ثلاثاً — اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان ، من همزه ونفخه ونفثه » . قال عمرو بن مرة : همزه : الموتة ، ونفخه : الكبر ، ونفثه : الشعر [2] .

وروى ابن ماجة ، عن ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم ، وهمزه ونفخه ونفثه ، قال : همزه : الموتة ، ونفثه : الشعر ، ونفخه : الكبر » [3] .

---

(١) الموتة — بضم الميم : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه عقله ، كالنائم والسكران .

(٢) هو فى ابن ماجة : ٨٠٧ .

(٣) هو فيه : ٨٠٨ . وقال البوصيرى فى زوائده : « رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث أبى سعيد الخدرى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من حديث جبير بن مطعم . يعنى الحديثين اللذين قبل هذا .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى ، عن أبيّ بن كعب ، قال : « تلاحى رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فتمزّع أنفُ أحدهما غضباً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعلمُ شيئاً لو قاله لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . وكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة .

وروى الإمام أحمد ، وأبوداود ، والترمذى ، والنسائى فى اليوم والليلة ، عن معاذبن جبل ، قال : « استبّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خيلَ إلىّ أنّ أحدهما يتمزعُ أنفه من شدة غضبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب ، فقال : ما هى يا رسول الله ؟ قال ، يقول : "اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم" ، قال : فجعل معاذ يأمره ، فأبى ، وجعل يزداد غضباً » . وهذا لفظ أبى داود . وقال الترمذى : مرسل ، يعنى أنّ عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يلقَ معاذ بن جبل ، فإنه مات قبل سنة عشرين .

قلت : وقد يكون عبد الرحمن بن أبى ليلى سمعه من أبيّ بن كعب ، كما تقدم ، وبلغه عن معاذ بن جبل ، فإنّ هذه القصة شهدها غيرُ واحد من الصحابة رضى الله عنهم :

فروى البخارى : عن سليمان بن صُرَد قال : « استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن عنده جلوس ، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " ، فقالوا للرجل : ألا تسمعُ ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : إنى لستُ بمجنون » ! ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى .

فصل

ومعنى " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " — أى : أستجير بجناب الله من الشيطان أن يضرنى فى دينى أو دنياى ، أو يصدنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه . فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله . ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجنّ ، لأنه لا يقبل رشوة ، ولا يؤثر فيه جميل ، لأنه شريرٌ بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه .

وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهنّ رابعة .[1]

و «الشيطان» فى لغة العرب : مشتق من « شطن » ، إذ بعدَ ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيدٌ بفسقه عن كل خير . وقيل : مشتق من « شاط » ، لأنه مخلوق من نار . ومنهم من يقول : كلاهما صحيح فى المعنى ، ولكن الأول أصحّ ، وعليه يدل كلام العرب .

وقال سيبويه : العرب تقول « تشيطنَ فلان » إذا فعل فعل الشياطين ، ولو كان من « شاطَ » لقالوا « تشيط ». و « الشيطان » » مشتق من البعد ، على الصحيح . ولهذا يسمون كل من تمرّد من جنى وإنسى وحيوان « شيطاناً » ، قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرفَ القول غروراً ﴾ .

وفى مسند أحمد ، عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذرّ ، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجنّ ، فقلت : أو للإنس شياطين؟ قال : نعم[2] » .

---

(١) أعاد الحافظ رحمه الله ذكر الآيات الثلاث . وقد مضين من قبل ، ص : ٦١ .

(٢) رواه النسائى ٢ : ٣١٩ هكذا مختصراً . وهو فى المسند ضمن روايتين مطولتين ٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ (حلبى) . ورواه أيضاً ضمن حديث مطول عن أبى أمامة ٥ : ٢٦٥ .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذرّ أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقطع الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسود ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال الكلب الأسود من الأحمر من الأصفر ؟ فقال : الكلب الأسود شيطانٌ » .

وروى الطبرى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ركب برْذوناً ، فجعل يتبختر به ، فجعل يضربه فلا يزدادُ إلا تبختراً ، فنزل عنه وقال : ما حملتمونى إلاّ على شيطان ، ما نزلتُ عنه حتى أنكرْتُ نفسى . وإسناده صحيح .

و « الرجيم » : « فعيل » بمعنى مفعول ، أى : أنه مرجوم مطرود عن الخير كله . كما قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجوماً للشياطين ﴾ . وقال تعالى : ﴿إنا زينا السماءَ الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذابٌ واصبٌ * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلاّ من استرقَ السمعَ فأتبعه شهاب مبين ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (١)

افتتح بها الصحابة كتابَ الله . واتفق العلماءُ على أنها بعضُ آية من سورة النمل . ثم اختلفوا : هل هى آية مستقلة فى أول كل سورة ؟ أو من كل سورة كتبتْ فى أولها ؟ أو أنها بعضُ آية من أول كل سورة ؟ أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها ؟ أو أنها إنما كتبت للفصْل ، لا أنها آية ؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً ، وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع .

وفى سنن أبى داود ، بإسناد صحيح ، عن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصْل السورة حتى ينزلَ عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ » . وأخرجه الحاكم فى المستدرك .

وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة، وعدّها آية » . لكنه من رواية عمر بن هارون البلخى ، وفيه ضعف ، عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة ، عنها. وروى له الدارقطنى متابعاً عن أبى هريرة مرفوعاً . وروى مثله عن علىّ ، وابن عباس ، وغيرهما .

وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة ـــ : ابنُ عباس، وابن عمر، وابنُ الزبير ، وأبو هريرة ، وعلىّ . ومن التابعين : عطاء ، وطاوس ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، والزهرى . وبه يقول عبد الله بن المبارك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ـــ فى رواية عنه ، وإسحق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله . [١] وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليستْ آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور . وقال داود : هى آية مستقلة فى أول كل سورة ، لا منها ، وهذا روايةٌ عن الإمام أحمد ، وحكاه أبو بكر الرازى عن أبى الحسن الكرخى ، وهما من أكابر أصحاب أبى حنيفة .

هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا .

فأما ما يتعلق بالجهر بها ، فمفرع على هذا : فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهرُ بها ، وكذا من قال إنها آيةٌ فى أولها . وأما من قال بأنها من أوائل السور ، فاختلفوا : فذهب الشافعى إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة ، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً . فجهر

---

(١) وهو القول الصحيح ، الذى تنصره الدلائل الصحاح ، من الكتاب والسنة . ومن أقواها : أن جميع المصاحف الأمهات ، التى كتبها عثمان بن عفان ، وأقرها الصحابة جميعاً ، دون ما عداها ـــ كتبت فيها البسملة فى أول كل سورة سوى براءة . وأن الصحابة رضوان الله عليهم ، إذ جمعوا القرآن فى المصاحف ، جردوه من كل شىء غيره ، فلم يكتبوا أسماء السور ، ولا أعداد الآى ، ولا كلمة « آمين » . ومنعوا أن يجرؤ أحد على كتابة ماليس من كتاب الله فى المصاحف ، حرصاً منهم على حفظ كتاب الله ، وخشية أن يشتبه على أحد ممن بعدهم فيظن غير القرآن قرآناً . أفيعقل ـــ مع هذا كله ـــ أن يكتبوا مائة وثلاث عشرة بسملة زيادة على ما أنزل على رسول الله ؟ ! ألا يدل هذا دلالة قاطعة منقولة بالتواتر العملى المؤيد بالكتابة المتواترة ـــ على أنها آية من القرآن فى كل موضع كتبت فيه ؟ وقد فصلنا القول فى ذلك ، فى بحث طويل ، فى شرحنا على الترمذى ج ٢ ص ١٦ ـــ ٢٥ .

بها من الصحابة : أبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، ومعاوية . ونقله الخطيب ، عن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وأبى قلابة ، والزهرى ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعمر بن عبد العزيز ، وغيرهم .

والحجة فى ذلك : أنها بعضُ الفاتحة ، فيجهر بها كسائر أبعاضها .

وأيضاً : فقد روى النسائى فى سننه ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، صحيحهما ، والحاكم فى المستدرك، عن أبى هريرة : « أنه صلى فجهر فى قراءته بالبسملة ، وقال بعد أن فرغ : إنى لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم » . وصححه الدارقطنى ، والخطيب ، والبيهقى ، وغيرهم .

وروى أبو داود، والترمذى، عن ابن عباس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتح الصلاةَ بـ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾» . ثم قال الترمذى : وليس إسناده بذاك .

وقد رواه الحاكم فى المستدرك ، عن ابن عباس ، قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر. بـ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ » . ثم قال : صحيح .

وفى صحيح البخارى ، عن أنس بن مالك : أنه سُئل عن قراءة النبى صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كانت قراءته َمدًّا ، ثم قرأ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ َيمدّ « بسم الله »، ويمدّ « الرحمن » ويمدّ « الرحيم » .

وفى مسند الإمام أحمد ، وسنن أبى داود ، وصحيح ابن ُخزَيمة ، ومستدرك الحاكم ، عن أمّ سلمة ، أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ُيقطِّع قراءته : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾ » . وقال الدارقطنى : إسناده صحيح .

وروى الإمام الشافعى ، والحاكم فى المستدرك ، عن أنس : أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من َحضرَ من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرةَ الثانيةَ َبسملَ .

وفى هذه الأحاديث والآثار التى أوردناها كفايةٌ ومقنعٌ فى الاحتجاج لهذا

القول عما عداها . فأما المعارضاتُ والرواياتُ الغريبة وتطريقها وتعليلها وتضعيفها وتقريرُها — فله موضع آخر .

وذهب آخرون إلى أنه لا يُجهر بالبسملة فى الصلاة . وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة ، وعبد الله بن مُغفَّل ، وطوائف من سلف التابعين والخلف . وهو مذهب أبى حنيفة ، والثورى ، وأحمد بن حنبل . وعند الإمام مالك : أنه لا يَقرأ البسملة بالكلية ، لا جهراً ولا سرًّا .

واحتجوا بما فى صحيح مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتحُ الصلاةَ بالتكبير ، والقراءةَ بـ ﴿الحمدُ لله رب العالمين﴾ » .

وبما فى الصحيحين ، عن أنس بن مالك ، قال : « صليتُ خلفَ النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، فكانوا يستفتحون بـ ﴿ الحمدُ لله رب العالمين ﴾ » .

ولمسلم : « لا يذكرون ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فى أوّل قراءة ولا آخرها » .

ونحوه فى السنن عن عبد الله بن مغفل .

فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله فى هذه المسئلة . وهى قريبة ، لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جَهرَ بالبسملة ومن أسرّ . ولله الحمد والمنة .

فصل فى فضلها

روى الإمام أحمد فى مسنده : عن عاصم ، قال : سمعت أبا تَميمة يحدّث عن رَديف النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « عُثر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : تَعِسَ الشيطانُ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلتَ تعس الشيطان تعاظم ، وقال : بقوّتى صَرَعْتُه ، وإذا قلتَ : ﴿ بسم الله ﴾ تصاغرَ حتى يصيرَ مثل الذباب » . هكذا وقع فى رواية الإمام أحمد[١] .

---

(١) هو فى المسند ٥ : ٥٩ ، ٧١ ، ٣٦٥ (حلبى) ، بأربعة أسانيد .

وقد روى النسائى فى اليوم والليلة ، وابن مردويه عن أسامة بن عُمير، قال : «كنتُ رديف النبى صلى الله عليه وسلم– فذكره – وقال : لا تقل هكذا ، فإنه يتعاظم حتى يكونَ كالبيت ، ولكنْ قل ﴿بسم الله﴾ ، فإنه يَصْغرُ حتى يكونَ كالذبابة »[1] .

فهذا من تأثير بركة « بسم الله » . ولهذا تُستحبّ فى أول كل عمل وقول : فتستحبّ فى أول الخطبة ، لما جاء : « كل أمر لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذَمُ » .

وتستحب البسملة عند دخول الخلاء ، لما ورد من الحديث فى ذلك .

وتستحبّ فى أول الوضوء، لما جاء فى مسند الإمام أحمد ،والسنن ،من رواية أبى هريرة ، وسعيد بن زيد ، وأبى سعيد ، مرفوعاً : « لا وُضُوء لمن لم يَذْكر اسمَ الله عليه » . وهو حديث حسن . ومن العلماء من أوجبها عند الذّكر ههنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً .

وكذا تستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذكر ، ومطلقاً فى قول بعضهم ، كما سيأتى بيانهُ فى موضعه . إن شاء الله .

وهكذا تستحب عند الأكل ، لما فى صحيح مسلم : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لربيبه عُمر بن أبى سَلمة : « قل "بسم الله"، وكلْ بيمينك ، وكل مما يليك » . ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه .

وكذلك تستحب عند الجماع ، لما فى الصحيحين عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطانَ ما رزقتنا ، فإنه إنْ يُقدَّر بينهما ولدٌ لم يَضرّه الشيطان أبداً » .

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة فى تقدير المتعلق بالباء فى

---

(١) ورواه أبو داود : ٤٩٨٢ ، عن « أبى المليح ، عن رجل ، قال : كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم . . . » .

قوله « بسم الله » هل هو اسم أو فعل — متقاربان . وكلٌّ قد ورد به القرآن . أما من قدّره باسمٍ تقديرُه : بسم الله ابتدائى — فلقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ . ومن قدّره بالفعل فلقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . وكلاهما صحيح ، فإن الفعل لا بد له من مصدر ، فلكَ أن تقدّر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذى سميتَ قبله ، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أوقراءةً أو وضوءاً أو صلاةً . فالمشروعُ ذكرُ اسم الله فىالشروع فى ذلك كله ، تبركاً وتيمناً واستعانةً على الإتمام والتقبل . والله أعلم .

" الله " : عَلمٌ على الربّ تباركَ وتعالى . ويقال : إنه الاسم الأعظم ، لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالمُ الغيب والشهادة هو الرحمنُ الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملكُ القدّوس السلامُ المؤمن المهيمن العزيزُ الجبارُ المتكبرُ سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىءُ المصورُ ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . فأجرَى الأسماءَ الباقيةَ كلها صفات له . كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل ادْعو اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أيًّا مّا تَدْعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائةً إلا واحداً ، من أحصاها دَخلَ الجنة » . وجاء تعدادُها فى رواية الترمذى ، وابن ماجة . وبين الروايتين اختلافُ زيادة ونقصان .

وهو اسمٌ لم يُسمَّ به غيرُه تبارك وتعالى ، ولهذا لا يُعرف فى كلام العرب له اشتقاقٌ من « فَعل يَفعل » . فذهب مَنْ ذَهب من النحاة إلى أنه اسم جامدٌ لا اشتقاق له . وقد نقله القرطبي عن الشافعى ، والخطابى ، وإمام الحرمين ، والغزالى ، وغيرهم . ورُوى عن الخليل وسيبويه : أنّ الألف واللام فيه لازمةٌ . قال الخطابى : ألا تَرى أنك تقول « يا ألله » ولا تقول « يا الرحمن » ،

فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخالُ حرف النداء على الألف واللام .
وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لله دَرّ الغانيات المدّه سَبحنَ واسترْجعنَ من تألهى [١]

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو « التأله » من « أله يأله إلاهةً وتألهاً » . كما رُوى عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ وَيذَرَكَ وإلاَهتك ﴾ ، قال : عبادتك ، أى : أنه كان يُعبد ولا يَعبد . وكذا قال مجاهد وغيره .

وأصل ذلك « الإله » ، فحذفت الهمزةُ التى هى فاء الكلمة ، فالتقت اللامُ التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف ، فأدغمت إحداهما فى الأخرى فصارتا فى اللفظ لاماً واحدةً مشدّدة ، وفخمت تعظيماً ، فقيل « الله » .

" الرحمن الرحيم " : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . و « رَحمان » أشدّ مبالغةً من « رحيم » . وفى كلام ابن جرير ما يُفهم منه حكايةُ الاتفاق على هذا . وفى تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك . قال القرطبى : والدليل على أنه مشتقّ ما خرّجه الترمذى وصححه ، عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقتُ الرّحمَ وشققتُ لها اسماً من اسمى ، فمن وَصَلها وَصَلته ، ومن قطعها قطعته » . قال : وهذا نصّ فى الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق . قال : وإنكار العرب لاسم الرحمن ، لجهلهم بالله وبما وجب له . قال القرطبى : ثم قيل : هما بمعنى واحد ، كندمان ونديم ، قاله أبو عبيد . وقيل : ليس بناءُ « فَعلان » كـ « فعيل » ، فإنّ « فعلان » لا يقع إلا على مبالغة الفعل ، نحو قولك « رجل غضبان » للرجل الممتلىء غضباً ، و « فعيل » قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال أبو على الفارسى : " الرحمن " اسم عامٌّ فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، و " الرحيم " إنما هو من جهة المؤمنين ، قال الله

---

(١) « المده » : بضم الميم وتشديد الدال ، من « المده » بفتح الميم وسكون الدال . وهو المدح . قيل : إن الهاء بدل من الحاء . وقيل : المده فى نعت الهيئة والجمال ، والمدح فى كل شىء .

تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ . وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدُهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمةً . ثم حكى عن الخطابى وغيره : أنهم استشكلوا هذه الصفة ، وقالوا : لعله أرْفقُ ، كما فى الحديث : « إن الله رفيقٌ يحبّ الرفق فى الأمر كله ، وإنه يعطى على الرفق مالا يعطى على العنف »[1] وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يُسئلْ يَغضَبُ . وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يسأل الله يَغضَبْ عليه » .

قالوا : ولهذا قال : ﴿ ثم استوى على العرش الرحمنُ ﴾ . وقال : ﴿ الرحمنُ على العرش استوى ﴾ . فذكر الاستواءَ باسمه الرحمن، ليعمّ جميعَ خلقه برحمته . وقال : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ . فخصهم باسمه « الرحيم » . قالوا : فدل على أن " الرحمن " أشدّ مبالغةً فى الرحمة ، لعمومها فى الدارين لجميع خلقه ، و " الرحيم " خاصةٌ بالمؤمنين . لكن جاء فى الدعاء المأثور: « رحمنُ الدنيا والآخرة ورحيمهما » .

واسمه تعالى " الرحمن " خاصّ به ، لم يُسَمَّ به غيرُه ، كما قال تعالى : ﴿ قل ادْعوا اللهَ أو ادعوا الرحمن أيا ما تَدْعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون ﴾ . ولما تَجهرَم مسيلمة الكذّاب[2] وتسمى برحمن اليمامة ، كساه الله جلباب الكذب وشُهر به ، فلا يقال إلا : مسيلمةُ الكذّاب . فصار يُضرب به المثل فى الكذب بين أهل الحضر من أهل المدَر ، وأهل الوَبر من أهل البادية والأعراب .

وأما " الرحيم " فإنه تعالى وصَفَ به غيرَه حيث قال : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد فى المسند : ٩٠٢ ، من حديث على ، مرفوعاً . ورواه بنحوه أيضاً الشيخان ، من حديث عائشة . انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٨٥ .

(٢) هذا الحرف «تجهرم» حرف غريب ، لم أجده فى شىء من المعاجم ، ولا فى المصادر الأخرى . وأنا أستسيغه جداً بذوق العربى ، لا أجدنى نافراً منه . ويخيل إلى أنه حرف مولد من مجموع مادتين ، كأنه من مادتى « جهر » و « جرم » ، كأنه يراد به : تجاهر بجرمه . كما مزجوا من مادتين أو أكثر « حمدل » ، و « حسبل » ، و « بسمل » ، و « هلل » ، و « حوقل » ، ونحو ذلك .

من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ، كما وصَف غيرَه بغير ذلك من أسمائه ، كما فى قوله: ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ .

والحاصل : أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيرُه ، ومنها ما لا يسمى به غيرُه ، كاسم « الله » و « الرحمن » و « الخالق » و « الرزاق » ، ونحو ذلك . فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن ، لأنه أخص وأعرف من الرحيم ، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشْهر الأسماء ، فلهذا ابتدأ بالأخصّ فالأخصّ .

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف « الرحمن » حتى ردّ الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمنَ أيا ما تَدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ . ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : « اكتبْ "بسم الله الرحمن الرحيم" ، فقالوا : لا نعرف الرحمنَ ولا الرحيم » . رواه البخارى . وفى بعض الروايات : « لا نعرفُ الرحمنَ إلا رحمنَ اليمامة » . وقال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمنُ ، أنسجدُ لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ . والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحودٌ وعنادٌ وتعنتٌ فى كفرهم ، فإنه وُجدَ فى أشعارهم فى الجاهلية تسميةُ الله تعالى بالرحمن ، قال ابن جرير : وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال :

ألاَ ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها ألاَ قَضَبَ الرحمنُ رَبِّى يمينَها

وقال سَلامةُ بن جُندَب الطهوى :

عَجِلْتُمْ علينا عَجْلَتَيْنَا عليكمُ وما يَشَإِ الرحمنُ يَعقِدْ و يُطْلِقِ[1]

﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

قال أبو جعفر بن جرير : معنى " الحمد لله " الشكرُ لله خالصاً دون

(١) فى المطبوعة « إذ عجلنا » — بدل « عجلتينا » . والصواب من الأزهرية . وهو الموافق لما فى الطبرى ١ : ١٣١ من طبعتنا .

سائر ما يُعبد من دونه ، ودون كل ما بَرأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العددُ ، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ . فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه . مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه . ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم . فلربنا الحمدُ على ذلك كله أولاً وآخراً . وقال ابن جرير رحمه الله " الحمد لله " : ثناءٌ أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد لله . قال : وقد قيل : إن قول القائل " الحمد لله " ثناءٌ عليه بأسمائه وصفاته الحسنى . وقوله « الشكر لله » ثناء عليه بنعمه وأياديه .

ثم شرع فى ردّ ذلك بما حاصله : أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكانَ الآخر .

وهذا الذى ادعاه فيه نظر ، لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدّية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدّية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان ، كما قال الشاعر :

أفادَتكمُ النعماءُ منى ثلاثةً يدى ولسانى والضميرَ المحجَّبَا

ولكن اختلفوا : أيهما أعمّ ، الحمد أو الشكر ؟ على قولين . والتحقيق : أن بينهما عموماً وخصوصاً . فالحمد أعمّ من الشكر من حيثُ ما يَقعان عليه ، لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته ، وحمدته لكرمه . وهو أخصّ ، لأنه لا يكون إلا بالقول . والشكر أعمّ من حيث ما يقعان به ، لأنه يكون بالقول والعمل والنية ، كما تقدّم . وهو أخصّ ، لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدّية ، لا يقال شكرته لفروسيته ، وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إلىّ . هذا حاصل ما حرّره بعضُ المتأخرين . والله أعلم .

وقال الجوهرى : " الحمد " نقيض الذمّ ، تقول : حمدت الرجل أحمدُه حَمداً ومحمدةً ، فهو حميدٌ ومحمود . والتحميد أبلغُ من الحمد ، والحمدُ أعمّ

من الشكر . وقال فى الشكر : هو الثناءُ على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرتُ له ، وباللام أفصح .

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل : عن الأسود بن سَريع ، قال : « قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محامدَ حمدتُ بها ربى تبارك وتعالى ؟ فقال : أما إن ربك يحب الحمد » . ورواه النسائى[1] .

وروَى الترمذى ، والنسائى ، وابنُ ماجة ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله" ، وأفضل الدعاء " الحمد لله " » . قال الترمذى : حسن غريب .

وفى سنن ابن ماجة ، عن ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا ربّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضّلتْ بالملكينْ ، فلم يَدْريا كيف يكتبانها ، فصعدَا إلى السماء ، فقالا : يا ربنا ، إن عبدك قد قال مقالةً لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله — وهو أعلمُ بما قال عبدُه — : ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب ، إنه قال : يا ربّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى ، فأجزيَه بها »[2] .

والألف واللام فى " الحمد " لاستغراق جميع أجناس الحمد وصُنوفه لله تعالى . كما جاء فى الحديث : « اللهم لك الحمدُ كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله » — الحديث .

و "الرب" هو المالكُ المتصرّف . ويطلق فى اللغة على السيد ، وعلى المتصرف للإصلاح . وكل ذلك صحيح فى حق الله تعالى . ولا يُستعمل " الربّ " لغير الله ، بل بالإضافة ، تقول : ربّ الدار ، ربّ كذا . وأما " الرب " فلا يقال إلا لله عز وجل .

---

(١) هو فى المسند : ١٥٦٥٠ (ج ٣ ص ٤٣٥ حلبى) . ونسبه السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٢ ، لأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى والحاكم وصححه ، وغيرهم .

(٢) هذا الحديث ليس فى الأزهرية ، وقد صححناه من سنن ابن ماجة : ٣٨٠١ . وإسناده جيد ، ليس فيه مجروح .

و "العالمين" جمعُ « عالم » . وهو كل موجود سوى الله عز وجل . و « العالم » جمعٌ لا واحدَ له من لفظه . والعوالمُ أصنافُ المخلوقات فى السموات وفى البر والبحر . وكل قَرْن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً .

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣)

وقوله تعالى " الرحمن الرحيم " تقدم الكلام عليه فى البسملة بما أغنى عن إعادته . قال القرطبى : إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم ، بعد قوله " رب العالمين " ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب ، كما قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ . قال : فالرب فيه ترهيب ، والرحمن الرحيم ترغيب . وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طَمِعَ فى جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من رحمته أحد » .

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤)

قرأ بعض القرّاء " ملك " . وقرأ آخرون "مالك" وكلاهما صحيح متواتر فى السبع . ويقال « ملك » بكسر اللام وبإسكانها ، ويقال « مليك » أيضاً . وأشبع نافعٌ كسرة الكاف فقرأ " ملكى يوم الدين" . وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى ، وكلاهما صحيحة حسنة . ورجح الزمخشرى " ملك " لأنها قراءة أهل الحرمين ، ولقوله ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ، ﴿ قوله الحق وله الملك ﴾ .

و "مالك" مأخوذ من المِلْك ، كما قال تعالى : ﴿ إنا نحن نرث الأرض وَمن عليها وإلينا يرجعون ﴾ . و " ملك " مأخوذ من المُلْك ، كما قال تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ . وقال : ﴿ قوله الحق وله الملك ﴾ . وقال ﴿ الملك يومئذ الحقّ للرحمن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ .

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه ، لأنه قد تقدّم الإخبار بأنه « رب العالمين » ، وذلك عامّ فى الدنيا والآخرة . وإنما أضيف إلى

يوم الدين لأنه لايدعى أحدٌ هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾. وقال تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفسٌ إلاَّ بإذنه ، فمنهم شقيٌّ وسعيد ﴾ . وعن ابن عباس، قال : يومُ الدين يومُ الحساب للخلائق ، وهو يومُ القيامة ، يَدينهم بأعمالهم، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرٌّ ، إلا من عفا عنه . وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف. وهو ظاهر .

والملك فى الحقيقة هو الله عز وجل ، قال الله تعالى: ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾ . وفى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً . « أخنعُ اسم عند الله رجلٌ تَسمى بملك الأملاك ، ولا مالك إلا الله » . وفيهما عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : « يقبض اللهُ الأرض ويَطوى السماءَ بيمينه، ثم يقول : أين ملوكُ الأرض؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » . وفى القرآن العظيم: ﴿ لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار﴾. فأما تسميةُ غيره فى الدنيا بملك ، فعلى سبيل المجاز. كما قال تعالى: ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ . ﴿ وكان وراءَهم ملكٌ ﴾ . ﴿ إذْ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكاً ﴾ وفى الصحيحين : « مثل الملوك على الأسرّة » .

و " الدّين " الجزاء والحساب ، كما قال تعالى: ﴿ يومئذ يوفيهمُ الله دينهم الحقّ ﴾ . وقال: ﴿ أئنا لمدينونَ ﴾ ، أى مَجْزيون مُحَاسَبون . وفى الحديث : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» (١) . أى حاسب نفسه لنفسه ، كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، وتأهبوا للعرْض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ، ﴿ يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافيةٌ ﴾ .

---

(١) من حديث رواه أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم ، من حديث شداد بن أوس ، مرفوعاً .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٥)

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من " إياك ". وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر ، وهى قراءة شاذة مردودة ، لأن « إيا » ضوءُ الشمس . وقرأ بعضهم « أياك » بفتح الهمزة وتشديد الياء . وقرأ بعضهم « هياك » بالهاء بدل الهمزة .

و" نستعين " بفتح النون أوّل الكلمة فى قراءة الجميع ، سوى يحيى بن وثّاب والأعمش ، فإنهما كسراها ، وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم .

والعبادة فى اللغة : من الذلة ، يقال : طريق مُعبَّد ، وبعير معبد ، أى مذلل . وفى الشرع : عبارة عما يجمع كمالَ المحبة والخضوع والخوف . وقُدّم المفعولُ وهو " إياك " وكرّر ، للاهتمام والحصر . أى : لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك . وهذا هو كمال الطاعة .

والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين . وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحةُ سرّ القرآن، وسرّها هذه الكلمة " إياك نعبد وإياك نستعين " ، فالأول تبرّؤٌ من الشرْك ، والثانى تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويضُ إلى الله عز وجل . وهذا المعنى فى غير آية من القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكلْ عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ . ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ . ﴿ ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذْه وكيلاً ﴾ . وكذلك هذه الآية الكريمة " إياك نعبد وإياك نستعين " .

وتحوّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبهُ ، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى ، فلهذا قال " إياك نعبد وإياك نستعين " . وفى هذا دليل على أن أوّل السورة خبرٌ من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى ، وإرشادٌ لعباده بأن يثنوا عليه بذلك . ولهذا لا تصح صلاةٌ من لم يَقلْ ذلك وهو قادر عليه . كما جاء فى الصحيحين عن عُبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » . وفى صحيح مسلم ، عن أبى

هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : قسَمتُ الصلاةَ بينى و بين عبدى نصفين ، فنصفهالى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ماسأل ، إذا قال العبد " الحمد لله رب العالمين " ، قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال " الرحمن الرحيم " ، قال الله : أثنى علىّ عبدى ، فإذا قال " مالك يوم الدين " ، قال الله : مجّدنى عبدى ، فإذا قال " إياك نعبد و إياك نستعين " ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال " اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " ، قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » .

وإنما قدّم "إياك نعبد" على "وإياك نستعين" لأن العبادة له هى المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمامُ والحزمُ هو أن يُقدّم ما هو الأهمُّ فالأهمّ ، والله أعلم . فإن قيل : فما معنى النون فى قوله تعالى " إياك نعبد و إياك نستعين "؟ فإن كانت للجمع فالداعى واحد ، وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام ؟ وقد أجيب : بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد ، والمصلى فردٌ منهم ، ولا سيما إن كان فى جماعة أو إمامهم ، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التى خُلقوا لأجلها ، وتوسط لهم بخير . ومنهم من قال : يجوز أن تكون للتعظيم ، كأن العبد قيل له : إذا كنتَ داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض ، فقل " إياك نعبد وإياك نستعين " ، وإن كنتَ خارج العبادة فلا تقل « نحن » ولا « فعلنا » ، ولو كنتَ فى مائة ألف أو ألف ألف ، لاحتياج الجميع إلى الله عز وجل وفقرهم إليه . ومنهم من قال : " إياك نعبد " ألطفُ فى التواضع من إياك عبَدْنا ، لما فى الثانى من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحدَه أهلاً لعبادة الله تعالى الذى لا يستطيع أحدٌ أن يعبده حقّ عبادته ولا يثنى عليه كما يليق به . والعبادةُ مقام عظيم ، يَشرُف به العبد ، لانتسابه إلى جناب الله تعالى .

وقد سمّى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعبده فى أشرف مقاماته ، فقال : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ﴾ ، ﴿ وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه ﴾ ،

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾ . فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة ، وإسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيقُ صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : ﴿ ولقد تعلم أنك يَضيق صدرُك بما يقولون، فسبحْ بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦)

لما تقدّم الثناءُ على المسؤل تبارك وتعالى ، ناسب أن يعقب بالسؤال ، كما قال : « فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل » . وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤله ثم يسألَ حاجته ، لأنه أنجح للحاجة ، وأنجعُ للإجابة . ولهذا أرشد الله إليه ، لأنه الأكمل . وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه ، كما قال موسى : ﴿ رب إنى لما أنزلتَ إلىّ من خير فقير ﴾ . وقد يتقدّمه مع ذلك وصفُ المسئول ، كقول ذى النون : ﴿ لا إله إلا أنتَ سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ . وقد يكون بمجرّد الثناء على المسئول ، كقول الشاعر :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إنّ شيمتك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً كفاه من تعرّضه الثناء

والهداية ههنا : الإرشاد والتوفيق . وقد تُعدّى الهدايةُ بنفسها كما ههنا " اهدنا الصراط المستقيم" . فتضمن معنى : ألهمنا ، أو وفقنا ، أو ارزقنا ، أو أعطنا . ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ، أى بينّا له الخيرَ والشرّ . وقد تُعدّى بإلى كقوله تعالى : ﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ . ﴿ فاهدُوهم إلى صراط الجحيم ﴾ ، وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة ، وكذلك قوله : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ . وقد تُعدّى باللام ، كقول أهل الجنة : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا) . أى : وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً .

وأما " الصراط المستقيم" ، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير : أجمعت الأمةُ من أهل التأويل جميعاً على أن "الصراط المستقيم" هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاجَ فيه ، وكذلك فى لغة جميع العرب .

قال : ثم تستعير العرب الصراطَ فتستعمله في كل قول وعمل وُصفَ باستقامة أو اعوجاج ، فتصفُ المستقيمَ باستقامته ، والمعوجّ باعوجاجه .

ثم اختلفتْ عباراتُ المفسرين من السلف والخلف فى تفسير " الصراط " . وإن كان يرجعُ حاصلها إلى شيء واحد ، وهو المتابعة لله وللرسول . فرُوى : أنه كتاب الله .

وفى هذا الحديثُ الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده ، عن النوّاس بن سَمْعان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جَنبتى الصراط سُورَان ، فيهما أبوابٌ مفتحة ، وعلى الأبواب سُتور مُرْخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تَعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسانُ أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه . فإنك إنْ تفتحه تَلِجْهُ ، فالصراط الإسلامُ ، والسورَان حدودُ الله ، والأبوابُ المفتحة محارمُ الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتابُ الله ، والداعى فوقَ الصراط واعظُ الله فى قلب كل مسلم » [1] . ورواه الترمذى ، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، والطبرى . إسناده حسن صحيح . والله أعلم .

وقال مجاهد " الصراط المستقيم " : الحقّ . وهذا أشمل . ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .

وروى ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، عن أبى العالية " الصراط المستقيم " : هو النبى صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده ، قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن ، فقال : صدَق أبو العالية ونَصَح .

وكل هذه الأقوال صحيحة ، وهى متلازمة . فإنّ من اتبع النبىّ صلى الله عليه وسلم واقتدَى باللذين من بعده أبى بكر وعمر — فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحقّ فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن ، وهو كتابُ الله

(١) هو فى المسند : ١٧٧١١ (ج ٤ ص ١٨٢ — ١٨٣ حلبى) . وفى بعض ألفاظه مخالفة لما ثبت هنا . فلعله اختلاف فى نسخ المسند . ورواية الطبرى ، التى أشار إليها ابن كثير — مختصرة ، وهى برقمى : ١٨٦ ، ١٨٧ .

وحبله المتين وصراطه المستقيم . فكلها صحيحة يصدّق بعضُها بعضاً ولله الحمد .

وروى الطبرانى ، عن عبد الله قال " الصراط المستقيم " : الذى تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى ، أعنى " اهدنا الصراط المستقيم " أن يكون معنيًّا به : وَفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقتَ له من أنعمتَ عليه من عبادك ، من قول وعمل . وذلك هو الصراط المستقيم ، لأنّ من وُفق لما وُفق له مَن أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء ، فقد وُفق للإسلام وتصديق الرسل ، والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زَجره عنه ، واتباع منهاج النبى صلى الله عليه وسلم ومنهاج الخلفاء الأربعة وكلّ عبد [لله] صالح ، وكلّ ذلك من الصراط المستقيم .

فإن قيل : فكيف يَسأل المؤمنُ الهدايةَ فى كل وقت من صلاة وغيرها ، وهو متصف بذلك ؟ وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية ، لما أرشده الله تعالى إلى ذلك ، فإنّ العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة إلى الله تعالى ، فى تثبيته على الهداية ورسوخه فيها ، وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها ، فإنّ العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يُمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق . فالسعيدُ من وفقه الله تعالى لسؤاله ، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا دعاه ، ولا سيما المضطرّ المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار . وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نَزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبلُ ﴾ . فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان ، وليس فى ذلك تحصيل الحاصل ، لأن المراد الثباتُ والاستمرارُ والمداومةُ على الأعمال المعينة على ذلك . والله أعلم .

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا : ﴿ ربنا لا تُزغْ قلوبنا بعد إذْ

---

(١) عبد الله : هو ابن مسعود . وإسناد الطبرانى إليه إسناد صحيح .

هديتنا وهبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب﴾ . وقد كان الصّدّيق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً . فمعنى قوله تعالى "اهدنا الصراط المستقيم" : استمرّ بنا عليه ، ولا تَعدلْ بنا إلى غيره .

﴿ صِرَٰطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٧)

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد " اهدنا الصراط المستقيم " إلى آخرها أنّ الله يقول : « هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » . وقوله " صراط الذين أنعمت عليهم " مفسر للصراط المستقيم . وهو بدل منه عند النحاة ، ويجوز أن يكون عطف بيان . والله أعلم . و « الذين أنعم الله عليهم » هم المذكورون فى سورة النساء حيث قال : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداء والصالحينَ ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً * ذلك الفضلُ من الله ، وكفى بالله عليماً ﴾ .

وقوله تعالى " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " يعنى : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، ممن تقدّم وصفهم ونعتهم ، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره ، غير صراط المغضوب عليهم ، وهم الذين فسدتْ إرادتهم فعلموا الحقّ وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين ، وهم الذين فقدوا العلم ، فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحقّ . وأكد الكلام بـ " لا " ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدَين ، وهما طريقة اليهود والنصارى . وقد زعم بعض النحاة أن " غيرِ " ههنا استثنائية ، فيكون على هذا منقطعاً ، لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم . وما أوردناه أولى . ومنهم من زعم أن " لا " فى قوله " ولا الضالين " زائدة ، وأن تقدير الكلام عنده : غير المغضوب عليهم والضالين .

والصحيح ما قدمناه . ولهذا روى أبو عُبيد القاسم بن سلاّم فى كتاب فضائل القرآن عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ : غير المغضوب عليهم وغير الضالين . وإسناده صحيح . وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير .

فيدل على ماقلناه من أنه : إنما جيء بـ "لا" لتأكيد النفى ، وللفرق بين الطريقتين ، لتجتنب كلّ منهما ، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به. واليهودُ فقدوا العمل ، والنصارى فقدوا العلم . ولهذا كان الغضبُ لليهود ، والضلالُ للنصارى ، لأن من علم وترك استحق الغضب ، بخلاف من لم يعلم . والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه ، لأنهم لم يأتوا الأمرَ من بابه ، وهو اتباعُ الحق — ضلوا . وكلّ من اليهود والنصارى ضالّ مغضوب عليه ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضبُ ، وأخص أوصاف النصارى الضلال . وبهذا جاءت الأحاديث والآثار :

فروى الإمام أحمد عن عدىّ بن حاتم ، قال : « جاءتْ خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا عَمّتى وناساً ، فلما أتوْا بهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صُفّوا له ، فقالت : يا رسول الله ، نأى الوافد ، وانقطع الولد ، وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة ، فمنّ علىّ ، منّ الله عليك ، قال : من وافدُك ؟ قالت : عدىّ بن حاتم ، قال : الذى فرّ من الله ورسوله ؟ قالت : فمنّ علىّ ، فلما رَجع ورجلٌ إلى جنبه — ترَى أنه علىّ — قال : سليه حُملاناً ، فسألته فأمر لها ، فأتتنى فقالت : لقد فعلتَ فعلةً ما كان أبوك يفعلها ، فإنه أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبىّ ، وذكر قربهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فعرفتُ أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فقال : يا عدىّ ما أفرّك ؟ أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله ؟ ما أفرّك ؟ أن يقال الله أكبر ؟ فهل شىءٌ أكبرُ من الله عز وجل ؟ قال : فأسلمت فرأيت وجهه استبشر ، وقال : إنّ المغضوب عليهم اليهود ، وإنّ الضالين النصارى » . وذكر الحديث . ورواه الترمذى وقال : حسن غريب[1] . وروى عبد الرزاق عن عبد الله بن شَقيق : «أنه أخبره من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بوادى القُرَى على فرسه . وسأله رجل من بنى القين ، فقال ، يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ قال : المغضوب عليهم ، وأشار

---

(١) هو بتطوله فى المسند ٤ : ٣٧٨ — ٣٧٩ (حلبى) . وفى الترمذى ٤ : ٦٧ . ورواه أحمد قبل ذلك ٤ : ٢٥٧ ، من وجه آخر ، مختصراً .

إلى اليهود ، والضالون : هم النصارى »[١] . وقد رُوى مرسلاً ، لم يذكر فيه « من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكذا قال ابن عباس ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد . وقال ابن أبي حاتم : ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً .

وشاهدُ ما قاله هؤلاء الأئمة ، من أن اليهود مغضوبٌ عليهم والنصارى ضالون — الحديثُ المتقدم ، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في البقرة : ﴿ بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾ . وقال في المائدة : ﴿ قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبةً عند الله ، مَن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردةَ والخنازير وعبدَ الطاغوت ، أولئك شرّ مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل ﴾ . وقال : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داودَ وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهوْن عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة ، وهى سبع آيات ، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه ، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرىء من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية ، تبارك وتعالى وتنزه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهدايةَ إلى الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يُفضىَ ذلك بهم إلى جواز الصراط الحسّى يومَ القيامة ، المفضى بهم إلى جنات النعيم ، في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل ، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم

(١) رواه الطبرى : ١٩٨ ، من طريق عبد الرزاق . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ : ٣١٠ – ٣١١ ، بنحوه من روايتين ، وقال : « رواه كله أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . وهو كما قال.

القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون . وما أحسن ما جاءَ إسنادُ الإنعام إليه في قوله " صراط الذين أنعمت عليهم" وحذف الفاعل في الغضب في قوله " غير المغضوب عليهم" وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة . كما قال : ﴿ألم تر إلى الذين تَوَلَّوْا قوماً غضب الله عليهم﴾ . وكذلك إسنادُ الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذى أضلهم بقدره . كما قال : ﴿من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً﴾ . وقال : ﴿من يضلل اللهُ فلا هادىَ له ، ويَذَرُهم فى طغيانهم يعمهون﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال ، لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذَا حذوهم ، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ، ويحتجوّن على بدعتهم بمتشابه من القرآن ، ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الردّ عليهم . وهذا حال أهل الضلال والغيّ . وقد ورد فى الحديث الصحيح : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمّى اللهُ ، فاحذَرُوهم »[1] . يعنى فى قوله : ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله﴾ .فليس — بحمد الله — لمبتدع فى القرآن حجةٌ صحيحةٌ ، لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل ، مفرقاً بين الهدى والضلال ، وليس فيه تناقض ولا اختلاف ، لأنه من عند الله ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ .

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها « آمين » ويقال « أمين » بالقصر أيضاً . ومعناه : اللهم استجب .

والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حُجْر ، قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ ، فقال: آمين ، ومَدّ بها صوته » . وقال الترمذى : حديث حسن . وروى عن على وابن مسعود وغيرهم . وعن أبى هريرة ، قال : « كان

---

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة . وسيأتى فى الآية : ٧ من سورة آل عمران ، إن شاء الله . وقد فصلنا القول فى تخريجه ، فى الطبرى : ٦٦٠٥ — ٦٦١٥ ، وفى صحيح ابن حبان : ٧٢ ، ٧٥ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : آمين ، حتى يُسمع من يليه من الصفّ الأوّل » . رواه أبو داود وابن ماجة ، وزاد فيه : « يرتَجّ بها المسجد ». والدارقطنى وقال : هذا إسناد حسن .

قال أصحابنا وغيرهم : ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ، ويتأكد فى حق المصلى ، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً ، وفى جميع الأحوال . لما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أمَّن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه » . ولمسلم : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال أحدكم فى الصلاة آمين ، والملائكةُ فى السماء آمين ، فوافقتْ إحداهما الأخرى — غُفر له ما تقدّم من ذنبه » . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعاً : « إذا قال — يعنى الإمام — ولا الضالين ، فقولوا : آمين ، يجبكم الله » . وقال أصحاب مالك لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم ، لما رواه مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وإذا قال ولا الضالين ، فقولوا آمين » . الحديث . واستأنسوا أيضاً بحديث أبى موسى وقد قدمنا فى المتفق عليه : « إذا أمن الإمام فأمِّنوا » . وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[1] . وقد اختلف أصحابنا فى الجهر بالتأمين للمأموم فى الجهر . وحاصل الخلاف : أنّ الإمام إن نسى التأمين جَهرَ المأموم به قولاً واحداً ، وإن أمن الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم ، وهو مذهب أبى حنيفة ورواية عن مالك ، لأنه ذكر من الأذكار فلا يُجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم : أنه يجهر به ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك ، لما تقدم « حتى يرتجّ المسجد » . ولنا قول آخر ثالث : أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم ، لأنهم يسمعون قراءةَ الإمام ، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من فى أرجاء المسجد . والله أعلم .

---

(١) حديث أبى هريرة فى الموطأ ، ص : ٨٧ . وحديث أبى موسى مضى قبل أسطر ، وليس فيهما دلالة لما يقول أصحاب مالك ، فإن هذا من الاختصار فى الكلام . وقد روى مالك نفسه فى الموطأ — قبل هذا الحديث — حديث أبى هريرة الماضى : « إذا أمن الإمام فأمنوا » . فالحديثان عن أبى هريرة فى معنى واحد ، وإن اختلف اللفظان قليلا .

تفســـير

سورة البقرة

ذكر ما ورد فى فضلها

روى أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذى يُقرأ فيه سورةُ البقرة لا يدخله الشيطان » . وقال الترمذى : حسن صحيح[(١)] . وروى أبو عُبيد عن عبد الله – يعنى ابن مسعود – قال : إن الشيطان يفرّ من البيت يسمع فيه سورة البقرة . ورواه النسائى فى اليوم والليلة ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(٢)] . وعن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شىء سَناماً ، وإن سنام القرآن البقرةُ ، وإن من قرأها فى بيته ليلةً لم يدخله الشيطانُ ثلاثَ ليال ، ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله شيطان ثلاثة أيام » . رواه الطبرانى ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه[(٣)] . وقد روى الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن أبى هريرة قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً ، وهم ذَوُو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ

---

(١) هو فى المسند : ٧٨٠٨ ، ٨٩٠٢ . وصحيح مسلم ١ : ٢١٧ . والترمذى ٤ : ٤٢ ، بنحوه .

(٢) هو فى المستدرك ٢ : ٢٥٩ – ٢٦٠ ، بنحوه . ووافقه الذهبى على تصحيحه . وهو وإن كان موقوفاً لفظاً ، فإنه مرفوع حكماً ، لأنه مما لا يعلم بالرأى . وقد رواه ابن مردويه ، والنسائى فى اليوم والليلة ، عن ابن مسعود ، مرفوعاً مطولا ، على ما ذكره الحافظ ابن كثير بعده . وإسناده عندهما صحيح . ثم يؤيده حديث أبى هريرة المرفوع ، الذى قبله .

(٣) ذكره الهيثمى فى الزوائد ٦ : ٣١١ – ٣١٢ ، وقال : « رواه الطبرانى ، وفيه سعيد بن خالد الخزاعى المدنى ، وهو ضعيف » . ولكن الذى فى صحيح ابن حبان (٢ : ١٣٠ – ١٣٢ من مخطوطة الإحسان) : « خالد بن سعيد المزنى » . و « المزنى » خطأ ، صوابها « المدنى » . وخالد هذا مترجم فى لسان الميزان ، وأشار إلى هذا الحديث ، وذكر أنه هو « خالد بن سعيد بن أبى مريم التيمى المدنى ، مولى ابن عجلان » ، المترجم فى التهذيب . وهو ثقة ، ذكره ابن حبان فى الثقات . وترجمه البخارى فى الكبير ٢/١/١٤٠ . وابن أبى حاتم ١/٢/٣٣٣ – فلم يذكرا فيه جرحاً .

كل واحد منهم – يعنى – ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سناً ، فقال : ما معك يا فلان ؟ فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورةُ البقرة ؟ قال : نعم ، قال : اذهبْ فأنت أميرُهم . فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلّم البقرة إلا أنى خشيتُ أن لا أقوم بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا القرآن واقرؤه ، فإن مثلَ القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به ، كمثل جراب محشوّ مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان ، ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه ، كمثل جراب أوكى على مسك » . هذا لفظ الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن(١) . وعن أُسيد بن الحضير ، قال : « بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوطة عنده ، إذْ جالت الفرس ، فسكتَ فسكنتْ ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدّث النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يابن حضير ، قال : فأشفقت – يا رسول الله – على يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفعتُ رأسى وانصرفت إليه ، فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظلة ، فيها أمثالُ المصابيح ، فخرجتُ حتى لا أراها ، قال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا ، قال : تلك الملائكة دنتْ لصوتك ، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظر الناسُ إليها لا تتوارى منهم » . رواه البخارى ، ورواه أيضاً أبو عُبيد فى كتاب فضائل القرآن . وقد وقع نحوٌ من هذا لثابت بن قيس بن الشماس ، فيما رواه أبو عُبيد بإسناد جيد ، إلا أن فيه إبهاماً ، ثم هو مرسل . والله أعلم .

ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران

روى الإمام أحمد عن بُريدة ، قال : « كنت جالساً عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فسمعته يقول : تعلموا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ، قال : ثم سكت ساعةً ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران ، فإنهما الزّهراوان ، يُظلاّن صاحبهما يومَ القيامة كأنهما

(١) الترمذى ٤ : ٤٣ – ٤٤ .

غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافّ ، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشقّ عنه قبره كالرجل الشاحب ، فيقول له : هل تعرفنى ؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك ، القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر ، وأسهرتُ ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليومَ من وراء كل تجارة ، فيعطَى المُلْك بيمينه والخلد بشماله ، ويوضعُ على رأسه تاجُ الوقار ، ويكسى والداه حلتان لا يقومُ لهما أهل الدنيا ، فيقولان : بمَ كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال : اقرأ واصعدْ فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود ما دام يقرأ ، هذًّا كان أو ترتيلاً »[1] . ولبعضه شواهد : فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرؤا القرآن ، فإنه شافع لأهله يوم القيامة ، اقرأوا الزّهراوَين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ ، يحاجّان عن أهلهما يوم القيامة ، ثم قال : اقرؤا البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة » رواه أحمد ، ومسلم[2] . الزهراوان : المنيرتان . والغياية : ما أظلك من فوقك . والفِرْق : القطعة من الشىء . والصوافّ : المصطفة المتضامة . والبطلة : السحرة ، ومعنى «لا تستطيعها» أى : لا يمكنهم حفظها ، وقيل : لا تستطيع النفوذ فى قارئها . والله أعلم . ومن ذلك حديث النوّاس بن سمعان الكلابى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدَمهم سورة البقرة وآلُ عمران ، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعدُ ، قال : كأنهما غمامتان ، أو ظُلتان سوداوان بينهما شَرَق ، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ يحاجّان عن صاحبهما » . رواه أحمد ، ومسلم ،

---

(١) هو فى المسند ٥ : ٣٤٨ (حلبى) . وفى إسناده « بشير بن المهاجر الغنوى » ، وثقه ابن معين ، وأخرج له مسلم . وتكلم فيه أحمد وغيره . ولذلك قال الحافظ ابن كثير هنا : « وهذا إسناد حسن على شرط مسلم » .

(٢) المسند ٥ : ٢٤٩ (حلبى) ، وهذا لفظه . ومسلم ١ : ٢٢٢ . ورواه ابن حبان فى صحيحه : ١١٦ بتحقيقنا . والحاكم فى المستدرك ١ : ٥٦٤ .

والترمذى ، وقال : حسن غريب[١] . وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما فى ركعة واحدة .

ذكر ما ورد فى فضل السبع الطُّوَل[٢]

روى أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال : « أعطيتُ السبعَ الطُّوَلَ مكانَ التوراة ، وأعطيت المئينَ مكانَ الإنجيل ، وأعطيتُ المثانى مكانَ الزّبور ، وفُضّلتُ بالمفصّل » . هذا حديث غريب . وقد رواه أبو عُبيد عن سعيد بن أبى هلال ، قال : بلغنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — فذكره[٣] . وروى أبو عبيد عن سعيد بن جبير ، فى قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثانى﴾ ، قال : هى السبع الطُّوَل : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس . وقال مجاهد : هى السبع الطول . وهكذا قال مكحول وغيره فى تفسير الآية بذلك وفى تعدادها ، وأنّ يونس هى السابعة .

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود : « أنه رمى الجمرةَ من بطن الوادى ، فجعل البيتَ عن يساره ، ومنًى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقامُ الذى أنزلت عليه سورةُ البقرة » . وروى ابن مردويه ، عن عتبة بن مَرْثَدٍ ، قال : « رأى

---

(١) المسند : ١٧٧١٤ (ج ٤ ص ١٨٣ حلبى) . و « الشرق » بفتح الشين مع فتح الراء وإسكانها : الضوء ، أو الشمس .

(٢) « الطول » — بضم الطاء وفتح الواو : جمع « طولى » .

(٣) هكذا ذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث من كتاب أبى عبيد بإسنادين فيهما مقال . فثانيهما منقطع ، لأن سعيد بن أبى هلال من أتباع التابعين . وفى أولها « سعيد بن بشير الأزدى » ، قال ابن كثير هنا : « فيه لين » . والحق أنه ثقة ، كما بينا فى تخريج أحاديث الطبرى : ٥٤٣٩ .

ولكن الحديث ثابت بإسناد آخر ليس فيه مقال . فرواه الطيالسى : ١٠١٢ بإسناد صحيح . ورواه أحمد : ١٧٠٤٩ (٤ : ١٠٧ حلبى) عن الطيالسى . وكذلك رواه الطبرى : ١٢٦ من طريق الطيالسى . وفصلنا الكلام فيه هناك . ولكن فيه عندهم : أن المئين مكان الزبور ، وأن المثانى مكان الإنجيل .

النبى صلى الله عليه وسلم فى أصحابه تأخراً ، فقال : يا أصحابَ سورة البقرة » .
وأظنّ هذا كان يوم حُنين ، يومَ ولوا مدبرين ، أمر العباسَ فناداهم :
« يا أصحاب الشجرة » . يعنى أهلَ بيعة الرضوان . وفى رواية : « يا أصحاب
سورة البقرة » . يُنشطهم بذلك ، فجعلوا يقبلون من كل وجه . وكذلك يومُ
اليمامة مع أصحاب مُسيلمة ، جعل الصحابة يفرّون لكثافة جيش بنى حَنيفة ،
فجعل المهاجرون والأنصار يتنادَوْن : يا أصحاب سورة البقرة ، حتى فتح الله
عليهم . رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿الٓمٓ﴾ ﴿١﴾

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور : فمنهم
من قال : هى مما استأثر الله بعلمه ، فردّوا علمها إلى الله ولم يفسروها . حكاه
القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود ، وقاله الشعبى
والثورى ، واختاره ابن حبان . ومنهم من فسرها . واختلف هؤلاء فى معناها :

فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما هى أسماء السور . قال الزمخشرى
فى تفسيره : وعليه إطباق الأكثر ، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه . ويعتضد
هذا بما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة : « أنّ رسول صلى الله عليه وسلم كان
يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة "الم السجدة" و"هل أتى على الإنسان" » .

وقال مجاهد : ألم ، وحم ، والمص ، وص : فواتح افتتح بها القرآن .

وقال بعض أهل العربية : هى حروف من حروف المعجم ، استغنى بذكر
ما ذُكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها التى هى تتمة الثمانية والعشرين
حرفاً ، كما يقول القائل : ابنى يكتب فى — أ ب ت ث — أى فى حروف
المعجم الثمانية والعشرين . فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها ، حكاه
ابن جرير .

قلت : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعةَ عشر حرفاً ، وهى : ا ل م ص ر ك ه ى ع ط س ح ق ن — يجمعها قولك : « نصٌّ حكيم قاطع له سر » . وهى نصف الحروف عدداً . قال الزمخشرى : وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف ، يعنى من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ، ومن المستعلية والمنخفضة ، ومن حروف القلقلة . وقد سردها مفصلة ، ثم قال : فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها ، وقد علمتَ أن معظم الشىء وُجله ينزل منزلةَ كله .

ومن ههنا لحظ بعضهم فى هذا المقام كلاماً فقال : لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سُدًى ؛ ومن قال من الجهلة إن فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية — فقد أخطأ خطأ كبيراً . فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر ، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شىءٌ قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا ، وقلنا : ﴿ آمنا به كلٌّ من عند ربنا ﴾ . ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين . وإنما اختلفوا ، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقف حتى يتبين . هذا مقامٌ .

المقام الآخر : فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور ما هى ؟ مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها . فقال بعضهم : ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماعُ المشركين ، إذْ تواصوا بالإعراض عن القرآن ، حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه . حكاه ابن جرير . وهو ضعيف ، لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور ، لا يكون فى بعضها ، بل غالبُها ليس كذلك . ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداءُ بها فى أوائل الكلام معهم ، سواء كان افتتاحَ سورة أو غيرَ ذلك . ثم إن هذه السورة والتى تليها — أعنى البقرةَ وآل عمران — مدنيتان ، ليستا خطاباً للمشركين . فانتقض ماذكروه . وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه

من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها . وقد حكى هذا المذهبَ الرازى عن المبرد وجمع من المحققين . وحكى القرطبى عن الفرّاء وقطرب نحو هذا . وقرره الزمخشرى فى كشافه ونصره أتم نصر . وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بنُ تيمية ، وشيخنا الحافظُ المجتهد أبو الحجاج المزىّ ، وحكاه لى عن ابن تيمية . قال الزمخشرى : ولم تَرد كلها مجموعةً فى أول القرآن ، وإنما كررت ليكونَ أبلغَ فى التحدّى والتبكيت ، كما كررت قَصَص كثيرة ، وكرر التحدّى بالصريح فى أماكن . قال : وجاء منها على حرف واحد ، كقوله « ص . ن . ق » ، وحرفين ، مثل « حم » ، وثلاثة ، مثل « ألم » ، وأربعة ، مثل « المر . والمص » ، وخمسة مثل ، « كهيعص . وحمعسق » . لأن أساليب كلامهم على هذا » ، من الكلمات ما هو على حرف ، وعلى حرفين ، وعلى ثلاثة ، وعلى أربعة ، وعلى خمسة ، لا أكثرَ من ذلك .

قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيانُ إعجازه وعظمته . وهذا معلوم بالاستقراء ، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة . ولهذا يقول تعالى : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ ﴿ الم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ . ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ﴾ . ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ . ﴿ ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ . ﴿ حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ . ﴿ حمعسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم ﴾ . وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر . والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقاتُ الحوادث والفتن والملاحم ! فقد ادّعى ما ليس له ، وطارَ فى غير مَطارِه .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

قال ابن عباس " ذلك الكتاب " أى : هذا الكتاب . وكذا قال مجاهد

وعكرمة وسعيد بن جبير أن " ذلك " بمعنى : هذا . والعرب تُقارض بين هذين الاسمَى الإشارة ، فيستعملون كلاًّ منهما مكان الآخر . وهذا معروف فى كلامهم . و " الكتاب " : القرآن . ومن قال : إن المراد بـ " ذلك الكتاب " الإشارة إلى التوراة والإنجيل ! كما حكاه ابن جرير وغيره — فقد أبعد النجعة ، وأغرق فى النزع ، وتكلف مالا علم له به . و " الريب " : الشكّ .

ومعنى الكلام : أن هذا الكتاب ، وهو القرآن — لا شكّ فيه أنه نزل من عند الله ، كما قال تعالى فى السجدة : ﴿ألم * تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين﴾ . وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهى ، أى : لا ترتابوا فيه . ومن القراء من يقف على قوله " لا ريب " ويبتدئ بقوله " فيه هدى للمتقين " . والوقف على قوله تعالى " لا ريب فيه " أولى ، للآية التى ذكرنا ، ولأنه يصير قوله " هدى " صفة للقرآن ، وذلك أبلغ من كون فيه هدى . و " هدى " يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ، ومنصوباً على الحال . وخصت الهداية للمتقين ، كما قال : ﴿قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادَوْن من مكان بعيد﴾ . ﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن ، لأنه هو فى نفسه هدى ، ولكن لا يناله إلا الأبرار . كما قال تعالى : ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصعور وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين﴾ .

وعن ابن عباس " للمتقين " ، أى : الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به . وقال قتادة "للمتقين" هم : الذين نعتهم الله بقوله : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ ، الآية والتى بعدها . واختار ابن جرير : أن الآية تعمّ ذلك كله . وهو كما قال . وقد روى الترمذى ، وابن ماجة ، عن عطية السعدى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » . قال الترمذى : حسن غريب .

ويطلق الهدى ويراد به : ما يقرّ فى القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه فى قلوب العباد إلا الله عز وجل . قال الله تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ . وقال : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ . وقال : ﴿ من يضلل فلا هادى له ﴾ . وقال : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، من يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات . ويطلق ويراد به : بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه . قال الله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ . وقال : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ . وقال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ على تفسير من قال : المراد بهما الخير والشر . وهو الأرجح. والله أعلم . وأصل التقوى : التوقى مما يكره ، لأن أصلها « وَقْوَى » من الوقاية .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

عن عبد الله قال " الإيمان " : التصديق . وقال ابن عباس " يؤمنون " : يصدّقون . وقال الزهرى " الإيمان " : العمل . وقال الربيع بن أنس "يؤمنون" : يخشون .

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً . وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل . و « الإيمان » كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل .

قلت : أما « الإيمان » فى اللغة ، فيطلق على التصديق المحض . وقد يستعمل فى القرآن والمراد به ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ . وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ . وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال ، كقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . فأما إذا استعمل مطلقاً ، فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ، بل قد حكاه الشافعى

وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد : إجماعاً أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث . ومنهم من فسره بالخشية : كقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ . وقوله : ﴿ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ . والخشية : خلاصة الإيمان والعلم ، كما قال : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ .وقال بعضهم : يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة ، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ وقال : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ . فعلى هذا يكون قوله " بالغيب " حالاً ، أى فى حال كونهم غيباً عن الناس .

وأما "الغيب" المراد ههنا ، فقد اختلفت فيه عبارات السلف . وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد . قال أبو العالية " يؤمنون بالغيب" : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وكذا قال قتادة . وعن ابن عباس " بالغيب " قال : بما جاء منه ، يعنى من الله تعالى . وقال زِرّ : الغيب القرآن . وقال عطاء بن أبى رباح : من آمن بالله فقد آمن بالغيب . وقال زيد بن أسلم " بالغيب " قال : بالقدر . فكل هذه متقاربة فى معنًى واحد ، لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، فذكرنا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وما سبقوا به ، فقال عبد الله : إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بيناً لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن أحدٌ قط إيماناً أفضلَ من إيمان بغيب . ثم قرأ : ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب — إلى قوله — المفلحون ﴾ . رواه سعيد بن منصور ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم . وقال الحاكم : صحيح على

شرط الشيخين ولم يخرجاه[١] . وفى معنى هذا الحديثُ الذى رواه أحمد ، عن أبى جمعة ، قال : « تغذينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو عُبيدة بن الجراح ، فقال : يا رسول الله ، هل أحد خير منّا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك ؟ قال : نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » [٢] . [ورواه ابن مردويه بأطول من هذا . وفى آخره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم] قال : «ما يمنعكم من ذلك ورسولُ الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء ، بل قومٌ بعدكم ، يأتيهم كتابٌ بين لوحين ، يؤمنون به ويعملون بما فيه ، أولئك أعظمُ منكم أجراً ، مرتين » [٣] . وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوِجادة ، التى اختلف فيها أهل الحديث ، كما قررتُه فى أول شرح البخارى ، لأنه مدحهم على ذلك ، وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحثيية ، لا مطلقاً .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣)

قال ابن عباس : إقامة الصلاة : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع ، والإقبال عليها فيها . وقال قتادة : إقامة الصلاة : المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها .

وقال ابن عباس "ومما رزقناهم ينفقون" : زكاة أموالهم . وقال الضحاك : كانت النفقات قرباناً يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائضُ الصدقات سبعَ آياتٍ ، فى سورة براءة ، مما يذكر فيهن الصدقات ، هنّ الناسخات المثبَتات . وقال قتادة : فأنفقوا مما أعطاكم الله ، هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم ، يوشك أن تفارقها .

واختار ابن جرير أنّ الآية عامة فى الزكاة والنفقات ، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقّها بصفة القوم : أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدِّين ،

---

(١) هو فى المستدرك ٢ : ٢٦٠ .

(٢) هو فى المسند بإسنادين : ١٧٠٤٣ ، ١٧٠٤٤ (٤ : ١٠٦ حلبى) .

(٣) هذه الرواية المطولة ، أشار إليها الحافظ ابن حجر فى الإصابة ، فى ترجمة « أبى جمعة الأنصارى » ٧ : ٣٢ . ثم ذكر أنه « أخرجه أحمد والدارمى ، وصححه الحاكم » .

زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته من أهل وعيال وغيرهم، ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والمِلْك وغير ذلك ، لأنّ الله عمّ وَصْفهم ، ومَدَحهم بذلك ، وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه . قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، فإن الصلاة حقّ الله وعبادته ، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّى إليهم ، وأولى الناس بذلك القراباتُ والأهلون والمماليك ثم الأجانب ، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى " ومما رزقناهم ينفقون " . ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحجّ البيت » . والأحاديث في هذا كثيرة .

وأصل " الصلاة " في كلام العرب : الدعاء . ثم استعملت " الصلاة " في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير : وأرى أن الصلاة سميت « صلاةً » لأن المصلى يتعرض لاستنجاح طَلِبَتِه من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربَّه من حاجاته [تعرُّض الداعى بدعائه ربه استنجاحَ حاجاته وسُؤلَه] . [وقيل في اشتقاقها أقوال أخر][1] . واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر . والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ④

قال ابن عباس " والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك " أى : يصدّقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرّقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاؤهم به من ربهم " وبالآخرة هم يوقنون " أى : بالبعث

---

(١) الزيادة الأولى ، تتمة كلام الطبرى . تركها الحافظ المؤلف ، والمعنى لا يتم بدونها . والزيادة الثانية ، تلخيص لكلام المؤلف ، لم نجد حاجة للإطالة به ، خصوصاً وأنه غير ثابت في المخطوطة الأزهرية .

والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت "الآخرة" لأنها بعد الدنيا .
وقد اختلفت المفسرون في الموصوفين هنا : هل هم الموصوفون بما تقدّم من قوله ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، ومن هم ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها ابن جرير : أحدها : أن الموصوفين أوّلاً هم الموصوفون ثانياً ، وهم كل مؤمن ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم . والثاني : هما واحد ، وهم مؤمنو أهل الكتاب . وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفاتٍ على صفات ، كما قال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدّر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاءً أحوى ﴾ . الثالث : أن الموصوفين أوّلاً مؤمنو العرب ، والموصوفون ثانياً بقوله " والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون " لمؤمنى أهل الكتاب . واختاره ابن جرير . ويستشهد لما قال بقوله تعالى : ﴿ وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ ، الآية . وبقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . وبما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة يؤتَـوْن أجرَهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ، ورجل مملوك أدّى حقّ الله وحقّ مواليه . ورجل أدّب جاريتَه فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها » . وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة ، وهى : أن الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين . فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين : منافق وكافر ، فكذلك المؤمنون صنّفهم إلى عربى وكتابى . قلت : والظاهر قول مجاهد : أربع آيات من سورة البقرة فى نعت المؤمنين ، وآيتان فى نعت الكافرين ، وثلاث عشرة فى المنافقين . فهذه الآيات الأربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها ، من عربى وعجمى وكتابى ، من إنسى وجنى . وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى ، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها . فلا يصح الإيمان بالغيب وإقامة

الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة ، كما أنّ هذا لا يصح إلا بذاك . وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ ، الآية. وقال : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنّا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ﴾ ، الآية. وقال : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدّقاً لما معكم ﴾ . وقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾. وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك ، فقال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾. وقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم ﴾ — إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه . لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية ، وذلك : أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً ، فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجرُ مرتين . وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدّم مجملاً ، كما جاء فى الصحيح : « إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تكذّبوهم ولا تصدّقوهم ، وقولوا : آمنّا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » . ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذى بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتمَّ وأكملَ ، وأعمَّ وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام . فهم وإن حصل لهم أجرانِ من تلك الحيثية فغيرُهم قد يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابُه على الأجرين اللذَين حصَلا لهم . والله أعلم .

﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِن رَبِّهِمْ ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

يقول تعالى " أولئك " أى : المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذى رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومَن قبلَه مِن الرسل والإيقان بالدار الآخرة . وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات

وترك المحرّمات " على هدى " أى : على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى " وأولئك هم المفلحون " أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦)

يقول تعالى " إنّ الذين كفروا " أى : غطّوا الحق وستروه ، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك — سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به . كما قال تعالى : ﴿ إنّ الذين حقّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذابَ الأليم﴾ . وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب : ﴿ ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ ، الآية . أى : إن من كتب الله عليه الشقاوةَ فلا مُسعدَ له ، ومن أضله فلا هاديَ له ، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسرات ، وبلّغهم الرسالة ، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ، ومن تولّى فلا تحزنْ عليهم ولا يُهمنّك ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ و ﴿ إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل ﴾ . وعن ابن عباس فى قوله " إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون " قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميعُ الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ فى الذكر الأوّل ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر الأوّل . وقوله تعالى "لا يؤمنون" محلّه من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتى قبلها "سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم" أى : هم كفار فى كلا الحالين . فلهذا أكّد ذلك بقوله "لا يؤمنون" . ويحتمل أن يكون " لا يؤمنون " خبراً لأنّ تقديره : إن الذين كفروا لا يؤمنون ، ويكون قوله " سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم " جملةٌ معترضة . والله أعلم :

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

قال السدّى " ختم الله " أى : طبع الله . وقال قتادة فى هذه الآية : استحوذ عليهم الشيطان إذْ أطاعوه ، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى

أبصارهم غشاوةٌ ، فهم لا يبصرون هدًى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون .

وقال ابن جرير : وقال بعضهم : إنما معنى قوله " ختم الله على قلوبهم " إخبارٌ من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق ، كما يقال : إنّ فلاناً أصم عن هذا الكلام – إذا امتنع من سماعه ورَفَع نفسه عن تفهمه تكبرًا . قال : وهذا لا يصح ، لأنّ الله قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم .

قلت : وقد أطنب الزمخشرى فى تقرير ماردّه ابن جرير ههنا ، وتأوّل الآية من خمسة أوجه ، وكلها ضعيفة جدًّا . وما جرّأه على ذلك إلاّ اعتزالُه ، لأنّ الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيحٌ عنده ، يتعالى الله عنه فى اعتقاده . ولو فهم قوله تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، وقوله : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوّلَ مرة ونذرُهم فى طغيانهم يعمهون﴾ . وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح – فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال . والله أعلم .

قال ابن جرير : والحقّ عندى فى ذلك ما صحَّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ثم روَى] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتةٌ سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزَع واستعتب صُقِل قلبه ، وإن زاد زادتْ حتى تعلُوَ قلبَه ، فذلك الرّانُ الذى قال تعالى : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ » . ورواه الترمذى والنسائى ، وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن صحيح[1] . ثم قال ابن جرير : فأخبر صلى الله عليه وسلم أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختمُ من قبل الله تعالى والطبعُ ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مَخْلَص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره الله فى

---

(١) الحديث فى الطبرى ، رقم : ٣٠٤ ، بتخريجنا . ورواه أيضاً أحمد : ٧٩٣٩ . والحاكم ٢ : ٥١٧ ، وصححه هو والذهبى .

قوله "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم" نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وَصَفَ اللهُ أنه ختم على قلوبهم ، إلاّ بعد فضّه خاتمه وحلّه رباطه .

واعلم أنّ الوقف التامّ على قوله " ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم " . وقوله " وعلى أبصارهم غشاوةٌ " جملةٌ تامة ، فإنّ الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوةُ — وهى الغطاء — تكون على البصر. قال ابن جُريج : الختم على القلب والسمع ، والغشاوةُ على البصر ، قال الله تعالى : ﴿ فإن يشأ الله يختمْ على قلبك ﴾ . وقال : ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ . قال ابن جرير ومن نصب " غشاوة " من قوله " وعلى أبصارهم غشاوة " ، يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره : وجعل على أبصارهم غشاوة ، ويحتمل أن يكون نصبها على الإتباع على محل " وعلى سمعهم " كقوله تعالى : ﴿ وحورٍ عين ﴾[1] .

لما تقدّم وصفُ المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات ، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين ، شرع تعالى فى بيان حال المنافقين ، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . ولمّا كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس ، أطنب فى ذكرهم بصفات متعدّدة ، كلّ منها نفاق ، كما أنزل سورةَ براءة فيهم ، وسورةَ المنافقين فيهم ، وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور ، تعريفاً لأحوالهم ، لتُجتنبَ ويُجتنبَ من تلبس بها أيضاً . فقال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٩)

النفاق : هو إظهار الخير وإسرار الشر . وهو أنواع : اعتقادىّ ، وهو الذى يخلّد صاحبه فى النار ، وعملىّ ، وهو من أكبر الذنوب ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله . وهذا كما قال ابن جريج : المنافق يخالف قولُه

---

(١) نصب « غشاوة » قراءة شاذة ، ردها الطبرى ولم يجز القراءة بها . وهو كما قال رحمه الله .

فعلَه ، وسرُّه علانيتَه ، ومدْخلُه مخرجَه ، ومشهدُه مغيبَه . وإنما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية ، لأنّ مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان خلافُه : من الناس من كان يظهر الكفر مستكرَهاً وهو فى الباطن مؤمن . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان بها الأنصارُ من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وكانوا ثلاثَ قبائلَ : بنو قَيْنُقاع حلفاءُ الخزرج ، وبنو النَّضير ، وبنو قُريظة ، حلفاءُ الأوس . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج ، وقَلَّ من أسلم من اليهود ، إلا عبدَ الله بن سلاَم رضى الله عنه ، ولم يكن إذْ ذاك نفاقٌ أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين بعدُ شوكةٌ تُخاف ، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادَعَ اليهودَ وقبائلَ كثيرةً من أحياء العرب حوالى المدينة . فلما كانت وقعةُ بدرٍ العظمى ، وأظهر الله كلمتَه ، وأعزّ الإسلام وأهلَه — قال عبدُ الله بن أبىّ ابنُ سَلولٍ ، وكان رأساً فى المدينة وهو من الخزرج ، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يُملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله . فلما كانت وقعةُ بدر قال : هذا أمرٌ قد توجَّه ، فأظهر الدخولَ فى الإسلام ، ودخل معه طوائفُ ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخَرون من أهل الكتاب . فمن ثَمّ وُجد النفاق فى أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب . فأمّا المهاجرون فلم يكن فيهم أحد ، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرَهاً ، بل يهاجر ويترك مالَه وولدَه وأرضَه ، رغبةً فيما عند الله فى الدار الآخرة .

ولهذا نبّه الله سبحانه على صفات المنافقين ، لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقعَ لذلك فسادٌ عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار فى نفس الأمر . وهذا من المحذورات الكبار أن يظنّ بأهل الفجور خيراً . فقال تعالى : "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين" أى : يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شىء آخر ، كما قال : ﴿ إذا جاءك المنافقون

قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ ، أى : إنما يقولون ذلك إذا جاؤك فقط لا فى نفس الأمر ، ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإنّ ولام التأكيد فى خبرها ، كما أكدوا قولهم " آمنا بالله واليوم الآخر " وليس الأمر كذلك ، كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾. وبقوله " وما هم بمؤمنين " .

وقوله تعالى "يخادعون الله والذين آمنوا " أى : بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأنّ ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ . ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله " وما يُخَادعون إلا أنفسهم وما يشعرون " يقول : وما يغرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم . كما قال تعالى : ﴿ إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ . ومن القرّاء من قرأ " وما يخدعون إلا أنفسهم " . وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد .

قال ابن جرير فإن قال قائل : كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً ، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقيةً ؟ قيل : لا تمتنع العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقيةً لينجوَ مما هو له خائفٌ — مخادعاً . فكذلك المنافق سمى مخادعاً لله وللمؤمنين بإظهاره ما أظهره بلسانه تقيةً مما تخلّص به من القتل والسِّبَاء والعذاب العاجل ، وهو لغير ما أظهر مستبطن ، وذلك من فعله — وإن كان خِداعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا — فهو لنفسه بذلك من فعله خَادع ، لأنه يُظهر لها بفعله ذلك بها ، أنه يُعطيها أمنيتها ، ويسقيها كأسَ سرورها ، وهو مُوردُها به حياضَ عَطَبِهَا ، ومجرّعها به كأس عذابها ، ومُزيرها من غضب الله وأليم عقابه مالا قِبَلَ لها به . فذلك خديعتهُ نفسه ، ظنًّا منه — مع إساءته إليها فى أمر معادها — أنه إليها محسن ، كما قال تعالى " وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون " إعلاماً منه عبادَهُ المؤمنين : أنّ

المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسخاطهم عليها ربَّهم بكفرهم وشكّهم وتكذيبهم غيرُ شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمياءَ من أمرهم مقيمون .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١٠)

" فى قلوبهم مرض " شك " فزادهم الله مرضاً " شكا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم " فى قلوبهم مرض " قال : هذا مرض فى الدين ، وليس مرضاً فى الأجساد ، وهم المنافقون . والمرض : الشك الذى دخلهم فى الإسلام " فزادهم الله مرضاً " قال : زادهم رجساً ، وقرأ : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتْهم رجساً إلى رجسهم ﴾ . قال : شرًّا إلى شرهم ، وضلالةً إلى ضلالتهم . وهذا الذى قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن ، وهو الجزاءُ من جنس العمل . وكذلك قاله الأوّلون . وهو نظير قوله تعالى أيضاً : ﴿ والذين اهتدوْا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ . وقوله " بما كانوا يَكذِبون " وقرئ " يُكذِّبون "(١) وقد كانوا متصفين بهذا وهذا ، فإنهم كانوا كَذَبةً ويكذّبون بالغيب ، يجمعون بين هذا وهذا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

الفساد : هو الكفرُ والعمل بالمعصية . قال ابن جرير : فأهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربَّهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضَه ، وشكِّهم فى دينه الذى لا يَقْبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته ، وكَذِبهم المؤمنين بدعواهم غيرَ ما هم عليه مقيمون من الشك والرّيب ، ومظاهرتهم أهلَ التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً . فذلك إفساد المنافقين فى الأرض ، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها . وهذا الذى قاله حسن ، فإن من الفساد فى الأرض

---

(١) أى بفتح الياء مع سكون الكاف . وبضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة . وكلاهما من القراءات السبعة .

اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، كما قال تعالى : ﴿ والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعض، إلاّ تفعلوه تكنْ فتنةٌ فى الأرض وفسادٌ كبير ﴾ . فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين . كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ . ثم قال : ﴿ إن المنافقين فى الدّرْك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ﴾ . فالمنافق لمّا كان ظاهره الإيمان ، اشتبه أمرُه على المؤمنين ، فكأنّ الفساد من جهة المنافق حاصل ، لأنه هو الذى غرّ المؤمنين بقوله الذى لاحقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين . ولو أنه استمر على حالته الأولة لكان شره أخف ، ولو أخلص العمل لله وتطابق قولهُ وعملُه لأفلح وأنْجح . [ولكنهم يقولون] : نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء ! ويقول الله " ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون" يقول : ألا أن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين " آمنوا كما آمن الناس" أى : كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار ، وغير ذلك مما أُخْبِرَ المؤمنون به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر — " قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء " يعنون — لعنهم الله — أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنهم . و " السفهاء " جمع سفيه . كما أن الحكماء جمع حكيم . والسفيه : هو الجاهل الضعيفُ الرأى القليلُ المعرفة بمواضع المصالح والمضارّ . ولهذا سمّى الله النساءَ والصبيانَ سفهاءَ فى قوله : ﴿ ولا تؤتوا السفهاءَ أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ﴾ . قال عامة علماء السلف : هم النساء والصبيان . وقد تولى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها فقال "ألا إنهم هم السفهاء" فأكّد وحصرَ السفاهة فيهم " ولكن لا يعلمون " يعنى : ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل ، وذلك أرْدَى لهم ، وأبلغُ فى العمى والبعد عن الهدَى .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : وإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين " قالوا : آمنّا " أى : أظهروا لهم الإيمانَ والموالاةَ والمصافاةَ ، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعةً وتقيةً ، وليَشْرَكوهم فيما أصابوا من خيرٍ ومغنم " وإذا خلوا إلى شياطينهم " يعنى : وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم . فضمَّن " خلَوْا " معنى انصرفوا ، لتعديته بـ " إلى " ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به . ومنهم من قال " إلى " هنا بمعنى " مع " . والأول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير . " إلى شياطينهم " من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول. قاله ابن عباس . وقال مجاهد : شياطينهم : أصحابهم من المنافقين والمشركين . قال ابن جرير : وشياطين كل شىء : مَرَدَتُه . ويكون الشياطين من الإنس والجن ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجن يُوحى بعضُهم إلى بعض زُخرفَ القول غروراً ﴾ . وفى المسند عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعوَّذْ بالله من شياطين الإنس والجن ، فقلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : نعم »[(١)] . وقوله تعالى " قالوا إنا معكم " أى : إنّا على مثل ما أنتم عليه " إنما نحن مستهزءون " أى : إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم .

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلةً على صنيعهم " الله يستهزئ بهم ويَمُدُّهم فى طغيانهم يعمهون " أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة فى قوله : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انْظُرُونا نَقتبس من نوركمْ ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضُرب بينهم بسور له باب ، باطنُه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذابُ ﴾ ، الآية . وقوله : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نُملى لهم خير

---

(١) مضى أيضاً ، ص : ٦٤ . وهو فى المسند ٥ : ١٧٨ (حلبى) ، ضمن حديث مطول . ورواه النسائى مختصراً ٢ : ٣١٩ .

لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين ﴾ . فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكرُه وسخريتِه ومكرِه وخديعتِه للمنافقين وأهل الشركِ به .

وقوله تعالى " وَيَمُدّهم فى طغيانهم يعمهون " يمدهم : يملى لهم، يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوّهم وتمردهم . كما قال : ﴿ ونقلّب أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرة ، ونذَرُهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ . والطغيان : هو المجاوزة فى الشىء ، كما قال : ﴿ إنّا لما طغى الماءُ حملناكم فى الجارية ﴾ . والعَمَهُ : الضلال ، يقال « عَمِه فلان يَعْمَهُ عَمَهاً وعُمُوهاً ، إذا ضل . وقوله "فى طغيانهم يعمهون " فى ضلالِهم وكفرهم الذى قد غمرهم دنسه وعلاهم رِجْسه يتردّدون حيارَى ضُلاّلاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً . لأن الله قد طَبَع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارَهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً .

﴿ أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦)

" أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " : استحبوا الضلالة على الهدى . وهذا يشبه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدى ﴾ . وحاصل قول المفسرين : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلالة ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة . وهو معنى قوله تعالى " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " أى : بذلوا الهدى ثمناً للضلالة . وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر ، كما قال فيهم : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ﴾ . أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى ، كما يكون حال فريق آخر منهم ، فإنهم أنواع وأقسام . ولهذا قال تعالى " فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين " أى : ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة " وما كانوا مهتدين " أى : راشدين فى صنيعهم ذلك . وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة : قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأَمْن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٨)

وتقرير هذا المثل : أن الله سبحانه شبّههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنّس بها — فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره ، وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى ، وهو مع ذلك أصمٌّ لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبلَ ذلك . فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغى على الرشَد . وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع . والله أعلم .

وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد إلى الجمع فى قوله " فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون " . وهذا أفصح فى الكلام وأبلغ فى النظام . وقوله " ذهب الله بنورهم " أى : أذهب عنهم ما ينفعهم ، وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرّهم ، وهو الإحراق والدخان " وتركهم فى ظلمات " وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق " لا يبصرون " لا يهتدون إلى سُبل خير ولا يعرفونها ، وهم مع ذلك " صم " لا يسمعون خيراً " بكم " لا يتكلمون بما ينفعهم " عمى " فى ضلالة وعماية البصيرة ، كما قال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمَى القلوبُ التى فى الصدور ﴾ . فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢٠)

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضَرْبٍ آخرَ من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارةً ويشكّون تارةً أخرى ، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وتردّدهم "كصيب" — والصيِّبُ : المطر — نزل من السماء فى حال ظلماتٍ ، وهى الشكوك والكفر والنفاق ، "ورعد" وهو ما يزعجُ القلوبَ من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع ، كما قال تعالى : ﴿ يحسبون كلّ صيحة عليهم ﴾. وقال : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لَمِنْكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يَفْرَقون * لو يجدون ملجأ أو مَغارات أو مُدّخلاً لوَلَّوْا إليه وهم يجمحون ﴾ . و " البرق " هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الإيمان ، ولهذا قال "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين " أى : ولا يجدى عنهم حذرُهم شيئاً ، لأن الله محيط بهم بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته . كما قال : ﴿ هل أتاك حديث الجنود * فرعونَ وثمودَ * بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورائهم محيط ﴾ . ثم قال " يكاد البرق يخطف أبصارهم " قال ابن عباس : أى : بشدة ضوء الحق "كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا " أى : كلما ظهر لهم من الإيمان شىء استأنسوا به واتّبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمتْ قلوبَهم فوقفوا حائرين . وهكذا يكونون يوم القيامة عندَ ما يعطَى الناسُ النورَ بحسب إيمانهم ، فمنهم من يعطَى من النور ما يضىء له مسيرةَ فراسخ ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نورُه تارة ويُضىء له أخرى فيمشى على الصراط تارةً ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نورُه بالكلية ، وهم الخُلصُ من المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرُونا نقتبسْ من نوركم ، قيل ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً ﴾ . وقال فى حق المؤمنين : ﴿ يوم تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكُم اليومَ جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ . وقال : ﴿ يوم لا يخزى اللهُ النبىّ والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورَنا واغفرْ لنا ، إنك على كل شىء قدير ﴾ .

فإذا تقرّر هذا صار الناسُ أقساماً : مؤمنون خلص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع فى أول البقرة . وكفارٌ خلص ، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها . ومنافقون وهم قسمان : خلص ، وهم المضروب لهم المثل النارىُّ، ومنافقون مُتَردّدونَ ، تارةً يظهرلهم لُمَعٌ من الإيمان، وتارةً يخبو. وهم أصحاب المَثل المائىّ، وهم أخفُّ حالاً من الذين قبلهم .

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذُكر فى سورة النور ، من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنور — بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكب درىّ ، وهى قلبُ المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كَدَر ولا تخليط ، كما سيأتى تقريرُه فى موضعه، إن شاء الله . ثم ضرب مثل العُبَّاد من الكفَّار الذين يعتقدون أنهم على شىء وليسوا على شىء، وهم أصحابُ الجهل المركّب ، فى قوله : ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كسَرَاب بقيعَة يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ووجدَ اللهَ عنده فوفاه حسابَه واللهُ سريعُ الحساب﴾ . ثم ضرب مثل الكفّار الجهالِ الجهلَ البسيط ، وهم الذين قال تعالى فيهم : ﴿ أو كظلماتٍ فى بحر لُجِّىّ يغشاه مَوج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضُها فوق بعض ، إذا أخرج يدَه لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . فقسم الكفار ههنا إلى قسمين : داعية ومقلّد ، كما ذكرهما فى أول سورة الحج : ﴿ ومن الناس من يُجادل فى الله بغير علمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ مُنير ﴾ . وقال : ﴿ ومن الناس من يجادلُ فى الله بغير علمٍ ويتّبع كلّ شيطان مَريد)[1] . وقد قسم الله المؤمنين فى سورة الواقعة وآخرها، وفى سورة الإنسان ، إلى قسمين : سابقون وهم المقرَّبون ، وأصحابُ يمين وهم الأبرار .

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات : أن المؤمنين صنفان :

---

(١) الآية ٣ من سورة الحج . والتى ذكر المؤلف قبلها هى الآية ٨ . ولم يرد بذلك نسق التلاوة ، وإنما أراد أن الله سبحانه وصف الداعية ووصف المقلد . فذكر الآيتين للاستدلال على وصف كل منهما . وطابعو التفسير لم يلحظوا مقصد الحافظ المؤلف ، فقدموا وأخروا ، اتباعاً لنسق التلاوة .

مقرّبون وأبرار. وأن الكافرين صنفان : دعاة ومقلّدون . وأنّ المنافقين أيضاً صنفان : منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق . كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عَمرو عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « ثلاثٌ من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه واحدةٌ منهنّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعها : مَن إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتُمن خان » . استدلوا به على أنّ الإنسان قد يكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق، إمّا عملىّ لهذا الحديث ، أو اعتقادىّ كما دلت عليه الآية — كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء ، كما تقدم ، وكما سيأتى إن شاء الله . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال : قال سول الله صلى الله عليه وسلم : « القلوب أربعة : قلبٌ أجرد ، فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلفُ مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفّح . فأما القلبُ الأجرد فقلبُ المؤمن، سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلفُ فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلبُ المنافق ، عَرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفّح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق . ومثل الإيمان فيه كمثل البَقْلَة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأىّ المدّتين غلبتْ على الأخرى غلبتْ عليه » . وإسناده جيد حسن [١] .

وقوله تعالى " ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم " لما تركوا من الحق بعد معرفته " إن الله على كل شىء قدير " . قال ابن جرير : إنما وصف الله نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع ، لأنه حذّر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير . ومعنى " قدير " قادر، كما معنى « عليم » عالم .

---

(١) هو فى المسند : ١١١٤٦ (٣ : ١٧ حلبى) . ومجمع الزوائد ١ : ٦٣ . وقال : « رواه أحمد والطبرانى فى الصغير . وفى إسناده ليث بن أبى سليم » . وأشرنا إليه فى تخريج أحاديث الطبرى : ١٤٩٧ ، وبينا أن إسناده صحيح .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾

شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته ، بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم النعمَ الظاهرةَ والباطنةَ ، بأن جعل لهم الأرض فراشاً ، أى مهداً كالفراش مقرَّرةً موطَّأة مثبتةً بالرواسى الشامخات ، والسماء بناءً ، وهو السقف . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ . وأنزل لهم من السماء ماء — والمراد به السحاب ههنا — فى وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد ، رزقاً لهم ولأنعامهم ، كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن . ومِنْ أشبه آية بهذه قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صُوَرَكم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله ربُّ العالمين﴾ . ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقُهم ، فبهذا يستحقّ أن يُعبد وحدَه ، ولا يُشرَكَ به غيرُه . ولهذا قال " فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون " أى : لا تشركوا بالله غيرَه من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيرُه ، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسولُ من توحيده هو الحقّ الذى لا شكّ فيه .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : « قلت : يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظمُ ؟ قال : أن تجعل لله نداًّ وهو خلقك » — الحديث . وكذلك حديث معاذ : « أتدرى ما حقُّ الله على عباده ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً » — الحديث . وعن الطُّفَيْل بن سَخْبَرَةَ — أخى عائشة أم المؤمنين لأمها — قال : «رأيت فيما يَرى النائم كأنى أتيت على نفرٍ من اليهود ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتُمُ القومُ لولا أنكم تقولون عُزَيرٌ ابنُ الله ، قالوا :

وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء اللهُ وشاء محمد ، قال : ثم مررتُ بنفر من النصارى ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيحُ ابنُ الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحتُ أخبرتُ بها مَن أخبرتُ ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : هل أخبرتَ بها أحداً ؟ فقلت : نعم ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها مَن أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا " ما شاء الله وشاء محمد " ولكن قولوا " ما شاء الله وحده " » . رواه ابن مردويه ، وأخرجه ابن ماجة بنحوه[١] . وعن ابن عباس قال : « قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشئت ، فقال : أجعلتني لله نِداً ؟ ! قل : ما شاء الله وحدَه » . رواه ابن مردويه والنسائي وابن ماجة[٢] . وهذا كله صيانةً وحمايةً لجناب التوحيد . والله أعلم . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : الأنداد ، هو الشرك ، أخفَى من دبيب النمل على صفاةٍ سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله ، وحياتك يا فلان ، وحياتي ، ويقول : لولا كلبةُ هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوصُ ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئتَ ، وقول الرجل : لولا الله

---

(١) الحديث رواه أيضاً أحمد في المسند ٥ : ٧٢ (حلبي) . وإسناده صحيح . ورواه الدارمي في سننه ٢ : ٢٩٥ مختصراً . وأشار إليه البخاري في التاريخ الكبير ٢/٢/٣٦٤ – ٣٦٥ في ترجمة الطفيل . ورواه الحافظ المزي في ترجمته أيضاً ، في تهذيب الكمال . وروى هذه القصة أيضاً – مختصرة – حذيفة بن اليمان : « أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني رأيت في المنام . . . » . رواها عنه أحمد في المسند ٥ : ٣٩٣ (حلبي) . وكذلك رواها ابن ماجة : ٢١١٨ ، من حديث حذيفة ، ثم رواها من حديث الطفيل بن سخبرة – فلم يذكر لفظه . قال البوصيري في زوائده ، في حديث الطفيل : « رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري » . فالظاهر أن حذيفة شهد قصة الطفيل ، أو لعله سمعها منه أو من غيره ممن شهدها .

(٢) أبعد المؤلف النجعة ، إذ ذكر الحديث من رواية ابن مردويه ، وهو بين يديه في المسند بنحوه : ١٨٣٩ ، ١٩٦٤ ، ٢٥٦١ ، ٣٢٤٧ . ومن عادته أن يقدم المسند على غيره . والحديث رواه أيضاً البخاري في الأدب المفرد ، ص : ١١٦ . وأشار إليه ابن حجر في الفتح ١١ : ٤٧٠ . وهو في الدر المنثور ١ : ٣٥ .

وفلان ، لا تجعل فيها « فلان » . هذا كله به شرك » . [ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا حديثاً طويلاً ، عن المسند للإمام أحمد ، من حديث الحرث بن الحرث الأشعرى : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن . . . » ، وذكر الحديث ، وفيه : « وأولهن : أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله . بوَرِق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى الذى عليه إلى غير سيده ، فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك ؟ ! وإن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » — إلى آخر الحديث . ثم قال الحافظ ابن كثير] : هذا حديث حسن . والشاهد منه فى هذه الآية قوله : « وإن الله خلقكم ورزقكم . فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً »(١) .

وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدل بها كثير من المفسرين — كالرازى وغيره — على وجود الصانع تعالى . وهى دالة على ذلك بطريق الأولى ، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية ، واختلافَ أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ، ووضْعَها فى مواضع النفع بها محكمةً — عَلم قدرةَ خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيمَ سلطانه .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوّة ، بعد أن قرّر أنه لا إله إلا هو ، فقال مخاطباً للكافرين "وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا" يعنى محمداً صلى الله

---

(١) وهذا الحديث بطوله — فى المسند : ١٧٢٣٦ ٤ : ١٣٠ حلبى) . ورواه الطيالسى فى ١١٦١ ، ١١٦٢ . ورواه الترمذى ٤ : ٣٧ — ٣٨ ، عن محمد بن إسمعيل ، وهو البخارى ، ثم رواه أيضاً من طريق الطيالسى . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح غريب » . وقد أشار إليه البخارى فى التاريخ الكبير ٢٥٨/٢/١ — ٢٥٩ ، فى ترجمة الحرث الأشعرى ، كعادته فى الإشارة الموجزة .

عليه وسلم "فأتوا بسورة" من مثل ما جاء به ، إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك . وقد تحدّاهم تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن . فقال فى سورة القصص : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدَى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ . وقال فى سورة سبحان : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾ . وقال فى سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سُوَر مثله مفتريات ، وادعوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . وقال فى سورة يونس : ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يفترَى من دون الله، ولكنْ تصديقَ الذى بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ۞ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . وكل هذه الآيات مكية . ثم تحدّاهم بذلك أيضاً فى المدينة، فقال فى هذه الآية "وإن كنتم فى ريب" أى : شك "مما نزلنا على عبدنا" يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم" فأتوا بسورة من مثله" يعنى : من مثل القرآن . قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير . بدليل قوله : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله ﴾ ، وقوله : ﴿ لا تأتون بمثله ﴾ . وقد تحدّاهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدّة عدواتهم له وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى "فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا". و "لن" لنفى التأبيد ، أى : ولن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضاً معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مُقْدماً ، غيرَ خائف ولا مشفق — أنّ هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً . وكذلك وقع الأمر ، لم يعارَضْ من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن . وأنى يتأتى ذلك لأحد ، والقرآنُ كلام الله خالق كل شىء ؟ وكيف يشبه كلامُ الخالق كلامَ المخلوقين ؟ !

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيثُ اللفظ ومن جهة المعنى . قال الله تعالى : ﴿ الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير ﴾ . فأحكمت ألفاظه وفُصّلت معانيه — أو بالعكس على

الخلاف — فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذَى ولا يدانَى . فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبقَ ما أخبر سواء بسواء[١] ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى : ﴿ وتمتْ كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ . أى : صدقاً فى الإخبار وعدلاً فى الأحكام . فكله حق وصدق وعدل وهدًى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء . كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرُهم إلاّ بها ، كما قيل فى الشعر : إنّ أعذَبه أكذبه . وتجد القصيدة الطويلة المديدةَ قد استُعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر ، أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شىء من المشاهدات المتعينة ، التى لا تفيد شيئاً إلا قدرةَ المتكلم المعين على الشىء الخفىّ أو الدقيق ، أو إبرازَه إلى الشىء الواضح . ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد ، وسائرها هذَر لا طائل تحته . وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة ، عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالاً ممن فهم كلامَ العرب وتصاريف التعبير . فإنه إن تأملتَ أخبارَه وجدتَها فى غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسوطةً أو وجيزةً ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكررت حلا وعلا ، لا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ ، ولا يملّ منه العلماء . وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعرّ منه الجبال الصمّ الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات . وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن . كما قال فى الترغيب : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ . وقال : ﴿ فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتَلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ . وقال فى الترهيب : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ . ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسفَ بكم

---

(١) هكذا ثبت فى المطبوعة . لأن هذه القطعة ، من أول قوله : « ومن تدبر . . . » — إلى أول قوله : « ولهذا ثبت فى الصحيحين ، ص ١٢٠ س ١٦ ليست فى الأزهرية . وأخشى أن يكون فى الكلام سقط ونقص . وأن يكون مراد الكلام : أنه أخبر عن مغيبات ماضية لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم علم بها قبل هذا الوحى ، وأخبر عن أشياء مستقبلة كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء .

الأرضَ فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً ، فستعلمون كيف نذير ﴾ . وقال فى الزجر : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ﴾ . وقال فى الوعظ : ﴿ أفرأيتَ إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ — إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة . وإن جاءت الآياتُ فى الأحكام والأوامر والنواهى ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعتَ الله تعالى يقول فى القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرْعها سمعك ، فإنها خير يـَأمر به ، أو شرّ ينهى عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضَعُ عنهم إصرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم ﴾ . وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال ، وفى وصف الجنة والنار ، وما أعدّ الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم ، والملاذّ والعذاب الأليم — بشرت به وحذّرت وأنذرتْ ، ودعتْ إلى فعل الخير واجتناب المنكرات ، وزهدتْ فى الدنيا ورغبتْ فى الأخرى ، وَثبَّتتْ على الطريقة المثلى ، وهدتْ إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم .

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء من نبيّ إلا قد أُعطىَ من الآيات ما مثله آمنَ عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُ وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . لفظ مسلم [1] . وقوله « وإنما كان الذى أوتيت » أى : الذى اختصصتُ به من بينهم هذا القرآنُ المعجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة . والله أعلم . وله صلى الله عليه وسلم من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء — ما لا يدخل تحت حصر . ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى ”فاتقوا النار التى وَقُودها الناس والحجارة أعدت للكافرين“ أما

---

(١) صحيح مسلم ١ : ٥٣ (بولاق) .

"الوقود" بفتح الواو فهو : ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه . كما قال : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم أنتم لها واردون ﴾ .

وقوله تعالى " أعدّت للكافرين " الأظهر أن الضمير فى " أعدت " عائد إلى النار التى وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده على الحجارة. ولا منافاة بين القولين فى المعنى ، لأنهما متلازمان . و "أعدت" أى : أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله . وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن ، لقوله تعالى " أعدت " أى : أرصدت وهيئت . وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها : « تحاجت الجنة والنار » . ومنها : « استأذنت النار ربَّها فقالت : رب أكل بعضى بعضاً ، فأذنَ لها بنفَسين ، نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف » . وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى . وقد خالفت المعتزلةُ بجهلهم فى هذا ، ووافقهم القاضى مُنذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس .

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٢٥)

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدّقوا إيمانهم الصادق بأعمالهم الصالحة . وهذا معنى تسمية القرآن " مثانى " على أصح أقوال العلماء ، كما سنبسطه فى موضعه . وهو : أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر ، أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء ، أو عكسه . وحاصله : ذكر الشىء ومقابله . وأما ذكر الشىء ونظيره فذاك التشابه ، كما سنوضحه إن شاء الله . فلهذا قال تعالى "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار" . فوصفها بأنها تجرى من تحتها الأنهار [كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة . ومعنى "تجرى من تحتها

الأنهار "] [١] أى : من تحت أشجارها وغرفها . وقد جاء فى الحديث : أن أنهارها تجرى من غير أخدود . وجاء فى الكوثر : أنّ حافتيه قباب اللؤلؤ المجوّف . ولا منافاةَ بينهما ، وطينها المسكُ الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر . نسأل الله من فضله ، إنه هو البرّ الرحيم . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » . رواه ابن أبى حاتم[٢] .

وقوله تعالى "كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل" معناه : مثل الذى كان بالأمس . "وأتوا به متشابهاً" يعنى : فى اللون والمرأى ، وليس يشتبه فى الطعم .

وقوله تعالى "ولهم فيها أزواج مطهرة" قال ابن عباس : مطهرة من القذَر والأذَى . وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمأثم .

وقوله تعالى " وهم فيها خالدون" هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل فى نعيم سرمدىّ أبدىّ على الدوام . والله المسئول أن يحشرنا فى زمرتهم ، إنه جواد كريم ، برّ رحيم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ (٢٦) ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ، أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (٢٧)

قال السدى فى تفسيره — عن ابن مسعود وغيره — : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعنى قوله ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ﴾ ، وقوله ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ ، الآيات الثلاث — قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أن يضرب

---

(١) هذه الزيادة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية . وقد سقطت خطأً فى المطبوعة .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٣٧ ، وأنه رواه أيضاً : ابن حبان ، والحاكم ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث .

هذه الأمثال . فأنزل الله هذه الآية إلى قوله " هم الخاسرون " .

ومعنى الآية : أنه تعالى أخبر أنه "لا يستحيي" أي : لا يستنكف ، وقيل : لا يخشى " أن يضرب مثلا ما" [أي] : أيّ مثل كان ، بأى شيء كان ، صغيراً أو كبيراً و "ما" ههنا للتقليل . وتكون "بعوضه" منصوبةً على البدل ، كما تقول : لأضربنّ ضرباً مّا ، فيصدق بأدنى شيء . واختار ابن جرير أن "ما" موصولة و "بعوضة" معربة بإعرابها . قال : وذلك سائغ فى كلام العرب ، أنهم يعربون صلة "ما ومَن" بإعرابهما ، لأنهما يكونان معرفة تارةً ونكرةً أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

يَكْفِى بِنَا فَضْلاً على مَنْ غَيْرِنا حُبُّ النبىِّ محمدٍ إيَّانَا

قال : ويجوز أن تكون "بعوضة" منصوبةً بحذف الجارّ ، وتقدير الكلام : إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها . وقوله " فما فوقها " فيه قولان : أحدهما : فما دونها فى الصغر والحقارة ، كما إذا وُصف رجل باللؤم والشح ، فيقول السامع : نعم وهو فوق ذلك ، يعنى فيما وَصَفْتَ . والثانى " فما فوقها " : فما هو أكبر منها ، لأنه ليس شيء أحقرَ ولا أصغرَ من البعوضة. وهذا اختيار ابن جرير . فأخبرَ أنه لا يستصغر شيئاً يَضرب به مثلاً ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضَربَ المثلَ بالذباب والعنكبوت فى قوله : ﴿ يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب ﴾ . وقال : ﴿ مَثلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذتْ بيتاً ، وإن أوهنَ البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضَرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كلّ حين بإذن ربها ، ويضربُ الله الأمثالَ للناس لعلهم يتذكرون * ومثلُ كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثتْ من فوق الأرض مالها من قرار * يثبت اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ . وقال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لايقدر على شىء ﴾ ، الآية . ثم قال : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكمُ لايقدر على شىء وهو كلّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ﴾ ، الآية . كما قال : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ الآية . وقال : ﴿ ضرب الله مثلا رجلاً فيه شركاءُ متشاكسون ﴾ ، الآية. وقد قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ . وفى القرآن أمثال كثيرة . قال بعض السلف : إذا سمعتُ المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيتُ على نفسى ، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وتلك الأمثال نضربُها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾ . "فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم" : قال قتادة : أى : يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله . "وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا " — كما قال فى سورة المدثر : ﴿ وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكةً ، وما جعلنا عدّتهم إلا فتنةً للذين كفروا ، ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً * ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقولَ الذين فى قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً * كذلك يُضل الله من يشاء ويهدى من يشاء، وما يَعلم جنودَ ربك إلا هو ﴾ . وكذلك قال ههنا "يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً " قال ابن مسعود وغيره: يضل به كثيراً : يعنى به المنافقين، ويهدى به كثيراً : يعنى به المؤمنين ، فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم ، لتكذيبهم بما علموه حقًّا يقيناً من المثل الذى ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربه له موافق ، فذلك إضلال الله إياهم به . "ويهدى به" يعنى المثل ، كثيراً من أهل الإيمان والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيماناً إلى إيمانهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلا، وإقرارهم به ، وذلك هداية من الله لهم به[1] . "وما يضل به إلا الفاسقين" قال قتادة : هم المنافقون ، فسقوا فأضلهم الله على فسقهم .

---

(١) هذا النص عن ابن مسعود وغيره ، ثبت محرفاً كثيراً فى المطبوعة ، وقليلا فى الأزهرية . وصححناه من الطبرى : ٥٦٧ .

و "الفاسق" فى اللغة : هو الخارج عن الطاعة . وتقول العرب . فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة فُوَيسقه ، لخروجها عن جُحرها للفساد . وثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خمس فواسق ، يقتلن فى الحل والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور » . فالفاسق يشمل الكافر والعاصى ، ولكن فسق الكافر أشدّ وأفحش. والمراد من الآية الفاسق : الكافر – والله أعلم – بدليل أنه وصفهم بقوله "الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون" . وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين . كما قال تعالى فى سورة الرعد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحقّ كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يَصلون ما أمر الله به أن يُوصل ويخشون ربهم ويخافون سوءَ الحساب ﴾ ، الآيات ، إلى أن قال : ﴿ والذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه ويَقطعون ما أمر اللهُ به أن يُوصَل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار ﴾ .

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وَصَف هؤلاء الفاسقين بنقضه : فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه وأمرُه إياهم بما أمرَهم به من طاعته ، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته – فى كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك وتركهم العمل به . وقال آخرون : بل هى فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم . وعهدُ الله الذى نقضوه : هو ما أخذه عليهم فى التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بُعث ، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم . ونقضُهم ذلك : هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارُهم ذلك وكتمانهم علمَ ذلك عن الناس بعد إعطائهم اللهَ من أنفسهم الميثاقَ ليبيننه للناس ولا يكتمونه . فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً . وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله . وهو قول مقاتل بن حيان . وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميعَ أهل الكفر والشرك والنفاق . وعهده إلى

جميعهم فى توحيده بما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته ، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم . قالوا : ونقضُهم ذلك : تركهم الإقرارَ بما ثبتتْ لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوْا به حق. وهو حسن . وقال آخرون : العهد الذى ذكره تعالى : هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم ، الذى وَصَف فى قوله : ﴿ وإذْ أخذ ربك من بنى آدمَ من ظُهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم ، قالوا بلى شهدنا ﴾ ، الآيتين . ونقضُهم ذلك : تركهم الوفاءَ به . حكى هذه الأقوالَ ابنُ جرير فى تفسيره .

وقوله " ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل " قيل : المراد به صلة الأرحام والقرابات ، كما فسره قتادة . كقوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتُقطعوا أرحامكم ﴾ . ورجحه ابن جرير . وقيل : المراد أعم من ذلك ، فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه . وقال مقاتل بن حيان فى قوله تعالى " أولئك هم الخاسرون " قال : فى الآخرة . وهذا كما قال تعالى : ﴿ أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوء الدار ﴾ وقال ابن جرير " الخاسرون " : جمع خاسر ، وهم الناقصُون أنفسَهم حظوظهم — بمعصيتهم الله — من رحمته ، كما يخسر الرجل المال فى تجارته بأن يوضَع من رأس المال فى بيعه ، وكذلك المنافق والكافر ، خسر بحرمان الله إياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة ، أحوج ما كانوا إلى رحمته . يقال منه : خسر الرجل يخسَر خسْراً وخُسْراناً وخَساراً .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)

يقول تعالى محتجًّا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف فى عباده " كيف تكفرون بالله " أى : كيف تجحدون وجودَه أو تعبدون معه غيرَه ؟ " وكنتم أمواتاً فأحياكم " أى : قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود ، كما قال تعالى : ﴿ أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرضَ بل

لا يوقنون ﴾. وقال: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ . والآيات فى هذا كثيرة . وقال ابن عباس " كنتم أمواتاً فأحياكم " : أمواتاً فى فى أصلاب آبائكم ، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ، ثم يميتكم موتةَ الحقّ ، ثم يحييكم حين يبعثكم . قال: وهى مثل قوله : ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ . وهذا هو الصحيح . وهو كقوله تعالى: ﴿ قل اللهُ يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه ، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٩)

لما ذكر تعالى دلالةً من خلقهم وما يشاهدونه فى أنفسهم ، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض ، فقال " هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء " أى : قصد إلى السماء . والاستواء ههنا مضمن معنى القصد أو الإقبال ، لأنه عُدّى بـ "إلى" "فسوّاهن" أى : فخلق السماء سبعاً . والسماء ههنا : اسم جنس ، فلهذا قال "فسوّاهن" . "وهو بكل شىء عليم" أى : وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ . وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة ، وهو قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرضَ فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دُخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين * فقضاهنّ سبعَ سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرَها ، وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾. فى هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعاً ، وهذا شأن البناء ، أن يُبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك . فأما قوله تعالى: ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ، بناها * رفع سَمْكها فسوّاها * وأغطش ليلها وأخرج ضُحاها * والأرضَ بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءَها ومرْعاها * والجبالَ أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ — فقد قيل : إن " ثم " ههنا إنما هى لعطف الخبر على

الخبر ، لا لعطف الفعل على الفعل . وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه فى تفسيره هذه الآية ــ الحديثَ الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير أيضاً ، من رواية ابن جُرَيج قال أخبرنى إسمعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع مولى أمّ سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق اللهُ التربةَ يوم السبت ، وخلق الجبالَ فيها يومَ الأحد ، وخلق الشجر فيها يومَ الإثنين ، وخلق المكروهَ يوم الثلاثاء ، وخلقَ النورَ يوم الأربعاء ، وبثّ فيها الدّوابّ يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يومَ الجمعة ، من آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل » . وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم . وقد تكلم عليه على بن المدينى والبخارى وغيرُ واحد من الحفاظ ، وجعلوه من كلام كعب ، وأنّ أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً ، وقد حرّر ذلك البيهقى [1] .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠)

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملإ الأعلى قبل إيجادهم ،

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ٢ : ٣٤٠ ، من طريق ابن جريج . وكذلك رواه البيهقى فى الأسماء والصفات ، ص : ٢٧٥ . وتعليل البخارى إياه ثابت فى التاريخ الكبير ١/١/٤١٣-٤١٤ ، فى ترجمة أيوب بن خالد ، حيث أشار إلى الحديث ، ثم قال : « وقال بعضهم : عن أبى هريرة عن كعب . وهو أصحّ » . وأعله البيهقى بعد روايته ، فقال : « وزعم بعض أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ ، لمخالفته ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ . وزعم بعضهم إن إسمعيل بن أمية إنما أخذه عن إبرهيم بن أبى يحيى عن أيوب بن خالد ، وإبرهيم غير محتج به » . ثم روى بإسناده : أن محمد بن يحيى سأل على بن المدينى عن هذا الحديث ؟ فقال : « ما أرى إسمعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبرهيم بن أبى يحيى » . ثم قال البيهقى : « وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذى ، عن أيوب بن خالد ، إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف . وروى عن بكر بن الشرود ، عن إبرهيم بن أبى يحيى ، عن صفوان بن سليم ، عن أيوب بن خالد . وإسناده ضعيف » . أقول : و « بكر بن الشرود » : قال فيه ابن معين : « ليس بثقة » ــ كما فى الكبير للبخارى ١/٢/٩٠ . والحديث سيذكره المؤلف الحافظ مرة أخرى ، مع تعليله ، فى تفسير الآيات : ٩ ــ ١٢ من صورة فصلت ، وسنشير إليه هناك ، إن شاء الله .

فقال تعالى "وإذ قال ربك للملائكة" أى : واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك . حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية — وهو أبو عبيدة — أنه زعم أن "إذ" ههنا زائدة ، وأنّ تقدير الكلام : وقال ربك . وردّه ابن جرير . قال القرطبي : وكذا ردّه جميع المفسرين ، حتى قال الزجاج : هذا اجتراء من أبي عُبيدة . " إنى جاعل فى الأرض خليفةً " أى : قوماً يخلف بعضُهم بعضاً ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل . كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائفَ الأرض ﴾ . وقال : ﴿ ويجعلكم خلفاءَ الأرض ﴾ . وقال : ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكةً فى الأرض يخلفون ﴾ . ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ﴾ . وليس المرادُ ههنا بالخليفة آدمَ عليه السلام فقط ، إذ لو كان كذلك لما حَسن قولُ الملائكة " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " . فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس مَن يفعل ذلك . وكأنهم علموا ذلك بعلم خاصّ ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية . فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون . أو أنهم قاسوه على مَن سبق ، كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك . وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبنى آدم ، كما قد يتوهمه بعض المفسرين ! وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون : يا ربنا ، ما الحكمة فى خلق هؤلاء ، مع أن منهم مَن يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المرادُ عبادتَك فنحن " نسبح بحمدك ونقدس لك " أى : نصلى لك ، كما سيأتى . أى : ولا يصدُر منا شيء من ذلك ، وهلاّ وقع الاقتصارُ علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال : "إنى أعلم ما لا تعلمون" أى : إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف — على المفاسد التى ذكرتموها — مالا تعلمون أنتم ، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصدّيقون والشهداء والصالحون ، والعباد والزّهاد والأولياء والأبرار والمقربون ، والعلماء العاملون والخاشعون ، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم . قال ابن جرير : وإنما معنى " الخلافة " التى ذكرها الله — إنما

هى خلا
فلانٌ فلا
خلائفَ
الأعظم «
» و
والتطهير
و بقولهم «
بذلك الم
ونبرئك مما
من صفاتا
إنى أعلم م
أنبياء ورس

﴿ وَعَا
بِأَسْمَاءِ هَؤ
إِنَّكَ أَنْتَ
بِأَسْمَائِهِمْ
مَا تُبْدُونَ

هذا م
أسماء كل ش
ذاك لمناسبة
ذلك، فأخبر
هذا، ليبين

(١) آيا
على أن الله خلق

الأسماء كلها " قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وقال مجاهد نحو ذلك ، وكذلك رُوى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف : أنه علمه أسماء كل شىء . واختار ابن جرير : أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية ، لأنه قال " ثم عرضهم " وهذا عبارة عما يعقل . وهذا الذى رجح به ليس بلازم ، فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرَهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب . كما قال : ﴿ واللهُ خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شىء قدير ﴾ . والصحيح : أنه علمه أسماءَ الأشياء كلها ، ذواتها وصفاتها وأفعالها . ولهذا روى البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه ، عن أنس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « يجتمع المؤمنون يومَ القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت أبو الناس ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شىء ، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا » . [وساق المؤلف الحديثَ بطوله . وذكر أنه رواه أيضاً مسلم والنسائى وابن ماجة . ثم قال] : . ووجه إيراده ههنا والمقصودُ منه قوله عليه السلام : « فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء » . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات . ولهذا قال " ثم عرضهم على الملائكة " يعنى المسميات " فقال

نسله إلى قيام الساعة . أدلة صحيحة صريحة ، لا تحتمل تأويلا ، ولا تقبل جدلا فى دلالتها ، بما تدل به الألفاظ على المعانى . فمن عجب أن يأتى بعد ذلك من ينتسبون إلى الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين ، فيقبلوا نظرية التطور الإفرنجية ، التى يقول دروين وأتباعه وأشباهه ، يقبلونها ويسلمون بها ويؤمنون ، إيمانهم بالقطعى من الدين ، بل أشد وأوثق . ثم يتأولون الدلائل القطعية الثبوت والدلالة ، من الكتاب والسنة ، فيحرفونها عن مواضعها ، كما فعل اليهود فى دينهم من قبل . ثم لا يستحون أن ينكروا الأحاديث المتواترة المعنى فى ذلك . ثم يدور كلامهم وأدبهم وعلومهم على حساب هذه النظرية التى لم تثبت قط ، والتى لا تقوم أمام النقد ، والتى تتهافت تهافتاً شديداً . ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون ، ويسمون أنفسهم علماء وهم مقلدون ! ! تعالى الله عما يفترون .

أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين " أنى لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلمَ منه ، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال ابن جرير : ومعنى ذلك : فقال أنبئونى بأسماء مَن عرضته عليكم – أيتها الملائكة – القائلون أتجعل فى الأرض من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء من غيرنا أم منا ؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك = إن كنتم صادقين فى قيلكم أنى إن جعلتُ خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس ، فإذاً إذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتُ عليكم وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجدْ أحرَى أن تكونوا غير عالمين .

" قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم " هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى ، أن يحيط أحدٌ بشىء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى . ولهذا قالوا "سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم" أى العليم بكل شىء ، الحكيم فى خلقك وأمرك ، وفى تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة فى ذلك والعدل التامّ . روى ابن أبى حاتم : عن ابن عباس : « سبحان الله » قال : تنزيه الله نفسه عن السوء ، ثم قال : قال عمر لعلى وأصحابه عنده : « لا إله إلا الله » قد عرفناه ، فما « سبحان الله » ؟ فقال له على : كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها ، وأحبّ أن تُقال .

وقوله تعالى " قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم " قال مجاهد : اسم الحمامة والغراب واسم كل شىء . ورُوى عن سعيد بن جُبير والحسن وقتادة نحو ذلك . فلما ظهر فضلُ آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء "قال" الله تعالى للملائكة " ألم أقل لكم إنى أعلم غيبَ السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون" أى : ألم أتقدّم إليكم أنى أعلم الغيبَ الظاهرَ والخفى . كما قال تعالى : ﴿ وإنْ تَجهرْ بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى ﴾ . وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان : ﴿ ألاّ يسجدوا لله الذى

يُخرج الخبْءَ فى السموات والأرض ويعلم ما تُخفون وما تُعلنون * الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم ﴾ . وقال ابن جرير معنى قوله " وأعلم ما تبدون " : وأعلم – مع علمى غيبَ السموات والأرض – ما تظهرون بألسنتكم " وما كنتم تكتمون" : ما كنتم تخفونه فى أنفسكم ، فلا يخفى علىّ شىء ، سواءٌ عندى سرائرُكم وعلانيتكم . والذى أظهروه بألسنتهم : قولهم " أتجعل فيها من يفسد فيها " . والذى كانوا يكتمونه : ما كان منطوياً عليه إبليسُ من الخلاف على الله فى أمره والتكبر عن طاعته . قال : وصح ذلك كما تقول العرب : قُتل الجيش وهُزموا ، وإنما قُتل الواحدُ أو البعض وهُزِم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه أو المقتول مخرَج الخبر عن جميعهم . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ ، ذُكر أن الذى نادَى إنما كان واحداً من بنى تميم . قال : وكذلك قوله : " وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون " .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٣٤)

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم ، امتنّ بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم . وقد دل على ذلك أيضاً أحاديث كثيرة . منها حديث الشفاعة المتقدّم ، وحديث موسى عليه السلام : « رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال : أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » ؟ وذكر الحديث ؛ كما سيأتى إن شاء الله .

والغرض : أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليسُ فى خطابهم ، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وترسّم بأفعالهم ، فلهذا دخل فى الخطاب لهم ، وذُمَّ فى مخالفة الأمر . وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله ﴿ إلا إبليسَ كان من الجنّ ففسقَ عن أمر ربه ﴾[1] . وقال قتادة فى قوله تعالى "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" : فكانت الطاعةُ لله

(١) الآية : ٥٠ من سورة الكهف .

والسجدةُ لآدم ، أكرم الله آدمَ أنْ أسجد له ملائكته . وقال بعض الناس : كان هذا سجودَ تحية وسلام وإكرام ، كما قال تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش وَخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًّا ﴾ . وقد كان هذا مشروعاً فى الأمم الماضية ، ولكنه نسخ فى ملتنا . وقال قتادةُ فى قوله تعالى "فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين" — : حسد عدوّ الله إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال : أنا نارىّ وهذا طينىّ . وكان بدءُ الذنوب الكبرَ ، استكبرَ عدوّ الله أن يسجدَ لآدمَ عليه السلام .

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٣٦)

يقول الله تعالى — إخباراً عما أكرم به آدم بعدَ أنْ أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس — أنه أباحهُ الجنةَ ، يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء " رغداً " أى : هنيئاً واسعاً طيباً . وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبى ذر ، قال : « قلت يا رسول الله ، أرأيتَ آدمَ ، أنبيًّا كان ؟ قال : نعم نبيًّا رسولاً كلمه الله قِبَلاً ، فقال : "اسكنْ أنتَ وزوجك الجنة" »[1] .

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٥١ ، ونسبه للطبرانى وأبى الشيخ فى العظمة وابن مردويه . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ : ١٩٨ ، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وأحمد بنحوه فى حديث طويل ، وفيه المسعودى ، وقد اختلط » . والظاهر أن لفظ الطبرانى مثل لفظ ابن مردويه الذى هنا . ولم يكشف لنا الهيثمى عن إسناده . أما رواية أحمد ، فذاك حديث آخر طويل ، فى المسند ٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ (حلبى) ، عن أبى ذر . وفيه « قلت : يا رسول الله ، أى الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت : ونبى كان ؟ قال : نعم ، نبى مكلم . . . » . وهذا المطول ذكره الهيثمى فى الزوائد ١ : ١٥٩ – ١٦٠ ، و ٨ : ٢١٠ ، ونسبه لأحمد ، وأعله باختلاط المسعودى . وهذا تعليل غير جيد ، فإن أحمد رواه أولا عن وكيع عن المسعودى ، ثم رواه ثانياً عن يزيد بن هرون عن المسعودى . والمسعودى : ثقة ، ولكنه تغير قبل موته بسنة أو سنتين . وقد صرح أحمد — كما فى التهذيب — بأن سماع وكيع منه قديم ، يعنى قبل تغيره .

وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم : أهى فى السماء أو فى الأرض ؟ فالأكثرون على الأول . وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف ، إن شاء الله تعالى . وسياق الآية يقتضى أن حوّاء خُلقت قبل دخول آدمَ الجنة . ويقال إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة .

وأما قوله "ولا تقربا هذه الشجرة "فهو اختبارٌ من الله تعالى وامتحانٌ لآدم . وقد اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟ [وذكر المؤلف الحافظ هنا الأقوال فى ذلك . ثم قال] :

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إنّ الله عز وجل ثناؤه نَهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، فأكلا منها . ولا علم عندنا بأىّ شجرة كانت على التعيين ، لأنّ الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة . وقد قيل: كانت شجرة البرّ ، وقيل : كانت شجرة العنب ، وقيل : كانت شجرة التين . وجائز أن تكون واحدة منها . وذلك علم إذا عُلم لم يَنفع العالمَ به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضرّه جهله به . والله أعلم .

وقوله تعالى "فأزلهما الشيطان عنها" يصح أن يكون الضمير فى قوله "عنها" عائداً إلى الجنة . فيكون معنى الكلام كما قال عاصم بن بَهْدَلة ، وهو ابن أبى النجود "فأزلهما" أى : فنحاهما . ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورَين وهو الشجرة ، فيكون معنى الكلام — : فأزلهما ، أى : من قَبيل الزّلل . فعلى

وهذا المعنى — سؤال أبى ذر عن آدم — رواه أيضاً أحمد فى المسند ٥ : ٢٦٥ — ٢٦٦ (حلبى) من حديث أبى أمامة الباهلى ، مطولا . وفى إسناده على بن يزيد الألهانى ، وهو ضعيف . ولكن رواه الحاكم ٢ : ٢٦٢ ، مختصراً ، عن أبى أمامة : « أن رجلا قال: يا رسول الله ، أنبى كان آدم ؟ قال : نعم ، معلم مكلم . . . » . وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى . وهو كما قالا .

وقوله فى الحديث — هنا — « قبلا » : هو بكسر القاف وفتح الباء ، ويجوز فتحهما وضمهما ، أى : « عياناً ومقابلة ، لا من وراء حجاب ، ومن غير أن يولى أمره أو كلامه أحداً من ملائكته » ، كما قال ابن الأثير .

وسيذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الروايات وغيرها ، فيما سيأتى فى تفسير الآية : ١٦٣ من سورة النساء . ولعلنا نشير لذلك هناك ، إن شاء الله .

هذا يكون تقدير الكلام "فأزلهما الشيطان عنها" أى : بسببها . كما قال : ﴿ يُؤْفك عنه من أفكَ ﴾ ، أى : يُصرف بسببه من هو مأفوك . ولهذا قال تعالى : "فأخرجهما مما كانا فيه" أى : من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنىّ والراحة . "وقلنا اهبطوا بعضُكم لبعض عدوّ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين" أى : قرار وأرزاق وآجال "إلى حين" أى : إلى وقت مُؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت فيه الشمس يومُ الجمعة ، فيه خُلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » . رواه مسلم والنسائى [١] .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٣٧)

قيل : إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى : ﴿ قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ . وعن ابن عباس : « "فتلقى آدم من ربه كلمات" قال : أى ربّ ، ألم تخلقنى بيدك ؟ قال : بلى ، قال : أى ربّ ، ألم تنفخ فىّ من روحك ؟ قال : بلى ، قال : أرأيتَ إن تبتُ وأصلحتُ أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : بلى» . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه [٢] . وقوله تعالى "إنه هو التواب الرحيم" أى : أنه يتوب على من تاب إليه وأناب . كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ . وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ . وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ . وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب . وهذا من لطفه بخلقه ، ورحمته بعبيده ، لا إله إلا هو التوّاب الرحيم .

---

(١) وقد دأب الكتاب والأدباء فى عصرنا هذا على فرية أن آدم عليه السلام خدعته حواء حتى أكل من الشجرة ! ! يصطنعون قول الكاذبين المفترين من أهل الكتاب ، بما حرفوا وكذبوا . ثم اجترؤا واجترأت الصحف الماجنة والمجلات الداعرة ، على السخرية بآدم وحواء ، وتصويرهما فى صور قبيحة منكرة ، جرأة منهم على الدين ، واستهزاء بأول النبيين . وما كان لمسلم أن يفعل هذا أو يقوله . أعاذنا الله مما يقولون ويصنعون .

(٢) هذا الحديث ذكره ابن كثير من رواية ضعيفة من روايات السدى ، بنحو هذا ، ثم نسبه للحاكم . فحررت لفظه من رواية الحاكم فى المستدرك ٢ : ٥٤٥ ، بشىء من الاختصار . وقد وافقه الذهبى على تصحيحه .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَـٰتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (٣٩)

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس ، حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل . "فمن تَبع هداى" أى : من أقبل على ما أنزلتُ به الكتبَ وأرسلتُ به الرسلَ "فلا خوف عليهم" أى : فيما يستقبلون من أمر الآخرة "ولاهم يحزنون" على ما فاتهم من أمور الدنيا . كما قال فى سورة طه : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداىَ فلا يَضلّ ولا يشقى ﴾ . قال ابن عباس : فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . ﴿ ومَن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضَنْكاً ونحشره يومَ القيامة أعمى ﴾ . كما قال ههنا "والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" أى : مخلدون فيها ، لا مَحيد لهم عنها ولا مَحيص . وقد روى ابن جرير عن أبى سعيد — واسمه سعد بن مالك بن سنان — الخدرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكنّ أقواماً أصابتهم النارُ بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتتهم إماتةً حتى إذا صاروا فحماً أُذن فى الشفاعة » . ورواه مسلم(١) .

﴿ يَـٰبَنِى إِسْرَٰءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٤٠) وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلاَ تَشْتَرُوا بِئَايَـٰتِى ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَاتَّقُونِ ﴾ (٤١)

يقول تعالى آمراً بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل ، وهو نبى الله

(١) هذا لفظ الطبرى : ٧٩٧ . وهو فى صحيح مسلم ١ : ٦٧ – ٦٨ ، بأطول من هذا . وفصلنا تخريجه فى الطبرى .

يعقوب عليه السلام . وتقديره : يا بنى العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق . كما تقول : يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ذريةَ مَن حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ . فإسرائيل : هو يعقوب ، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى عن عبد الله بن عباس ، قال : « حضرت عصابة من اليهود نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهدْ » . وقوله تعالى "اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم" قال مجاهد: نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمّى وفيما سوى ذلك : فجّر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون . وقال أبو العالية : نعمته : أنْ جعل منهم الأنبياءَ والرسل وأنزل عليهم الكتب . قلت : وهذا كقول موسى عليه السلام لهم : ﴿ يا قوم اذكروا نعمةَ الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤْت أحداً من العالمين ﴾ . يعنى فى زمانهم . "وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم" قال ابن عباس : بعهدى الذى أخذتُ فى أعناقكم للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم إذْ جاءكم — أنجزْ لكم ما وعدتُكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم . وقال أبو العالية : عهدُه إلى عباده دينَه الإسلام وأن يتبعوه . وقوله تعالى "وإياى فارهبون" أى : فاخشوْن . وقال ابن عباس : أى : أنزل بكم ما أنزلتُ بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم ، من المسخ وغيره . وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ، والاتعاظ بالقرآن وزواجره ، وامتثال أوامره وتصديق أخباره ، والله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم . ولهذا قال "وآمنوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكم" يعنى به القرآن الذى أنزله على محمد النبى الأمى العربى بشيراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً ، مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . وقوله "ولا تكونوا أول كافر به" .

قال ابن عباس : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . وقال أبو العالية : يقول : ولا تكونوا أولَ من كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وكذا قال الحسن والسدى والربيع بن أنس . واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله "به" عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله " بما أنزلت " . وكلا القولين صحيح ، لأنهما متلازمان ، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ، ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن . وأما قوله " أول كافر به " فيعنى به : أولَ من كفر به من بنى إسرائيل ، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشرٌ كثير . وإنما المراد : أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة ، فإن يهودَ المدينة أولُ بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أولُ من كفر به من جنسهم . وقوله " ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً " يقول : لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية . وقوله " وإياى فاتقون" روى ابن أبى حاتم ، عن طلق بن حبيب ، قال : التقوى : أن تعمل بطاعة الله رجاءَ رحمة الله على نور من الله ، والتقوى : أن تترك معصيةَ الله مخافة عذاب الله على نور من الله(١) . ومعنى قوله " وإياى فاتقون " : أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى — ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيسهم الحقّ بالباطل وتمويهه به ، وكتمانهم الحقّ وإظهارهم الباطل — : " ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون " فنهاهم عن الشيئين معاً ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به . ولهذا قال ابن عباس " تلبسوا " : تخلطوا ، وقال : " وتكتموا الحق وأنتم تعلمون " أى : لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به ،

(١) طلق بن حبيب العنزى : تابعى ثقة . كان من أعبد أهل زمانه . مترجم فى التهذيب . وترجمه أبو نعيم فى الحلية ٣ : ٦٣ – ٦٦ . وروى معنى قوله هذا ، نحوه .

وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم . قلت : "وتكتموا" يحتمل أن يكون مجزوماً ، ويحتمل أن يكون منصوباً ، أى : لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمكَ وتشربَ اللبن .

" وأقيموا الصلاة " قال مقاتل: أمرهم أن يصلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم " وآتوا الزكاة " أمرهم أن يؤتوا الزكاة ، أى: يدفعوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم " واركعوا مع الراكعين" أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول : كونوا منهم ومعهم . وقوله تعالى "واركعوا مع الراكعين" أى : وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم ، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدل كثيرٌ من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة . وأبسط ذلك فى كتاب « الأحكام الكبير » ، إن شاء الله تعالى .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشرَ أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبرّ — وهو جماع الخير — أن تَنسوْا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر فى أوامر الله ؟ ! أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتَنَبَّهوا من رقدتكم ، وتَبَصَّروا من عَمايتكم؟ ! وعن قتادة فى قوله " أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم " قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبرّ ، ويخالفون ، فعيرهم الله عز وجل بذلك . فمن أمر بخير فليكن أشدّ الناس فيه مسارعة . وقال ابن عباس "وتنسون أنفسكم " أى: تتركون أنفسكم " وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون " أى : تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوّة والعهد من التوراة ، وتتركون أنفسكم ، أى : وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى وتنقضون ميثاقى وتجحدون ما تعلمون من كتابى . وروى الطبرى عن أبى الدرداء قال : لا يَفقه

الرجلُ كلَّ الفقه حتى يمقتَ الناس فى ذات الله ، ثم يرجعَ إلى نفسه فيكونَ لها أشدَّ مقتاً(١).

والغرض : أنَّ الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ، ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه . وليس المرادُ ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلفَ عنهم . كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أنيب﴾ . فكلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجبٌ ، ولا يسقط أحدهما بترك الآخر ، على أصح قولى العلماء من السلف والخلف . وذهب بعضهم إلى أنَّ مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها . وهذا ضعيف . وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية ، فإنه لا حجة لهم فيها . والصحيح : أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه . ولكنه والحالةُ هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية ، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة . فإنه ليس من يَعلم كمن لا يعلم . ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك . فروى الطبرانى فى الكبير عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَثلُ العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به ، كمثل السرَاج ، يُضىء للناس ويُحرق نفسه» . هذا حديث غريب من هذا الوجه(٢). وروى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مررتُ ليلةَ أسرىَ بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار ، قال : قلت : مَن هؤلاء ؟ قالوا : خطباءُ أمتك من أهل الدنيا ،

---

(١) الطبرى رقم : ٨٤٦ . ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات ، ص : ٢١٠ . وتخريجه فصلناه فى الطبرى .

(٢) هو جزء من حديث ذكره الهيثمى فى الزوائد ١ : ١٨٤ — ١٨٥ . وقال : «رواه الطبرانى فى الكبير . ورجاله موثقون» . ثم ذكر نحوه ٦ : ٢٣١ — ٢٣٢ ، من رواية الطبرانى ، من وجهين آخرين فيهما مقال .

ممن كانوا يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون ».
ورواه عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره ، وابن مردويه [١] . وروى الإمام أحمد عن أبى وائل ، قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألاَ تكلم عثمان ؟ فقال : إنكم تُرون أنى لا أكلمه إلاّ أسمعكم ! إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه ما دونَ أن أفتتح أمراً لا أحبّ أن أكون أوّلَ من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإنْ كان علىّ أميراً – بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : « يجاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلقُ به أقتابه ، فيدورُ بها فى النار كما يدورُ الحمار برحاه ، فيطيف به أهلُ النار ، فيقولون : يا فلان ، ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرُنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » . ورواه البخارى ومسلم [٢] .

﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (٤٦) ﴾

يقول تعالى آمراً عبيدَه – فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة – بالاستعانة بالصبر والصلاة . كما قال مقاتل فى تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة . فأما "الصبر" فقيل : إنه الصيام ، نصّ عليه مجاهد . وعن جُرَىّ بن كليبْ ، عن رجل من بنى سُليم ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الصومُ نصْفُ الصبر » [٣] . وقيل : المراد بالصبر الكفّ عن المعاصى ، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاةُ . وروى ابن أبى حاتم

---

(١) مسند أحمد : ٢٢٢٣٧ (٣ : ١٢٠ حلبى) . وبنحوه رواه ابن حبان فى صحيحه ، رقم : ٥٢ بتحقيقنا . وفصلنا تخريجه هناك .

(٢) هو فى المسند ٥ : ٢٠٥ (حلبى) .

(٣) لم يخرجه المؤلف الحافظ . وقد رواه أحمد فى المسند ، فى حديث ٤ : ١٦٠ ، و ٥ : ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ (حلبى) . ورواه الدارمى ١ : ١٦٧ . والترمذى ٤ : ٢٦٥ ، وقال : « حديث حسن » .
و « جرى – بضم الجيم وفتح الراء وتشديد الياء – بن كليب السدوسى البصرى » : تابعى ثقة . مترجم فى التهذيب . والكبير للبخارى ١/٢/٢٤٢ – ٢٤٣ .

عن عمر بن الخطاب قال : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسنٌ ، وأحسن منه الصبرُ عن محارم الله[١] . وأما قوله "والصلاة" فإن الصلاة من أكبر العوْن على الثبات فى الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ اتل ما أوحىَ إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكرُ الله أكبر ﴾ الآية . وروى أحمد عن حُذيفة بن اليمان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمرٌ صلّى » . ورواه أبو داود . وقد رواه ابن جرير بلفظ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة »[٢] . وروى محمد بن نصر المرْوَزى فى كتاب الصلاة عن حذيفة قال : « رجعتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلةَ الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى ، وكان إذا حَزَبه أمر صلى » . وعن على قال : « لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم ، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويدعو حتى أصبح »[٣] . وروى ابن جرير : أن ابن عباس نُعى إليه أخوه قُثَم وهو فى سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته ، وهو يقول : "واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"[٤] .

والضمير فى قوله "وإنها" عائدٌ إلى الصلاة . نصّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على مادل عليه الكلام ، وهو الوصية بذلك ، كقوله تعالى فى قصة قارون : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم * وما يُلقاها إلا الذين صبروا ، وما يُلقاها إلا ذُو حظّ عظيم ﴾ . أى : وما يلقى هذه الوصيةَ إلا الذين صبروا ، وما يلقاها — أى : يُؤتاها ويُلهمها —

(١) رجاله ثقات . ولكن فيه انقطاع بين إسحق بن سليمان وأبى سنان ، وهو يزيد بن أمية الدؤلى ، أحد كبار التابعين .

(٢) الحديث باللفظين رواه الطبرى : ٨٤٩ ، ٨٥٠ . وفصلنا تخريجه هناك . ورواية أحمد هى فى المسند ٥ : ٣٨٨ (حلبى) . ورواية أبى داود هى فى السنن : ١٣١٩ .

(٣) هذا الحديث والذى قبله ليسا فى مخطوطة الأزهر . وإسناداهما صحيحان .

(٤) هو فى الطبرى : ٨٥٢ . وإسناده صحيح .

إلا ذو حظ عظيم . وعلى كل تقدير فقوله تعالى "وإنها لكبيرة" أى : مشقة ثقيلة " إلا على الخاشعين" أى الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده . وهذا يشبه ما جاء فى الحديث : « لقد سألتَ عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه » .

وقال ابن جرير : معنى الآية : واستعينوا — أيها الأحبارُ من أهل الكتاب — بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقرّبة من مَرَاضى الله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته ، المتذللين من مخافته . هكذا قال . والظاهر : أن الآية — وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل — فإنهم لم يُقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هى عامة لهم ولغيرهم . والله أعلم .

وقوله تعالى " الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون" — هذا من تمام الكلام الذى قبله ، أى : وإنّ الصلاة أو الوَصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، أى : محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ، وأنهم إليه راجعون ، أى : أمورهم راجعةٌ إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله . فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعلُ الطاعات وتركُ المنكرات . فأما قوله "يظنون أنهم ملاقوا ربهم" — فقال ابن جرير : العرب قد تسمى اليقينَ ظنًّا ، والشك ظنًّا ، نظير تسميتهم الظلمةَ سُدفةً والضياءَ سدفةً ، والمغيثَ صارخاً والمستغيث صارخاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضدّه .

قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أنّ الظن فى معنى اليقين — أكثرُ من أن تُحصر . ومنه قول الله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النارَ فظنوا أنهم مُوَاقعوها ﴾ . وروى ابن جرير عن مجاهد : كل ظنّ فى القرآن يقين ، أى « ظننت » و « ظنوا » . وروى عنه أيضاً قال : كل ظن فى القرآن فهو علم . وسنده صحيح . وفى الصحيح : « أنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم

أزوّجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذَرْكَ تَرْأس وتَرْبع ؟ فيقول : بلى ، فيقول الله تعالى : أظننتَ أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول الله : اليوم أنساك كما نسيتنى » . وسيأتى مبسوطاً عند قوله تعالى : ﴿ نَسوا اللهَ فنسيهم﴾. إن شاء الله تعالى[١] .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤٧)

يُذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضّلهم به — من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم — على سائر الأمم من أهل زمانهم . كما قال تعالى : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمةَ الله عليكم إذْ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤْت أحداً من العالمين﴾ . قال أبو العالية فى قوله تعالى "وأنى فضلتكم على العالمين" قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم مَن كان فى ذلك الزمان ، فإنّ لكل زمان عالماً . ورُوى عن مجاهد وقتادة نحوُ ذلك . ويجب الحمل على هذا ، لأنّ هذه الأمةَ أفضلُ منهم ، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : ﴿ كنتم خيرَ أمة أخرجتْ للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ . وفى المسانيد والسنن عن معاوية بن حَيْدَة القشيرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم تُوفُون سبعين أمةً ،أنتم خيرُها وأكرمها على الله »[٢] . والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله ﴿كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس ﴾[٣] .

---

(١) لم يذكر المؤلف الحافظ شيئاً من ذلك عند تلك الآية ، وهى الآية ٦٧ من سورة التوبة .
والحديث جزء من حديث طويل ، فى صحيح مسلم ٢ : ٣٨٦ ، عن أبى هريرة . ورواه أحمد مختصراً : ١٠٣٨٣ (٢ : ٤٩٢ حلبى) .

(٢) رواه بنحوه الترمذى ٤ : ٨٢ — ٨٣ . والحاكم ٤ : ٨٤ . والطبرى—وخرجناه مفصلا هناك : ٧٦٢١ ، ٧٦٢١ ، ٧٦٢٢ .

(٣) سورة آل عمران : ١١٠ .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً ، عطفَ على ذلك التحذيرَ من حلول نقمه بهم يومَ القيامة ، فقال "واتقوا يوماً" يعنى يوم القيامة "لا تَجزى نفسٌ عن نفس شيئاً" أى : لا يغنى أحد عن أحد . كما قال : ﴿ولا تَزر وازرةٌ وزْرَ أخرى﴾ . وقال : ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه﴾ . وقال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوْا يوماً لا يَجزى والد عن ولده ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئاً﴾ . فهذه أبلغُ المقامات : أنّ كلاّ من الوالد وولده لا يغنى أحدُهما عن الآخر شيئاً . وقوله "ولا يقبل منها شفاعة" يعنى عن الكافرين . كما قال : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ . وكما قال عن أهل النار : ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ . وقوله "ولا يؤخذ منها عدل" أى : لا يُقبل منها فداءٌ . كما قال : ﴿إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ . وقال : ﴿إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ . وقال تعالى : ﴿وإنْ تَعدلْ كلّ عدل لا يؤخذ منها﴾ . وقال : ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير﴾ . فأخبر تعالى : أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافَوُا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابةُ قريب ولا شفاعةُ ذى جاه ، ولا يُقبل منهم فداءٌ ولو بملء الأرض ذهباً . كما قال تعالى : ﴿من قبل أن يأتى يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ﴾ . وقال : ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ . وقوله تعالى "ولا هم يُنصرون" أى : ولا أحد يغضبُ لهم فينصرَهم وينقذَهم من عذاب الله ، كما تقدم من أنه لا يَعطف عليهم ذُو قرابة ولا ذو جاه ، ولا يُقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم . كما قال : ﴿فما له من قوّة ولا ناصر﴾ . أى : أنه تعالى لا يقبل فيمن

كفر به فدية ولا شفاعةٌ ، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذٌ ، ولا يجيره منه أحدٌ. كما قال: ﴿ وهو يجير ولا يُجار عليه ﴾ . وقال: ﴿ فيومئذ لا يعذّب عذابه أحدٌ ، ولا يُوثق وثاقه أحدٌ ﴾. وقال: ﴿ مالكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ﴾. وقال : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهةً ، بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ . قال ابن جرير: وتأويل قوله " ولا هم ينصرون " يعنى : أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يُقبل منهم عدل ولا فدية . بطلتْ هنالك المحاباة ، واضمحلت الرُّشَى والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر . وصار الحكم إلى عدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها ، وبالحسنة أضعافها. وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٥٠)

يقول تعالى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم " إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب " أى : خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أى : يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب . وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلتْ بيوتَ القبط ببلاد مصر إلا بيوتَ بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل . ويقال : بل تحدث سُمّاره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروجَ رجل منهم يكون لهم به دولةٌ ورفعة . وهكذا جاء فى حديث الفتون ، كما سيأتى فى موضعه فى سورة طه إن شاء الله[1] . فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك

(١) حديث الفتون : قصة طويلة فى شأن موسى وفرعون وبنى إسرائيل . رواه النسائى فى السنن الكبرى ، والطبرى ، وابن أبى حاتم . وساقه المؤلف الحافظ بطوله ، عند تفسير قوله تعالى (وفتناك

من بنى إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاقّ الأعمال وأرذلها . وههنا فُسر العذاب بذبح الأبناء ، وفى سورة إبرهيم عُطف عليه ، كما قال : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ . وسيأتى تفصيل ذلك فى أول سورة القصص ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة والمعونة والتأييد .

و " فرعون " : علم على كل من مَلك مصرَ كافراً من العماليق وغيرهم . كما أنّ « قيصر » علم على كل من مَلك الروم مع الشام كافراً . و « كسرى » لكل مَن ملك الفرس . و « تبع » لمن مَلك اليمن كافراً .

وقوله تعالى " وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم " قال ابن جرير : وفى الذى فعلنا بكم — من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون — بلاءٌ لكم من ربكم عظيم ، أى : نعمة عظيمة عليكم فى ذلك . وأصل "البلاء" الاختبار ، وقد يكون بالخير والشرّ . كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنةً ﴾ . وقال : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . قال ابن جرير : وأكثر ما يقال فى الشرّ « بلوته أبلوه بلاءً » وفى الخير [أبليته] أبليه إبلاء وبلاءً (١) . قال زهير بن أبى سُلمى :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يبلو

قال : فجمع بين اللغتين ، لأنه أراد : فأنعم الله عليهما خيرَ النعم التى يختبر بها عباده .

وقوله تعالى "وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون" معناه : وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام ،

فتوناً) — فى الآية ٤٠ من سورة طه — ثم قال هناك : « وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه . وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الاسرائيليات ، عن كعب الأحبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً » .

وقد أعرضت عن هذه القصة — فيما أعرضت عنه من الإسرائيليات — فلا أثبتها هناك إن شاء الله ، لتحقق أنها من الإسرائيليات . على ما رسمت فى هذا الكتاب . والحافظ المؤلف رحمه الله أشار إليها فى مواضع من تفسيره . فلن أذكر شيئاً من إشاراته ، إن شاء الله ، إلا ما اضطررت إليه . وبالله التوفيق .

(١) الزيادة من الطبرى ، تماماً للنص ، وليصح بها المعنى .

خرج فرعونُ فى طلبكم ، ففرقنا بكم البحر . كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً ، كما سيأتى فى مواضعه ، ومن أبسطها فى سورة الشعراء . " فأنجيناكم " أى : خلصناكم منهم ، وحجزنا بينكم وبينهم ، وأغرقناهم وأنتم تنظرون ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم ، وأبلغَ فى إهانة عدوكم . وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء ، كما روى أحمد عن ابن عباس ، قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ، فرأى اليهود يصومون يومَ عاشوراء ، فقال : ما هذا اليومُ الذى تصومون ؟ قالوا : هذا يومٌ صالح ، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أحقّ بموسى منكم ، فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصومه » . ورواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه[1] .

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

يقول تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عندَ انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً ، وهى المذكورة فى الأعراف فى قوله تعالى : ﴿ وواعدْنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر ﴾ . قيل : إنها ذو القعدة بكماله وعشرٌ من ذى الحجة . وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر .

وقوله " وإذ آتينا موسى الكتاب " يعنى التوراة " والفرقان " وهو ما يَفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال " لعلكم تهتدون " . وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر ، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف . ولقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعد ما أهلكنا القرونَ الأولى بصائرَ للناس وهدًى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ .

---

(١) هو فى المسند : ٢٦٤٤ ، بتحقيقنا .

﴿ وإذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٤)

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل . قال الحسن البصرى : ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع ، حين قال الله : ﴿ ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفرْ لنا ﴾ . قال : فذلك حين يقول موسى "يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم" أى : إلى خالقكم . وفى قوله ههنا "بارئكم" تنبيهٌ على عظم جُرمهم ، أى : فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٦)

يقول تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق ، إذْ سألتم رؤيتى جهرةً عياناً ، مما لا يُستطاع لكم ولا لأمثالكم "فأخذتكم الصاعقة" نار ، "وأنتم تنظرون" . فذلك قوله "ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون" . وقال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبةً لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . وكذا قال قتادة .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥٧)

لما ذكر تعالى ما دَفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم ، فقال "وظللنا عليكم الغمام" وهو : جمع « غمامة » ، سمى بذلك لأنه يَغم السماء ، أى يواريها ويسترها . وهو السحاب الأبيض ، ظُللوا به فى التيه ليقيهم حرّ الشمس. كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس قال : ثم ظُلل عليهم فى التيه بالغمام .

وقوله " وأنزلنا عليكم المنّ " اختلفت عبارات المفسرين فى " المنّ " ما هو؟ فقال ابن عباس : كان المنّ ينزل عليهم على الأشجار فيغدُون إليه فيأكلون منه ما شاؤا . وقال مجاهد " المنّ " صمغةٌ . وقال عكرمة " المنّ " شيء أنزله الله عليهم مثل الطل يشبه الرُّبَّ الغليظ. وقال الربيع بن أنس " المنّ " شراب كان ينزل عليهم مثلُ العسل ، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه .

والغرض : أنّ عبارات المفسرين متقاربةٌ فى شرح " المنّ " ، فمنهم من فسره بالطعام ، ومنهم من فسره بالشراب . والظاهر — والله أعلم — أنه كل ما امتنّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك ، مما ليس لهم فيه عمل ولا كدّ . فالمنّ المشهور إن أُكلَ وحدَه كان طعاماً وحلاوةً ، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً ، وإن رُكب مع غيره صار نوعاً آخر . ولكن ليس هو المرادَ من الآية وحده . والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن سعيد بن زيد ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الكمأةُ من المنّ ، وماؤها شفاءٌ للعين » . ورواه الإمام أحمد والجماعةُ إلا أبا داود . وقال الترمذى : حسن صحيح[1] . وروى الترمذى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العجوة من الجنة ، وفيها شفاءٌ من السم ، والكمأة من المنّ ، وماؤها شفاءٌ للعين » . تفرّد بإخراجه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه من حديث محمد بن عمرو إلاّ من حديث سعيد بن عامر[2] . [ثم خرجه المؤلف الحافظ ، من روايات الترمذى والنسائى وابن ماجة ، من طريق شهر بن حوشب عن أبى هريرة . وهو فى المسند من رواية شهر مراراً ، منها : ٧٩٨٩ ، ٨٠٣٨ . ثم قال الحافظ ابن كثير] : وهذه الطريق منقطعة بين شَهْر بن حَوْشب وأبى هريرة ، فإنه لم يسمعه منه[3] . بدليل ما رواه النسائى

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ .

(٢) هو فى الترمذى ٣ : ١٦٩ — ١٧٠ . وإسناده صحيح . و « سعيد بن عامر » : ثقة مأمون ، كما قال ابن معين .

(٣) فى المطبوعة « لم يسمع منه » ! وهو خطأ صححناه من المخطوطة الأزهرية . وأيضاً فإن شهر بن حوشب سمع من أبى هريرة كثيراً . وإنما يريد الحافظ ابن كثير : أنه لم يسمع منه هذا الحديث بعينه ، كما هو ظاهر .

عن شَهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن أبى هريرة ، قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يذكرون الكمأة ، وبعضهم يقول : جُدَرِىّ الأرض ، فقال : الكمأة من المنّ ، وماؤها شفاءٌ للعين »(١) . ورُوى عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر ، كما روى أحمد عن شهر بن حوشب ، عن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى ، قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الكمأة من المنّ ، وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة ، وهى شفاءٌ من السم»(٢) .
[ثم ذكر المؤلف الحافظ — هنا — روايات كثيرة لهذا الحديث ، مطولة ومختصرة ، عند النسائى وابن ماجة وابن مردويه . من رواية شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر . ومن روايته عن ابن عباس . ومن روايات أخر . ثم قال] : فقد اختلف — كما ترى — فيه على شهر بن حوشب . ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها ، وقد سمعه من بعض الصحابة ، وبلغه عن بعضهم . فإن الأسانيد إليه جيدة ، وهو لا يتعمد الكذبَ . وأصلُ الحديث محفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد .

وأما " السلوى" فقال ابن عباس : طائر شبيه بالسمانى كانوا يأكلون منه . وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما .

وقوله تعالى "كلوا من طيبات ما رزقناكم" أمرُ إباحة وإرشاد وامتنان . وقوله " وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " أى : أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا ، كما قال : ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكرُوا له ﴾ . فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات . ومن ههنا تتبين فضيلةُ أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنهم — على سائر أصحاب الأنبياء ، فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، كما كانوا معه فى أسفاره وغَزَواته ، منها عام تَبوك ، فى ذلك القيظ والحرّ الشديد والجهد ، لمَ يسألوا خرق عادة ، ولا إيجادَ أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً

(١) وهذه الرواية ثابتة أيضاً فى المسند : ٨٢٩٠ .
(٢) وهو فى المسند أيضاً : ١١٤٧٣ .

على الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم ، فجمعوا ما معهم ، فجاء قدرَ مَبْرَك الشاة ، فدعا فيه ، وأمرهم فملؤا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء ، سأل الله تعالى ، فجاءتْ سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا ، الإبل وملؤا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر . فهذا هو الأكمل فى الاتباع : المشْىُ مع قدَر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٥٩)

يقول تعالى ، لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة — التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل — وقتالِ من فيها من العماليق الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا ، فرماهم الله فى التيه عقوبةً لهم ، كما ذكره تعالى فى سورة المائدة . ولهذا كان أصحّ القولين : أن هذه البلدةَ هى بيتُ المقدس ، كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة ، وغيرهم . وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التى كتب الله لكم ولا ترتدّوا ﴾ ، الآيات . وقال آخرون : هى أريحا ، وهذا بعيد ، لأنها ليست على طريقهم ، وهم قاصدون بيتَ المقدس لا أريحا . والصحيح الأول : أنها بيت المقدس . ولهذا لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنةً مع يُوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشيةَ جمعة وقد حُبست لهم الشمسُ يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح . وأما أريحا فقرية ليست مقصودة لبنى إسرائيل . ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا البابَ بابَ البلد " سجداً " أى : شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال . وروَى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله " سجداً " قال : ركعاً من باب صغير . ورواه الحاكم وابن أبى حاتم . وعن عبد الله بن مسعود : قيل لهم " ادخلوا الباب سجداً " فدخلوا مقنعى رؤسهم .

أى : رافعى رؤسهم خلاف ما أمروا . وقوله "وقولوا حطة" قال ابن عباس : مغفرة ، استغفروا . وقال الحسن وقتادة ، أى : احطط عنا خطايانا . "نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين" هذا جوابُ الأمر ، أى : إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات ، وضاعفنا لكم الحسنات .

وحاصل الأمر : أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها . والشكرُ على النعمة عندها ، والمبادرةُ إلى ذلك – من المحبوب لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبحْ بحمد ربك واستغفرْه ، إنه كان تواباً ﴾ . فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر . وفسره ابن عباس بأنه نُعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها ، وأقرّه على ذلك عمر . ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك ونُعى إليه روحه الكريمة أيضاً . ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوعُ جداً عند النصر ، كما رُوى : أنه كان يوم الفتح – فتح مكة – داخلاً إليها من الثنية العليا وإنه لخاضعٌ لربه حتى إن عُثنونه ليمسّ مورك رَحله ، شكراً لله على ذلك .

وقوله تعالى "فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم" – عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله لبنى إسرائيل "ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم" فبدّلوا ، ودخلوا البابَ يزحفون على أستاههم ، فقالوا : حبة فى شعرة » . وهذا حديث صحيح ، رواه البخارى والترمذى ، وقال : حسن صحيح[١] . وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق [من الحديث][٢] : أنهم بدّلوا أمرَ الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رؤسهم ، وأمروا أن يقولوا "حطة" أى : احططْ عنا ذنوبنا ، فاستهزؤا فقالوا : حنطة فى شعيرة ! وهذا فى غاية ما يكونُ من المخالفة والمعاندة . ولهذا أنزل اللهُ

---

(١) البخارى ٦ : ٣١٢ ، و ٨ : ١٢٥ ، ٢٢٨ (فتح) . ورواه أحمد فى المسند بنحوه : ٨٠٩٥ ، ٨٢١٣ .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية .

بهم بأسه وعذابه ، بفسقهم ،وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال " فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون " قال ابن عباس : كل شيء فى كتاب الله من « الرّجز » يعنى به العذابَ . وقال أبو العالية « الرجز » : الغضب . وقال سعيد بن جُبير : هو الطاعون . وروى ابن أبى حاتم ،والنسائى ، عن سعد بن مالك وأسامةَ بن زيد وخزيمةَ بن ثابت رضى الله عنهم ، قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطاعون رجز عذاب ، عُذّب به مَن كان قبلكم » . وأصل الحديث فى الصحيحين : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها » — الحديث. وروى ابن جرير عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ هذا الوجع — أو السُّقْم — رجزٌ عُذّب به بعضُ الأمم قبلكم » . وهذا الحديث أصله مخرّج فى الصحيحين [1] .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ، فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٦٠)

يقولوا تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقانى لكم ، وتيسيرى لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يُحمل معكم ، وتفجيرى الماءَ لكم منه من ثنتى عشرة عيناً ، لكل سبط من أسباطكم عينٌ قد عرفوها ، فكلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كدّ ، واعبدوا الذى سخرّ لكم ذلك " ولا تعثوا فى الأرض مفسدين " : ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . وهذه القصةُ شبيهةٌ بالقصة التى فى سورة الأعراف . ولكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب ، لأن الله تعالى يقصّ ذلك على رسوله عما فعل بهم . وأما فى هذه السورة — وهى البقرة — فإنها مدنية ، فلهذا كان الخطابُ متوجهاً إليهم . وأخبر هناك بقوله :

---

(١) الطبرى : ١٠٣٦ . والحديث رواه أحمد فى المسند ، بنحوه مطولا ٥ : ٢٠٧ — ٢٠٨ ، ٢٠٩ (حلبى) .

﴿ فانبجستْ منه اثنتا عشرةَ عيناً ﴾ . وهو أول الانفجار . وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً ، وهو الانفجار ، فناسب ذكر هذا ههنا ، وذاك هناك . والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً ، واذكروا دَبَرَكم وضَجرَكم مما رزقتكم ، وسؤالكم موسى استبدالَ ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتم ! وقال الحسن البصرى : فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه ، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وفوم ، فقالوا "يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها" . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة . وأما " الفوم " فقد اختلف السلفُ فى معناه : فوقع فى قراءة ابن مسعود " وثومها " بالثاء ، وكذا فسره مجاهد والربيع بن أنس وسعيد بن جبير . وقال ابن جرير : فإن كان ذلك صحيحاً فإنه من الحروف المبدلة ، كقولهم : « وقعوا فى عاثور شرّ وعافور شر ، وأثافىّ وأثاثىّ ، ومغافير ومغاثير » ، وأشباه ذلك مما تُقلب الفاءُ ثاءً والثاءُ فاءً ، لتقارب مخرجيهما . والله أعلم . وقال آخرون " الفوم " الحنطة ، وهو البرّ الذى يُعمل منه الخبز .

وروى ابنُ جرير عن ابن عباس قال " الفوم" الحنطةُ بلسان بنى هاشم . قالوا : وفى اللغة القديمة : « فَوِّمُوا لنا » . يعنى : اختبزوا[1] . وقال البخارى : وقال : بعضُهم : الحبوبُ التى تؤكل كلها فُوم .

وقوله تعالى "قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير" فيه تقريعٌ

(١) هذه الجملة أثبتت فى الأصول قبل كلام ابن جرير فى تبادل الفاء والثاء . وليس ذاك بموضع لها ، فقد يضطرب القارىء فى معناها . وإنما موضعها الحق هنا ، فنقلناها إليه .

لهم وتوبيخٌ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيّة ، مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنىّ الطيب النافع .

وقوله تعالى " اهبطوا مصراً " هكذا هو منوَّن مصروفٌ ، مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية . وهو قراءةُ الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءةَ بغير ذلك ، لإجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عباس " اهبطوا مصراً " من الأمصار . رواه ابن أبى حاتم عنه . وقال ابن جرير : وقع فى قراءة أبىّ بن كعب وابن مسعود " اهبطوا مصرَ " من غير إجراء . يعنى : من غير صرف . ثم روى عن أبى العالية والربيع بن أنس : أنهما فسرا ذلك بمصرَ فرعون . وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المرادُ مصرَ فرعون على قراءة الإجراء أيضاً ، ويكون ذلك من الاتّباع لكتابة المصحف ، كما فى قوله تعالى : ﴿قواريرَا قواريرَا﴾ . ثم توقف فى المرادِ ما هو : أمصرُ فرعون أو مصرٌ من الأمصار ؟ وهذا الذى قاله فيه نظر . والحق : أنّ المراد مصر من الأمصار ، كما رُوى عن ابن عباس وغيره . والمعنى على ذلك ، لأنّ موسى عليه السلام يقول لهم : هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير فى أىّ بلد دخلتموه وجدتموه ، فليس يساوى – مع دناءته وكثرته فى الأمصار – أن أسأل الله فيه . ولهذا قال " أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم " أى : ما طلبتم . ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشَر ، ولا ضرورية فيه – لم يُجابوا إليه . والله أعلم .

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٦١)

يقول تعالى : " وضُربت عليهم الذلة والمسكنة " أى : وُضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقَدَراً . أى : لايزالون مُستذَلّين ، مَن وَجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصَّغار ، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاءُ مستكينون . قال الحسن :

أذلهم الله فلا مَنعة لهم ، وجعلهم تحتَ أقدام المسلمين . ولقد أدركتهم هذه الآيةُ وإنّ المجوس لتجبيهم الجزية . وقوله " وباؤا بغضب من الله " قال الضحاك : استحقّوا الغضبَ من الله . وقال ابن جرير : يعنى بقوله " وباؤا بغضب من الله " — انصرفوا ورجعوا . ولا يقال « باءَ » إلا موصولاً : إما بخير وإما بشرّ . يقال منه « باءَ فلانٌ بذنبه يبوءُ به بَوْءاً وَبواءً » . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنى أريد أن تَبوء بإثمى وإثمك ﴾ ، يعنى تنصرفَ متحمّلهما ، وترجع بهما ، قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام إذاً : رجعوا منصرفين متحملين غضبَ الله ، قد صارعليهم من الله غضبٌ ، ووجب عليهم منه سخط .

وقوله "ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق " يقول تعالى : هذا الذى جازيناهم به — من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم — بسبب استكبارهم عن اتّباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع — وهم الأنبياء وأتباعهم — فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفرأعظم من هذا : أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الحق . ولهذا جاء فى الحديث المتفق على صحته ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكبر بطرُ الحقّ وغمطُ الناس » . وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : « كنتُ لا أحجب عن النَّجْوى ، ولا عن كذا ولا عن كذا ، فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده مالكُ بن مُرَارة الرَّهاوى ، فأدركته من آخر حديثه وهو يقول : يا رسول الله ، قد قُسم لى من الجمال ما ترى ، فما أحبّ أن أحداً من الناس فَضَلَنى بشرَاكين فما فوقهما ، أفليسَ ذلك هو البغىَ ؟ فقال : لا ، ليس ذلك من البغى ، ولكن البغى مَنْ بَطِرَ ، أو قال سَفِهَ الحقّ وغَمَطَ الناس »[1] . يعنى ردّ الحقّ وانتقاصَ الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم . ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم أحل الله بهم بأسه الذى لا يُرَدّ ، وكساهم ذلاً فى الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة ، جزاءً وفاقاً . وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله — يعنى ابن مسعود — أن

(١) هو فى المسند : ٣٦٤٤ ، ٤٠٥٨ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتله نبيّ أو قتل نبيًّا ، وإمامُ ضلالة ، وممثلٌ من الممثلين »[1] .

وقوله تعالى " ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون " وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به: أنهم كانوا يعصون ويعتدون . فالعصيان : فعل المناهى ، والاعتداء: المجاوزة فى حدّ المأذون فيه أو المأمور به . والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢)

لما بين تعالى حال من خالف أوامرَه ، وارتكب زواجرَه ، وتعدّى فى فعل ما لا إذن فيه، وانتهك المحارم ، وما أحَلّ بهم من النكال – نبّه تعالى على أنّ مَنْ أحسنَ من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاء الحسنى . وكذلك الأمرُ إلى قيام الساعة : كلّ من اتبع الرسولَ النبيّ الأميّ فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلّفونه . كما قال تعالى: ﴿ألا إنّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ . وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزلُ عليهمُ الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم تُوعدون﴾ .

وروى ابن أبى حاتم عن مجاهد ، قال : قال سلمان : « سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنتُ معهم – فذَكر من صلاتهم وعبادتهم – فنزلتْ " إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر " الآية »[2]. قلت : هذا لا ينافى ما رُوى عن ابن عباس "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر " – قال : فأنزل الله بعد

---

(١) المسند : ٣٨٦٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٣ : ١٧٦ . ومجمع الزوائد ١ : ١٨١ . والدر المنثور ٤ : ١٧٤ .

(٢) إسناده منقطع . مجاهد لم يسمع من سلمان الفارسى .

ذلك : ﴿ ومن يَبتغ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبلَ منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ . فإن هذا الذى قاله ابن عباس إخبارٌ عن أنه لا يَقبل من أحد طريقةً ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن بعثه بما بعثه به ، فأما قبلَ ذلك فكلّ من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدًى وسبيل نجاة .

فاليهود أتباعُ موسى عليه السلام ، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم . و « التهود » : من الهوادة ، وهى المودّة ، أو التهوّد ، وهو التوبة ، لقول موسى عليه السلام : ﴿إنا هُدْنا إليك﴾ أى : تُبنا ، فكأنهم سُمُّوا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودّتهم فى بعضهم بعضاً . فلما بُعث عيسى صلى الله عليه وجب على بنى إسرائيل اتباعُه والانقيادُ له . فأصحابه وأهل دينه هم «النصارى» ، وسمّوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم « أنصار » أيضاً ، كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ . وقيل : إنهم إنما سُمّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة . و « النصارى » : جمع « نَصْرَان » ، كنشاوَى جمع نشوان ، وسكارى جمع سكران. و يقال للمرأة « نَصْرَانة » . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم — خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق — وجب عليهم تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانكفافُ عما عنه زَجر . وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا . وسُميت أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم « مؤمنين » لكثرة إيمانهم وشدّة إيقانهم ، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغُيوب الآتية . وأما « الصابئون » فقد اختلف فيهم : فقال مجاهد : الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ، ليس لهم دين . ورُوى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك . وقال أبو العالية والسدى وإسحق بن راهويه وغيرهم: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤن الزّبور. وقال عبد الرحمن بن زيد : الصابئون أهل دين من الأديان ، كانوا بجزيرة المَوْصل يقولون : لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبىّ إلا قول لا إله إلا الله، قال : ولم يؤمنوا برسول . فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون

للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه : هؤلاء الصابئون ، يشبهونهم بهم . يعني في قول « لا إله إلا الله » . وأظهر الأقوال – والله أعلم – قولُ مجاهد ومتابعيه ووهب بن مُنبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه . ولهذا كان المشركون يَنبزُون من أسلم بـ « الصابئ » ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذْ ذاك .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴾ (٦٤)

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحدَه لا شريكَ ، له واتباع رسله ، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبلَ على رؤسهم ليقرّوا بما عُوهدوا عليه ويأخذوه بقوةٍ وحزم وامتثال . كما قال تعالى: ﴿ وإذْ نَتقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلةَ ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . فـ " الطور " هو الجبل ، كما فُسربه في الأعراف ، ونصَ على ذلك ابنُ عباس وغيرُ واحد . وهذا ظاهر . وقال الحسن في قوله "خذوا ما آتيناكم" يعني : التوراة . وقوله " بقوّة " أي : بطاعة ، بعملٍ بما فيه . " واذكروا ما فيه " يقول : اقرؤا ما في التوراة واعملوا به . وقوله " ثم توليتم من بعد ذلك " يقول تعالى: ثم بعدَ هذا الميثاق المؤكّد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه . " فلولا فضل الله عليكم ورحمته" أي : توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم " لكنتم من الخاسرين " بنقضكم ذلك الميثاقَ في الدنيا والآخرة ..

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥) فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٦)

يقول تعالى " ولقد علمتم " — يا معشر اليهود — ما حل من البأس بأهل القرية التى عصَتْ أمرَ الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذْ كان مشروعاً لهم ، فتحيَّلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبِرَك قبلَ يوم السبت ، فلما جاءتْ يومَ السبت على عادتها فى الكثرة ، نشبتْ بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت . فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهى أشبه شىء بالأناسىّ فى الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة . فكذلك أعمال هؤلاء وحيلُهم ، لما كانت مشابهةً للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم . وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف ، حيث يقول تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت ، إذْ تأتيهم حيتانهم يومَ سبتهم شرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ — القصة بكمالها . وقوله تعالى " فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين " ، قال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله كمثل ﴿ الحمار يحمل أسفاراً ﴾ . وهو قول غريبٌ خلافُ الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره . قال الله تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردةَ والخنازير وعبد الطاغوت ﴾ ، الآية . وقوله "خاسئين" يعنى : أذلةً صاغرين . [ثم نقل المؤلف الحافظ آثاراً عن بعض الصحابة والتابعين ، فى مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة ، وفى تفصيل قصتهم . ثم قال] : قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة ، بيانُ خلاف ما ذهب إليه مجاهدٌ رحمه الله — من أن مسخهم إنما كان معنويًّا لا صوريًّا . بل الصحيح : أنه معنوىّ صورىّ . والله أعلم .

وقوله تعالى " فجعلناها نكالاً " قال بعضهم : الضمير فى " فجعلناها " عائدٌ على القردة . وقيل : على الحيتان . وقيل : على العقوبة . وقيل : على القرية . حكاها ابن جرير . والصحيح : أن الضمير عائدٌ على القرية ، أى :

فجعل الله هذه القريةَ — والمرادُ أهلُها — بسبب اعتدائهم فى سبتهم "نكالا" أى : عاقبناهم عقوبةً فجعلناهم عبرة . كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ فأخذه الله نكالَ الآخرة والأولى ﴾ . وقوله " لما بين يديها وما خلفها " أى : من القرى . كما قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ . ومنه قوله تعالى : ﴿ أوَلم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ — الآية ، على أحد الأقوال . فالمراد : لما بين يديها وما خلفها من المكان .

وقوله تعالى " وموعظة للمتقين " ، قال ابن عباس : الذين مِنْ بعدهم إلى يوم القيامة ، قلت : المراد بالموعظة ههنا : الزاجر ، أى : جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله ، وما تحيّلوا به من الحيل ، فليحذر المتّقون صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم . كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارمَ الله بأدنى الحيل » . وإسناده جيد ، وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح . والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (٦٧)

يقول تعالى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ، فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة ، وبيان القاتل مَن هو ؟ بسببها ، وإحياء الله المقتولَ ، ونصّه على من قتله منهم .

[ثم ذكر ابن كثير هنا ، روايات مطولة ، فيها بسط القصة — قصة البقرة — لا تصلح للرواية ، وليست موضع الثقة ، ثم قال] :

وهذه السياقاتُ عن عَبيدة ، وأبى العالية ، والسُّدى ، وغيرهم — فيها اختلاف [مّا][1] ، والظاهر أنها مأخوذةٌ من كتب بنى إسرائيل . وهى مما يجوز نقلها ، ولكن لا نُصدق ولا نُكذب . فلهذا لا نعتمد عليها إلاّ ما وافق الحقّ عندنا . والله أعلم .

---

(١) الزيادة من الأزهرية .

﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) ﴾

أخبر تعالى عن تعنّت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيّقوا على أنفسهم ضيّق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أىّ بقرة كانت لوقعت الموقعَ عنهم ، كما قال ابن عباس وعَبيدةُ وغيرُ واحد ، ولكنهم شدّدوا فشدّد عليهم ، فقالوا " ادع لنا ربك يبين لنا ما هى " ما هذه البقرةُ وأىّ شىء صفتُها ؟ وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : لو أخذوا أدنى بقرة اكْتَفَوْا بها ، ولكنهم شدّدوا فشدّد [الله] عليهم[١] . وإسناده صحيح . وقد رواه غيرُ واحد عن ابن عباس . وقال ابن جريج : قال لى عطاء : لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم ، قال ابن جريج : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أمروا بأدنى بقرة ، ولكنهم لما شدّدوا [على أنفسهم][٢] شدد الله عليهم ، وايمُ الله ، لو أنهم لم يستثنوا ما بُيِّنتْ لهم آخرَ الأبد »[٣] .

" قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر " أى : لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلَقِّحْها[٤] الفحلُ . كما قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما . " صفراء " [أى : لونها أصفر][٥] . وعن الحسن : سوداء شديدة السواد !

---

(١) لفظ الجلالة زدياة من الأزهرية . وهو ثابت أيضاً فى الطبرى : ١٢٣٥ .

(٢) الزيادة من الأزهرية . وهى ثابتة فى الطبرى : ١٢٤٢ .

(٣) هذا الحديث — المرفوع — مرسل لا تقوم به حجة . وسيأتى معناه ، بعد قليل ، مرفوعاً من حديث أبى هريرة .

(٤) فى المخطوطة والمطبوعة « لم يلحقها » . وهو خطأ واضح ، لا معنى له .

(٥) هذه الجملة من كلامى ، مضمون ما ذكره الحافظ من الآثار .

وهذا غريب. والصحيح الأول، ولهذا أكّد صفرتَها بأنه "فاقع لونها" : صافية اللون .

وقوله " إن البقر تشابه علينا " : لكثرتها ، فميّز لنا هذه البقرةَ وصفها وحلِّها لنا "وإنا إن شاء الله" إذا بينتها لنا " لمهتدون " إليها . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا أنّ بنى إسرائيل قالوا " وإنا إن شاء الله لمهتدون" لما أُعطوا ، ولكن استَثْنَوْا» . ورواه ابن أبى حاتم — واللفظ له — وابن مردويه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسنُ أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة[١] .

"قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا ذلول تثير الأرضَ ولا تسقى الحرث " أى : إنها ليست مذلّلة بالحراثة ، ولا معَدّةً للسقى فى السانية، بل هى مكرَّمة حسناء[٢] صبيحة ، مسلَّمة صحيحة لا عيب فيها . " لا شِيَةَ فيها " أى : ليس فيها لونٌ غير لونها . " قالوا الآن جئتَ بالحق " قال قتادة : الآن بينْتَ لنا .

" فذبحوها وما كادوا يفعلون " قال ابن عباس : كادوا أن لا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذى أرادوا ، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها . يعنى : أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح — ما ذبحوها إلاّ بعد الجهد . وفى هذا ذمٌّ لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها . قال ابن جرير : وقال آخرون : لم يكادوا أن يفعلوا ذلك ، خوفَ الفضيحة إن أطْلع اللهُ على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه . ولم يسنده عن أحد . ثم اختار أن الصواب فى ذلك : أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة . وفى هذا نظر ، بل الصواب — والله أعلم — ما تقدم عن ابن عباس، على ما وجَّهناه . وبالله التوفيق.

---

(١) فى إسناده « سرور بن المغيرة ، عن عباد بن منصور » . وسرور بن المغيرة بن زاذان : تكلم فيه الأزدى . والصواب أنه ثقة . ذكره ابن حبان فى الثقات . وترجمه البخارى فى الكبير ٢/٢/٢١٧ . وابن أبى حاتم ٢/١/٣٢٥ ، فلم يذكرا فيه جرحاً . وقد ذكر الهيثمى هذا الحديث بنحوه ، مختصراً ، فى مجمع الزوائد ٦ : ٣١٤ . وقال : « رواه البزار . وفيه عباد بن منصور ، وهو ضعيف ، وبقية رجاله ثقات » . والحق أن عباد بن منصور ثقة ، ولكنه تغير حفظه أخيراً . فلعله وهم فى رفعه . ويكون الراجح وقفه على أبى هريرة ، كما قال ابن كثير هنا .

(٢) السانية — بالنون : الدلو العظيمة وأدواتها . وتطلق أيضاً على الدابة نفسها . وفى المطبوعة « الساقية» بالقاف . وفى المطبوعة أيضاً « حسنة » بدل « حسناء » . والتصويب فيهما من الأزهرية .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٣)

قال البخارى "فادارأتم فيها" : اختلفتم . وهكذا قال مجاهد . "والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون " قال مجاهد: ماتغيّبون . "فقلنا اضربوه ببعضها" هذا البعض أىّ شىء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلةٌ به وخرق العادة به كائنٌ ، وقد كان معيّناً فى نفس الأمر . فلوكان فى تعيينه لنا فائدةٌ تعود علينا فى أمر الدين والدنيا لبيّنه الله تعالى لنا ، ولكنه أبْهَمَهُ ، ولم يجىء من طريق صحيح عن المعصوم بيانُه . فنحن نُبهمه كما أبهمه الله .

وقوله "كذلك يحيي الله الموتى " أى : فضربوه فحيَ . ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل . جَعَل تبارك وتعالى ذلك الصنيعَ حجةً لهم على المعاد ، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد[١] .

واللهُ تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلَقه فى إحياء الموتى فى خمسة مواضع : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ . وهذه القصة. وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذرَ الموت . وقصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها . وقصة إبرهيم عليه السلام والطيور الأربعة . وينبِّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً ، كما روى أبو داود الطيالسى عن أبي رَزين العُقَيلى ، قال : « قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى؟ قال :أما مررتَ بوادٍ مُمْحِلٍ، ثم مررتَ به خَضِراً ؟ قال : بلى: قال : كذلك النشور ، أو قال : كذلك يحيي الله الموتى »[٢] . وشاهد هذا قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرضُ الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جناتٍ

---

(١) فى الأزهرية « والفساد » – بدل « والعناد » .

(٢) مسند الطيالسى : ١٠٨٩ . ورواه الإمام أحمد فى المسند بنحوه : ١٦٢٦١ ، ١٦٢٦٢ ، ١٦٢٦٥ . و « رزين » : بفتح الراء وكسر الزاى . وأبو رزين : هو لقيط بن صبرة ، صحابى معروف .

من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ﴾ .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

يقول تعالى توبيخاً لبنى إسرائيل ، وتقريعاً لهم على ما شهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك " كلّه " فهى كالحجارة " التى لا تلين أبداً . ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله وما نزّل من الحقّ ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمدُ فقستْ قلوبُهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ . قال العوفى — فى تفسيره — عن ابن عباس : فصارتْ قلوبُ بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة ، بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، "فهى" فى قسوتها "كالحجارة" التى لا علاجَ للينها " أو أشد قسوة " من الحجارة . فإن من الحجارة ما يتفجّر منها العيونُ الجارية بالأنهار ، ومنها ما يشقّق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله . وفيه إدراكٌ لذلك بحسبه ، كما قال : ﴿ تسبّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهنّ ، وإن من شىء إلاّ يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحَهم ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

تنبيه : اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى " فهى كالحجارة أو أشد قسوة " — بعد الإجماع على استحالة كونها للشك — : فقال بعضهم " أو " ههنا بمعنى الواو ، تقديره : فهى كالحجارة وأشدُّ قسوة . كقوله تعالى : ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ . وقال آخرون " أو " ههنا بمعنى : بل ، فتقديره : فهى كالحجارة بل أشدُّ قسوة ، وكقوله : ﴿ إذا فريق منهم يخشونَ الناسَ

كخشية الله أو أشدَّ خشية ﴾ . ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ . ﴿ فكان قابَ قوسين أو أدنى ﴾ .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكثروا الكلامَ بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةُ القلب ، وإن أبعد الناس من الله القلبُ القاسي » . رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث إبرهيم[1] .

ربع

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى " أفتطعمون " أيها المؤمنون أن يؤمن لكم ، أى : ينقاد لكم بالطاعة — هؤلاء الفرقةُ الضالةُ من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قستْ قلوبُهم من بعد ذلك " وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه" أى : يتأوّلونه على غير تأويله "من بعد ما عقلوه" أى : فهموه على الجليّة ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة " وهم يعلمون " أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً ، يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ . قال ابن زيد فى قوله " يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه " قال : التوراة التى أنزلها الله عليهم ، يحرّفونها ، يجعلون الحلالَ فيها حراماً والحرامَ فيها حلالاً ،

---

(١) الترمذى ٣ : ٢٨٩ . وإبرهيم — راويه — : هو ابن عبد الله بن الحرث بن حاطب الجمحي . ذكره ابن حبان فى الثقات، وقال : « مستقيم الحديث » . وترجمه البخارى فى الكبير ١/١/٢٩٨ — ٢٩٩ ، وذكر أن بعض رواياته مراسيل . وما هذا بجرح فيه . وترجمه ابن أبى حاتم ١/١/١١٠ ، ولم يذكر فيه جرحاً . فالحديث صحيح الإسناد .

والحق فيها باطلاً والباطلَ فيها حقّاً ، إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطلُ برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه مُحِقّ ، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حقّ ولا رشوةٌ ولا شيءٌ أمروه بالحق ، فقال الله لهم : ﴿ أتأمرون الناسَ بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

عن ابن عباس " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا " أى : أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصّة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدّثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، فأنزل الله "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم" أى : تقرّون بأنه نبيّ وقد علمتم أنه قد أُخذ له الميثاق عليكم باتّباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذى كنا ننتظر ونَجِدُ فى كتابنا ؟ ! اجحدوه ولا تقرّوا به ! يقول الله تعالى "أوَ لاَ يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون " .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى " ومنهم أميون " أى : ومن أهل الكتاب . قاله مجاهد ، "والأميون" ، جمع أميّ ، وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة . وهو ظاهر فى قوله تعالى " لا يعلمون الكتاب" أى : لا يدرون ما فيه . ولهذا فى صفات النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه أميّ » ، لأنه لم يكن يحسن الكتابة . كما قال تعالى : ﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « إنّا أمّة أميّة ، لا نكتب ولا نحسُب ، الشهر

هكذا وهكذا » — الحديث[١] . أى : لا نفتقر فى عبادتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب . وقال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾ .

قوله تعالى " إلا أمانىّ " قال ابن عباس : قولاً يقولون بأفواههم كذباً .

وقال مجاهد : إن الأميِّين الذين وصفهم الله ، أنهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزل الله على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرَّصون الكذبَ ؛ ويتخرّصون الأباطيل كذباً وزوراً . " والتمنى " فى هذا الموضع : هو تخلّق الكذب وتخرّصه . ومنه الخبرُ المروىّ عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما تغنَّيتُ ولا تمنَّيتُ . يعنى : ما تخرّصتُ الباطلَ ولا اختلقتُ الكذبَ .

وقال ابن عباس : " وإن هم إلاّ يظنون" أى : ولا يَدْرُون ما فيه ، وهم يجدون نبوّتك بالظن .

وقوله : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتّروا به ثمناً قليلاً " — الآية : هؤلاء صنف آخرُ من اليهود ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . و "الويل" الهلاكُ والدمار ، وهى كلمة مشهورة فى اللغة . وعن ابن عباس " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم " قال : هم أحبار اليهود .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : يا معشر المسلمين ، كيف تسألونَ أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل اللهُ على نبيه أحدثُ أخبارِ الله ، تقرؤنه مَحْضاً لم يُشَبْ ؟! وقد حدّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتّروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءَلتهم؟ ! ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم[٢] . وقال الحسن البصرى : الثمن القليل : الدنيا بحذافيرها . وقوله " فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما

---

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : ٥٠١٧ ، ٥١٣٧ ، من حديث ابن عمر . ورواه الشيخان أيضاً . انظر الفتح ٤ : ١٠٨ — ١٠٩ ، وصحيح مسلم ١ : ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٢) رواه البخارى فى ثلاثة مواضع ٥ : ٢١٥ ، و ١٣ : ٢٨٢ ، ٤١٤ (فتح) . وقد ذكرناه فى مقدمتنا لهذا الكتاب ، عند الكلام على الإسرائيليات ، ص : ١٩ .

يكسبون" أى : فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ، وويل لهم مما أكلوا به من السحت .

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠)

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادّعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النارُ إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها ، فردّ الله عليهم ذلك بقوله " قل أتّخذتم عند الله عهداً " أى : بذلك ؟ فإن كان قد وقَع فهو لا يُخلِف عهده . ولكن هذا ما جرَى ولا كان . ولهذا أتى بـ « أمْ » التى بمعنى : بل ، أى : بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبى هريرة ، قال : « لما فتحت خيبر أُهديتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاةٌ فيها سمّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمَعوا لى من كان من اليهود ههنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن أبوكم ؟ قالوا : فلان ، قال : كذبتم ، بل أبوكم فلان ، فقالوا : صدقتَ وبَررتْ ، ثم قال لهم : هل أنتم صادقىّ عن شىء إنْ سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذَبناك عرفتَ كذبنا كما عرفته فى أبينا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : منْ أهلُ النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلُفونا فيها ! فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخْسَئُوا ، والله لا نخلُفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، فقال : هل جعلتم فى هذه الشاة سمًّا ؟ فقالوا : نعم ، فقال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردْنا إنْ كنتَ كاذباً أن نستريحَ منك ، وإنْ كنتَ نبيًّا لم يضرّك » ورواه أحمد والبخارى والنسائى ، بنحوه[١] .

---

(١) هو فى المسند : ٩٨٢٦ .

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨٢)

يقول تعالى : ليس الأمرُ كما تمنّيتم ، ولا كما تشتهون، بل الأمر : أنه مَن عمل سيئة وأحاطتْ به خطيئتُه ، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة ، بل جميع عمله سيئات – فهذا من أهل النار . " والذين آمنوا " بالله ورسوله " وعملوا الصالحات " من العمل الموافق للشريعة – فهو من أهل الجنة . وهذا المقامُ شبيهٌ بقوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ، من يعملْ سوءاً يُجْزَ به ولا يجدْ له من دون الله وليّاً ولا نصيراً * ومن يعملْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ .

ويُذكر ههنا الحديثُ الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقّرات الذنوب ، فإنهن يجتمعنَ على الرجل حتى يهلكنَه ، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم مثلاً : كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيءُ بالعود ، والرجل يجيءُ بالعود ، حتى جمعوا سواداً، وأجّجوا ناراً ، فأنضجوا ما قذفوا فيها »[1] . وقال ابن عباس " والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون " أى : من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها . يخبرُهم أن الثوابَ بالخير والشر مقيمٌ على أهله أبداً ، لا انقطاعَ له .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٨٣)

---

(١) هو فى المسند : ٣٨١٨ . وإسناده صحيح .

يذكّر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذِه ميثاقَهم على ذلك ، وأنهم تولّوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويَذْكرونه . فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وبهذا أمر جميعَ خلقه ، ولذلك خلقهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ . وقال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمُها ، وهو حق الله تعالى أن يعبدَ وحده لا شريك له . ثم بعده حقُّ المخلوقين ، وآكدُهم وأولاهم بذلك حقُّ الوالدين ، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ أن اشكرْ لى ولوالديك إلىّ المصير﴾ . وقال تعالى: ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ ، الآية — إلى أن قال : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكينَ وابنَ السبيل ﴾ ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود : « قلت : يا رسول الله ، أىّ العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : برّ الوالدين ، قلت : ثم أىّ ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله » . ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « أنّ رجلاً قال: يا رسول الله ، مَن أبَرُّ ؟ قال : أمَّك ، قال : ثم من ؟ قال: أمك ، قال: ثم من ؟ قال : أباكَ ، ثم أدناك ثم أدناك » . قال : "واليتامى" وهم : الصغار الذين لا كاسبَ لهم من الآباء . " والمساكين" الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ ، الآية . وقوله تعالى " وقولوا للناس حسناً " أى: كلموهم طيّباً، ولِينُوا لهم جانباً . ويدخل فى ذلك الأمرُ بالمعروف والنهىُ عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصرى : فالحُسْن من القول : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسناً كما قال الله ، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ، وإن لم تجد فالْقَ أخاك بوجه منطلق » . وأخرجه مسلم، والترمذىّ وصححه .

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حُسْناً بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفى الإحسان : الفعلىّ والقولىّ . ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعيَّن من ذلك ، وهو الصلاة والزكاة فقال " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " . وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ، أى : تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه ، على عمد بعد العلم به ، إلا القليل منهم . وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء بقوله : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكتْ أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ . فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمةٌ من الأمم قبلها . ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول الله منكراً على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج . وذلك : أن الأوس والخزرج – وهم الأنصار – كانوا فى الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قَيْنُقَاع وبنو النَّضير حلفاء الخزرج ، وبنو قُريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودى أعداءه ، وقد يقتل اليهودىَّ الآخر

من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونصّ كتابه ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة . ولهذا قال تعالى " أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " . ولهذا قال تعالى "وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم " أى : لا يقتلْ بعضُكم بعضاً ولا يخرجْه من منزله ولا يظاهرْ عليه ، كما قال تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ . وذلك : أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « مثلُ المؤمنين فى توادّهم وتراحُمهم وتواصُلهم بمنزلة الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »(١) . وقوله تعالى " ثم أقررتم وأنتم تشهدون " أى : ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به " ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم" . والذى أرشدت إليه الآية الكريمة ، ذمّ اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتَها ومخالفةِ شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة(٢) . فلهذا لا يؤتَمنون على ما فيها ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومَبعثه ومخرجه ومُهَاجَره وغير ذلك من شؤونه التى أخبرتْ بها الأنبياءُ قبله .

---

(١) رواه أحمد فى المسند بنحوه ٤ : ٢٧٠ (حلبى) . وكذلك رواه مسلم ٢ : ٢٨٤ . والبخارى بنحوه ١٠ : ٣٦٧ (فتح) . وذكره الطبرى فى تفسيره : ١٤٦٣ ، معلقاً بغير إسناد .

(٢) ومما يملأ النفس ألماً وحزناً : أن صار أكثر الأمم التى تنتسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه ، ووقعوا فى مثل هذا العمل الذى ذم الله اليهود من أجله ، وجعل جزاء من يفعله خزياً فى الحياة الدنيا وردّاً فى الأخرى إلى أشد العذاب . فنرى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه ، ويزعمون القيام بأمره — ثم هم يخالفونه فى التشريع ، فى شؤونهم المالية والجنائية والخلقية ، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله فى سنته لا يوافق هذا العصر ! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤا ، وافق الكتاب والسنة أم خالفه ! ويصطنعون قوانين أوربة الوثنية الملحدة ، ويشربونها فى قلوبهم . يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم . ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم .

واليهودُ - عليهم لعائن الله - يتكاتمونه بينهم . ولهذا قال تعالى " فما جزاءُ من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا " أى : بسبب مخالفتهم شرعَ الله وأمرَه " ويومَ القيامة يردون إلى أشد العذاب " جزاءً على ما كتموه من كتاب الله الذى بأيديهم " وما الله بغافل عما يعملون[١] * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة [أى : استحبّوها على الآخرة] واختاروها[٢] " فلا يخفف عنهم العذاب " أى : لا يفتر عنهم ساعة واحدةً " ولا هم ينصرون " أى : وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ، ولا يجيرهم منه .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧)

ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتوّ والعناد والمخالفة ، والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم . فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرّفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأوّلوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبارُ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ ، الآية . ولهذا قال تعالى " وقفينا من بعده بالرسل " قال السدّى : أتبعنا ، وقال غيره : أردفنا ، والكل قريب . كما قال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ . حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم ، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام . ولهذا أعطاه الله من البينات - وهى المعجزات - ما يدلّهم به على صدقه فيما جاءهم به . فاشتدّ تكذيب بنى إسرائيل

---

(١) قراءة حفص - المعروفة والتى فى أيدى الناس فى المصاحف - « تعملون » بالتاء . ولكن سياق الكلام يدل على أن الحافظ ابن كثير يقرؤها هنا بالياء ، وهى قراءة نافع وابن كثير وغيرهما من القراء العشر . وهى ثابتة بالياء فى المخطوطة الأزهرية . وانظر النشر لابن الجزرى ٢ : ٢١١ .

(٢) الزيادة من الأزهرية .

له ، وحسدُهم وعنادهم ، لمخالفته التوراة فى البعض ، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى : ﴿ ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذى حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ﴾ ، الآية. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة ، ففريقاً يكذبون، وفريقاً يكذبونه ويقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبإلزامهم بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها . فلهذا كان يشق ذلك عليهم ، فيكذبونهم ، وربما قتلوا بعضهم . ولهذا قال تعالى " أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون " .

وروح القُدُس : هو جبريل ، كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية ، وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره ، مع قوله تعالى : ﴿ نزل به الروحُ الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ . وعن عائشة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضَع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد ، فكان ينافحُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله : اللهم أيد حسانَ بروح القدس كما نافح عن نبيك » . رواه البخارى تعليقاً ، ورواه أبو داود والترمذى [موصولاً] . وقال الترمذى : حسن صحيح . وعن أبى هريرة : « أن عمر بن الخطاب مرَّ بحسان وهو ينشد الشعرَ فى المسجد . فلحظ إليه ، فقال : قد كنتُ أنشد فيه وفيه من هو خيرٌ منك ، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال : أنشدك الله ، أسمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أجبْ عنى ، اللهم أيِّده بروح القدس ؟ فقال : اللهم نعم » . وفى بعض الروايات : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : « اهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك » .

[ثم ذكر ابن كثير أقوالا أخر فى معنى « روح القدس » — لا تقوم لها قائمة . ثم قال] : قال ابن جرير : وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قولُ من قال : الروح فى هذا الموضع جبريل ، لأن الله عز وجل أخبر أنه أيَّد عيسى به ، كما أخبر فى قوله : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم اذكرْ نعمتى عليك وعلى والدتك ؛ إذْ أيدتك بروح القدس تكلم الناسَ فى المهد وكهلاً ،

وإذْ علمتك الكتابَ والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾، الآية . فذكر أنه أيّده به ، فلو كان الروحُ الذى أيده به هو الإنجيلَ لكان قوله ﴿ إذْ أيدتك بروح القدس وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ — تكريرَ قولٍ لا معنى له . والله أعزُّ أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم . قلت : ومن الدليل على أنه جبريل : ما تقدم فى أول السياق . ولله الحمد .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨)

عن ابن عباس "غلف" أى : فى أكنة . وقال السدىّ : يقولون : عليها غلاف ، وهو الغطاء . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله "غلف" قال : يقول : قلبي فى غلاف فلا يخلُص إليه ما تقول ، وقرأ : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه ﴾ . وهذا هو الذى رجحه ابن جرير ، واستشهد بما رَوَى عن حذيفةَ ، قال : القلوب أربعة ، فذكر منها : وقلبٌ أغلفُ مغضوبٌ عليه ، وذاك قلبُ الكافر(١) . وعن ابن عباس قال : يقولون : قلوبنا غلفٌ مملوءة ، لا نحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وعلى هذا المعنى جاءت قراءةُ بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير " وقالوا قلوبنا غلف " بضم اللام . أى : جمع غلاف ، أى أوعية . بمعنى : أنهم ادّعوا أن قلوبهم مملوءةٌ بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر ، كما كانوا يمنّون بعلم التوراة . ولهذا قال تعالى "بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون " أى : ليس الأمر كما ادّعوا ، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها ، كما قال فى سورة النساء : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ . وقد اختلفوا فى معنى قوله " فقليلا ما يؤمنون " وقوله ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ . فقال بعضهم : فقليلٌ من يؤمن منهم ، وقيل : فقليل إيمانهم ، بمعنى : أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد صلى الله

---

(١) رواه الطبرى موقوفاً على حذيفة هكذا. وفى إسناده انقطاع . وقد جاء معناه مرفوعاً متصلا ، من حديث أبي سعيد الخدرى . رواه أحمد فى المسند : ١١١٤٦ ، بإسناد صحيح . وقد فصلنا تخريجه فى الطبرى : ١٤٩٧ .

عليه وسلم . وقال بعضهم : إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال " فقليلا ما يؤمنون " وهم بالجميع كافرون — كما تقول العرب : قلما رأيتُ مثلَ هذا قط . تريد : ما رأيت مثل هذا قط . حكاه ابن جرير . والله أعلم .

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ ، فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٨٩)

يقول تعالى " ولما جاءهم " يعني اليهود " كتاب من عند الله " وهو القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم "مصدق لمامعهم " يعني من التوراة ، وقوله " وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا " أي : وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيُبعث نبيّ في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرَم .

وروى محمد بن إسحق ، عن ابن عباس : « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبِشْر بن البَرَاء بن معرور وداودُ بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسْلِموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوثٌ ، وتصفونه بصفته ! فقال سَلاَّم بن مِشْكَم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم "ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم" الآية »[١].

---

(١) نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢ : ١٦١ ، في ترجمة « داود بن سلمة » — عن تفسير ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحق . ثم قال : « كذا رأيت في نسخة [يعني من تفسير ابن أبي حاتم] . ووقع في نسخة أخرى : فقال لهم معاذ وبشر بن البراء أخو بني سلمة . كذا ذكره الطبري من هذا الوجه ، فلعل الأول تصحيف » . ورواية الطبري هي في التفسير برقم : ١٥٢٠ ، وليس فيها « وداود بن سلمة » ، بل فيها — كما قال ابن حجر .— « أخو بني سلمة » . وكذلك هو في سيرة ابن هشام ٣٧٨ — ٣٧٩ (طبعة أوربة) عن ابن إسحق . فترجح جداً أن ذكر « داود بن سلمة » خطأ من بعض الناسخين . وظهر أن ابن كثير نقل الحديث من نسخة من ابن أبي حاتم وقع فيها الغلط ، كالتي رآها بعده ابن حجر .

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٩٠)

قال السدى "بئسما اشتروا به أنفسهم" يقول : باعوا به أنفسهم ، يعنى : بئس ما اعتاضُوا لأنفسهم ورَضُوا به وعدلوا إليه . وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية لـ " أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده " ولا حسد أعظم من هذا . " فباؤا بغضب على غضب " قال ابن عباس : فالغضبُ على الغضب : فغضبُه عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة وهى معهم ، وغضبٌ بكفرهم بهذا النبى الذى أحدَثَ اللهُ إليهم[١] . قلت : ومعنى " باؤا " استوجبوا واستحقّوا واستقرّوا بغضب على غضب .

وقوله " وللكافرين عذاب مهين " لما كان كفرهم سببه البغى والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر – قوبلوا بالإهانة والصَّغار فى الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . وقد روى أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ فى صُوَر الناس ، يعلوهم كل شىء من الصَّغار ، حتى يدخلوا سجناً فى جهنم يقال له بُولَس فتعلوهم نارُ الأنيار ، يُسْقَوْن من طينة الخبال ، عصارةِ أهل النار »[٢] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٩٢)

ربع

---

(١) خبر ابن عباس هذا محرف فى المطبوعة . وصححناه من المخطوطة الأزهرية . وهى موافقة للنص فى تفسير الطبرى : ١٥٤٦ .

(٢) المسند : ٦٦٧٧ . وإسناده صحيح . وقد خرجناه وشرحناه هناك . و « بولس » : بضم الباء وفتح اللام وآخره سين . كما ضبطه المنذرى فى الترغيب ٤ : ١٨ – ١٩ .

يقول تعالى " وإذا قيل لهم " أى : لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب، " آمنوا بما أنزل الله " أى : على محمد صلى الله عليه وسلم ، صدِّقوه واتبعوه " قالوا نؤمن بما أنزل علينا " أى : يكفينا الإيمانُ بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ، ولا نقرّ إلا بذلك " ويكفرون بما وراءه " يعنى : بما بعده " وهو الحقّ مصدقاً لما معهم " أى : وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم الحق . " مصدقاً " : منصوب على الحال ، أى : فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك . كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . قال تعالى "فلم تقتلون أنبياء الله من قبل" أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمانَ بما أُنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياءَ الذين جاؤكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقَهم ؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله . فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهِّى . كما قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوَى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ . وقال أبو جعفر بن جرير : قل يا محمد ليهود بنى إسرائيل — [الذين] [١] إذا قلتَ لهم : آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا — : لم تقتلون = إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم = أنبياءَه [٢] ، وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم ، بل أمركم فيه باتّباعهم وطاعتهم وتصديقهم ؟ وذلك من الله تكذيبٌ لهم فى قولهم " نؤمن بما أنزل علينا " وتعييرٌ لهم .

" ولقد جاءكم موسى بالبينات " أى : بالآيات الواضحة والدلائل القاطعة على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله . والبينات : هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفلق البحر وتظليلهم بالغمام والمنّ والسلوى والحجر ، وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها " ثم اتخذتم العجل " أى : معبوداً من

---

(١) الزيادة ضرورية ، من الطبرى ٢ : ٣٥٠ طبعتنا .

(٢) من قوله « يا معشر اليهود » إلى هنا — محرف جداً فى المطبوعة . وثبت فى الأزهرية على الصواب الموافق لنص الطبرى .

دون الله فى زمان موسى وآياته . وقوله "من بعده" أى : من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله . كما قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ ، " وأنتم ظالمون" فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله . كما قال تعالى : ﴿ ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣)

يعدد تبارك وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعتوّهم وإعراضهم عنه ، حتى رفع الطورَ عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه . ولهذا [قال] :[1] " قالوا سمعنا وعصينا " وقد تقدم تفسير ذلك " وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم " قال قتادة : أشربوا حبّه حتى خلَص ذلك إلى قلوبهم . وروى أحمد عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم: قال : « حبُّك الشىءَ يُعمى ويُصم » . ورواه أبو داود[2] .

وقوله : " قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين " أى : بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات الله ، ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد صلى الله عليه وسلم . وهذا أكبرُ ذنوبكم وأشد الأمور عليكم ، إذْ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين . فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان ، وقد فعلتم هذه الأفاعيلَ

---

(١) الزيادة من الأزهرية .

(٢) المسند ٥ : ١٩٤ ، و ٦ : ٤٥٠ (حلبى) . أبو داود : ٥١٣٠ .

القبيحة ، من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله ؟ !

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦)

عن ابن عباس ، أى : « ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين " أى : يعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك ، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودىّ إلا مات » . رواه الطبرى من طريق ابن إسحق .

وروى ابن أبى حاتم : عن ابن عباس قال : « لو تمنوا الموتَ لشَرِق أحدهم بريقه » ، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن اليهود تمنوا الموتَ لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » . ورواه الإمام أحمد[١] . وهذا الذى فسر به ابنُ عباس الآيةَ هو المتعين ، وهو الدعاء على أىّ الفريقين أكذبُ : منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة . ونقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرّون منه فإنه

(١) هو فى المسند : ٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦ . والطبرى : ١٥٦٦ .

ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . فهم –عليهم لعائن الله – لمّا زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا : لن يدخلَ الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، دُعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك علم كلّ أحدٍ أنهم ظالمون ، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا عُلم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدَ نجران من النصارى ، بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوّهم وعنادهم – إلى المباهلة، فقال تعالى : ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسَنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . فلما رأوا ذلك قال بعضُ القوم لبعض : والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عينٌ تطرف ، فعند ذلك جنحوا إلى السّلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عُبيدة بن الجراح أميناً . ومثلُ هذا المعنى أو قريبٌ منه قوله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين : ﴿ قل منْ كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدًّا ﴾ . أى : من كان فى الضلالة منّا أو منكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه ، كما سيأتى تقريره فى موضعه ، إن شاء الله[١] .

وأما من فسّر الآية على معنى " إن كنتم صادقين " أى : فى دعواكم فتمنّوا الآنَ الموت ، ولم يتعرّض هؤلاء للمباهلة ، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرُهم ، ومال إليه ابن جرير – فهذا فيه نظر . وذلك : أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل ، إذْ يقال : لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت . وكم من صالح لا يتمنّى الموت ، بل يودّ أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة ، كما جاء فى الحديث : « خيركم من طال عمره وحسن عمله »[٢] . ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحابُ الجنة ، وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ؟

---

(١) انظر تفسير الآية : ٦١ من سورة آل عمران . والآية : ٧٥ من سورة مريم .

(٢) انظر شرح الترمذى ٣ : ٢٦٤ .

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى . فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيءٌ من ذلك ، بل قيل لهم كلام نَصَفٌ : إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس وأنكم أبناءُ الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار = فباهلوا على ذلك وادْعُوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أنّ المباهلة تستأصل الكاذبَ لا محالة . فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة ، لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحقَّ من صفة الرسول صلىّ الله عليه وسلم ونعتِه ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه . فعلم كلُّ أحدٍ باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ولهذا قال تعالى " ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة " أى : على طول عُمْرٍ ، لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة ، لأن الدنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر . فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم . وما يحذرون واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرصُ من المشركين الذين لا كتاب لهم . وهذا من باب عطف الخاصّ على العامّ . روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس " ومن الذين أشركوا " قال: الأعاجم . وكذا رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . قال : وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى [١] . وقال مجاهد " يود أحدهم لو يعمر ألف سنة "، قال : حبّبَتْ إليهم الخطيئةُ طولَ العمر . وعن ابن عباس " وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر " أى : ما هو بمنحّيه من العذاب . وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طولَ الحياة ، وأن اليهودىّ قد عرف ما له فى الآخرة من الخزى بما صنع بما عنده من العلم [٢] . "والله بصير بما يعملون" أى : خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشرّ ، وسيجازى كلّ عامل بعمله .

---

(١) يعنى : على أنه فى حكم المسند المرفوع . وهو فى المستدرك ٢ : ٢٦٣ .

(٢) هذا القول عن ابن عباس ، رواه الطبرى مفرقاً : ١٦٠٠ ، ١٥٩٠ . وقوله « بمنحيه » : بالحاء المهملة ، من التنحية . وهو الثابت فى الأزهرية والطبرى .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٩٨)

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى رحمه الله : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أنّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل، إذْ زعموا أن جبريل عدوّ لهم ، وأن ميكائيل ولىّ لهم . ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك . فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرتْ بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر نبوته . ورَوى عن ابن عباس أنه قال : « حضرتْ عصابة من اليهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهنّ ، لا يعلمهنّ إلا نبيّ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمةَ الله وما أخذ يعقوبُ على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابِعُنِّى على الإسلام، فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلونى عما شئتم ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة ؟ وأخبرنا كيفَ ماءُ المرأة وماءُ الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبىّ الأمىّ فى النوم ؟[1] وَمن وليّه من الملائكة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم عهدُ الله لئن أنا أنبأتكم لتُتابعنى ؟ فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، فقال: نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل – يعقوب – مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرّمنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد

---

(١) فى ابن كثير – مخطوطاً ومطبوعاً – « فى التوراة » ! ولا معنى لها هنا ، والسياق ينفيها . وصححناه من الطبرى : ١٦٠٥ ، والمسند : ٢٥١٤ . وطبقات ابن سعد ١ / ١ / ١١٥ – ١١٦ .

عليهم ، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماءَ الرجل أبيضُ غليظٌ وأن ماءالمرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا َكان له الولد والشَّبه بإذن الله ، وإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان الولد أنثى بإذن الله ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد ، [قال] : وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبيّ الأمىّ تنام عيناهُ ولا ينام قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد ، قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليّك من الملائكة ؟ فعندها نجامعك أو نفارقك ، قال : فإن وليّى جبريل ، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليّه ، قالوا : فعندها نفارقُك ، ولو كان وليّك سواه من الملائكة تابعناك وصدّقناك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله عز وجل "قل من كان عدوًّا لجبريل" — إلى قوله — "كأنهم لا يعلمون" فعندها باؤا بغضبٍ على غضبٍ». وقد رواه أحمد فى مسنده[1] وعبد بن حميد فى تفسيره . وقال البخارى : قوله "من كان عدوًّا لجبريل" قال عكرمة "جَبْرَ" و "مِيكَ" و "سَرَافِ" عَبْدٌ و "إيل" اللهُ[2]. وحكاية البخارى عن عكرمة ما تقدم — هو المشهور ، أن "إيل" هو الله . وكذا قال غيرُ واحد من السلف . ومن الناس من يقول " إيل " عبارة عن : عبد ، والكلمة الأخرى هى اسم الله ، لأن كلمة "إيل" لا تتغير فى الجميع ، فوِزانُهُ : عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد الملك ، عبد القدوس ، عبد السلام ، عبد الكافى ، عبد الجليل ، ف " عبد " موجودةٌ فى هذا كله ، واختلفت الأسماءُ المضافُ إليها ، وكذلك جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، ونحو ذلك . وفى كلام غير العرب يقدمون المضافَ إليه على المضاف . والله أعلم .

---

(١) رواه أحمد فى المسند ، مطولا ومختصراً ، بأسانيد صحاح : ٢٥١٤ ، ٢٥١٥ ، ٢٤٧١ ، ٢٤٨٣ . وذكر ابن كثير هنا رواية المسند : ٢٤٨٣ ، ونسبها أيضاً للترمذى والنسائى . وأعاد بعض رواياته عند تفسير الآية : ٩٣ من سورة آل عمران .

(٢) ضبطنا هذه الحروف على الأزهرية ، وعلى نص البخارى ٨ : ١٢٥ (فتح) ، و ٦ : ١٩ (من الطبعة السلطانية) .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرةٍ جرتْ بين عمر بن الخطاب وبينهم ، فى أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم . [ثم ذكر ابن كثير خبراً فى ذلك مطولاً ، من رواية الشعبى عن عمر ، نقله من تفسيرى الطبرى وابن أبى حاتم بإسنادَيْهما. ثم أعلّهما بالانقطاع بين عمر والشعبى. وهو كما قال] .

وأما تفسير الآية : فقوله تعالى " قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله " أى : من عادى جبريل فليعلم أنه الروحُ الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك ، فهو رسول من رُسل الله مَلَكِىّ . ومن عادى رسولاً فقد عادى جميعَ الرسل ، كما أن من كفر برسول فإنه يلزمُه الكفر بجميع الرسل . كما قال تعالى : ﴿ إنّ الذين يكفرون بالله ورُسُله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقًّا ، وأعتَدْنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ . [سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١] . فحكم عليهم بالكفر المحقّق ، إذْ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم . وكذلك من عادى جبريل فإنه عدوّ لله ، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، كما قال : ﴿ وما نَتَنَزَّلُ إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيًّا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروحُ الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ . وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عادى لى وليًّا فقد بارزنى بالحرب »[1] . ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه ،

(١) هكذا ساق ابن كثير رحمه الله الحديث . والظاهر أنه كتبه من حفظه ، فوهم فيه فى موضعين : فالحديث حديث قدسى ، كما هو ظاهر . وهو فى البخارى ١١ : ٢٩٢ – ٢٩٣ (فتح) . ولفظه : «إن الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » . فالمؤلف سها حين أثبت كلمة « بارزنى » بدل « آذنته » .

ومعنى الحديث ثابت أيضاً من حديث عائشة ، رواه أحمد فى المسند ٦ : ٢٥٦ (حلبى) . ومن حديث معاذ ، رواه ابن ماجة : ٣٩٨٩ . ومن أوجه أخر ، أشار إليها الحافظ فى الفتح . =

فقال تعالى " من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه" أى : من الكتب المتقدمة "وهدى وبشرى للمؤمنين" أى: هدًى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلا للمؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عَمًى ، أولئك ينادون من كان بعيد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ونُنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾. ثم قال تعالى " من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين " يقول تعالى : من عادانى وملائكتى ورسلى — ورسله يشمل رسله من الملائكة والبشر ، كما قال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ — "وجبريل وميكال" وهذا من باب عطف الخاصّ على العام ، فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل ، ثم خُصِّصَا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبريل ، وهو السفير بين الله وأنبيائه ، وقرن معه ميكال فى اللفظ ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوّهم ، وميكائيل وليّهم ، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً ، لأنه أيضاً ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الأمر ، ولكن جبريل أكثر ، وهى وظيفته ، وميكائيل موكَّل بالنبات والقَطْر ، هذاك بالهُدَى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكَّل بالصّور للنفخ للبعث يومَ القيامة . ولهذا جاء فى الصحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول: اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون — اهدنى لما اختُلف فيه من الحق بإذنك ، إنك

= وليس المراد بـ« الولى » ما اصطلح الناس على فهمه خطأ : أنهم طائفة معينة يسمون« الأولياء »، فإن هذا دخل عليهم من اصطلاحات الصوفية ، ثم جرى اللفظ على الألسنة بهذا المعنى الذى لا أصل له . بل « ولى الله » : هو كل مؤمن يتق الله ويخافه ، ويعمل بما أمر ، وينتهى عما نهى عنه — فيما استطاع . ولعلنا نزيد هذا المعنى بياناً عند تفسير قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٭ الذين آمنوا وكانوا يتقون) . (الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ من سورة يونس) ، إن شاء الله .

تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[١] . وفى جبريل وميكائيل لغاتٌ وقراآت ، تذكر فى كتب اللغة والقراآت . ولم نطوّل كتابنا هذا بسرد ذلك ، إلا أن يدور فهم المعنى عليه ، أو يرجعَ الحكم فى ذلك إليه . وبالله الثقة وهو المستعان .
وقوله تعالى " فإن الله عدوّ للكافرين " فيه إيقاع المظهَر مكان المضمر ، حيث لم يقل فإنه عدوّ للكافرين ، بل قال " فإن الله عدوّ للكافرين " وإنما أظهر الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره ، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدوّ له ، ومن كان الله عدوَّه فقد خسر الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ، وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ، لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى " ولقد أنزلنا إليك آيات

---

(١) رواه مسلم ١ : ٢١٥ من حديث عائشة . وكذلك رواه الترمذى ٤ : ٢٣٧ ، وابن ماجة : ١٣٥٧ .

بينات " — : أى : أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك .
وتلك الآيات : هى ما حكاه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة ، فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله إلى نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم . فكان فى ذلك من أمره الآياتُ البيناتُ لمن أنصف نفسه ولم يدعُهُ إلى هلاكها الحسدُ والبغى ، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديقُ من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات التى وصف من غير تعلّم تعلّمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمىّ .
كما قال ابن عباس "ولقد أنزلنا إليك آيات بينات" يقول : فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوةً وعشيّةً وبين ذلك ، وأنت عندهم أمىّ لا تقرأ كتاباً، وأنت تخبرُهم بما فى أيديهم على وجهه ، يقول الله : فى ذلك لهم عبرةٌ وبيان ، وعليهم حجةٌ ، لو كانوا يعلمون . وقال قتادة : " نبذه فريق منهم " أى : نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير : أصل "النبذ" الطرح والإلقاء . ومنه سُمى اللقيط منبوذاً ، ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء . قلت : فالقوم ذمّهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها .
ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى فى كتبهم نعتُه وصفتُه وأخبارُه، وقد أُمروا فيها باتّباعه وموازرته ومناصرته، كما قال : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، الآية . وقال ههنا "ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم" ، الآية . أى : طرح طائفةٌ منهم كتاب الله الذى بأيديهم ، مما فيه البشارةُ بمحمد صلى الله عليه وسلم — وراءَ ظهورهم ، أى : تركوها ، كأنهم لا يعلمون ما فيها . وأقبلوا على تعلم السحر واتّباعه ، ولهذا أرادوا كيداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسَحَروه فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعونة بئر ذى أروان . وكان الذى تولى ذلك منهم رجل يقال له لَبيدُ بن

الأعصم لعنه الله ، فأطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم ، وشفاه منه وأنقذه . كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، كما سيأتى بيانه[١] . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : كان آصَف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيّه ، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً ، وقالوا : هذا الذى كان سليمان يعمل بها ، قال : فأكفره جهال الناس وَسبّوه ، ووقف علماؤهم ، فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم " واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا "[٢] . وروى ابن جرير ، عن عمران بن الحرث ، قال : بينا نحن عند ابن عباس إذْ جاءهُ رجل ، فقال له : من أين جئتَ ؟ قال : من العراق ، قال : من أيّه ؟ قال : من الكوفة ، قال : فما الخبر ؟ قال : تركتهم يتحدثون أن عليًّا خارجٌ إليهم ! ففزع ، ثم قال : ما تقول لا أبالك ؟ ! لو شعرنا ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه ! إما إنى سأحدثكم عن ذلك ، إنه كانت الشياطينُ يسترقون السمعَ من السماء ، فيجىء أحدهم بكلمة حقّ قد سمعها ، فإذا جُرّبَ منه صدقٌ كذب معها سبعين كذْبة ، قال : فتُشْرَبُها قلوبُ الناس ، فأطْلع اللهُ عليها سليمانَ عليه السلام ، فدفنها تحت كرسيّه ، فلما توفّى سليمان عليه السلام قام شيطانُ الطريق فقال : هل أدلكم على كنزه المنَّع الذى لا كنزَ له مثلُه ؟ تحت الكرسىّ ، فأخرجوه ، فقالوا : هذا سحر ، فتناسخها الأمم ، حتى بقاياها ما يتحدثُ به أهل العراق ، وأنزل الله عز وجل " واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا " . ورواه الحاكم[٣] . [ثم ذكر الحافظ ابن كثير أخباراً جمة فى هذا

---

(١) فى تفسير سورة الفلق . إن شاء الله .

(٢) إسناده الذى نقله ابن كثير - وحذفناه - إسناد صحيح . وهذا موقوف من كلام ابن عباس . ونحن نقف فيه ، فلا نقول شيئاً . وقد أطال ابن كثير فى نقل أخبار فى هذا المعنى . رحمه الله وإيانا ، وغفر لنا وله .

(٣) الخبر فى الطبرى : ١٦٦٢ . وفى المستدرك للحاكم ٢ : ٢٦٥ . ولم يتكلم الحاكم عليه ، =

المعنى عن التابعين وغيرهم . ثم قال] : فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف هذا المقام . ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها ، وأنه لا تعارض بين السياقات — على اللبيب الفهم . والله الهادى . فقوله تعالى " واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان " أى : واتبعت اليهود — الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم — ما تتلوا الشياطين ، أى : ما ترويه وتخبر به وتحدّثه الشياطينُ على ملك سليمان . وعدّاه بـ "على" لأنه ضمن "تتلو" : تكذب . وقال ابن جرير : « على » ههنا بمعنى « فى » أى : تتلو فى ملك سليمان . قلت : والتضمين أحسن وأولى . والله أعلم . وقول الحسن البصرى رحمه الله : قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود — صحيح لا شك فيه ، لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمانُ بعده ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى ﴾ ، الآية ، ثم القصة بعدها ، وفيها : ﴿ وقتل داودُ جالوتَ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ . وقال قوم صالح — وهم قبل إبرهيم الخليل عليه السلام — لنبيهم صالح : ﴿ إنما أنتَ من المسحّرين ﴾ . وقوله تعالى "وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه" اختلف الناس فى هذا المقام : فذهب بعضهم إلى أن "ما" نافية ، أعنى التى فى قوله "وما أنزل على الملكين" . وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله " وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت " يقول : لم ينزل الله السحر . وعن الربيع بن أنس قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا الذى تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحرَ على الملكين = ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر = "ببابل هاروت

= فلا أدرى أهو هكذا ، أم سقط كلامه من الناسخ أو الطابع ؟ وكتب الذهبى فى تلخيصه بعده : «صحيح» . وتصحيح الذهبى ثابت أيضاً فى مخطوطة مختصره التى عندى ، ص : ٢٧٢ . وإسناده صحيح كما قال . ولكنه موقوف على ابن عباس . فنقف فيه أيضاً .

وماروت". فيكون قوله "ببابل هاروت وماروت" من المؤخَّر الذى معناه المقدَّم .
قال : فإن قال لنا قائل : كيف وجهُ تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال :
واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، وما
أنزل الله السحر على الملكين — ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر
"ببابل هاروت وماروت". فيكون معنيًّا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام ،
لأنَّ سحرة اليهود — فيما ذُكر — كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل
وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمداً صلى
الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمانَ عليه السلام مما
نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلِّم الناس
ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان : اسم أحدهما هاروت ، واسم
الآخر ماروت . فيكون " هاروت وماروت " على هذا التأويل ترجمةً على
" الناس " وردًّا عليهم . هذا لفظه بحروفه . ثم شرع ابن جرير فى رد هذا
القول ، وأن "ما" بمعنى الذى ، وأطال القول فى ذلك ، وادعى أن هاروت
وماروت مَلَكان أنزلهما الله إلى الأرض ، وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده
وامتحاناً ، بعد أن بيَّن لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل ، وادّعى
أن هاروتَ وماروتَ مطيعانِ فى تعليم ذلك لأنهما امتثلا ما أُمرا به ! وهذا الذى
سلكه غريبٌ جدًّا ! وأغرب منه قولُ من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من
الجن !! وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها
"وما أنزلَ على الملِكَين" ، ويقول : هما علجان من أهل بابل ! ووجَّه أصحاب
هذا القول الإنزالَ بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء فى قوله "وما أنزل على الملِكَين"
كما قال تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ، ﴿ وأنزلنا الحديد فيه
بأس شديد ﴾ ، ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ وفى الحديث : « ما أنزل الله
داءً إلا أنزل له دواء » . وكما يقال : أنزل الله الخير والشر . وذهب آخرون
إلى الوقف على قوله "يعلمون الناس السحر" . وروى ابن جرير عن القاسم
بن محمد — وسأله رجل عن قول الله "يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين

ببابل هاروت وماروت " – فقال الرجل : يعلمان الناس السحر : ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالى أيتهما كانت . ثم روى أن القاسم قال فى هذه القصة : لا أبالى أىّ ذلك كان ، إنى آمنتُ به .

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا مَلَكين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان . وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده كما سنورده إن شاء الله . وعلى هذا فيكون الجمعُ بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة : أنّ هذين سبق فى علم الله لهما هذا، فيكونُ تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ . كما سبق فى علمه من أمر إبليس ما سبق ، وفى قول إنه كان من الملائكة ، لقوله تعالى : ﴿ وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ – إلى غير ذلك من الآيات الدّالة على ذلك . مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذُكر أخفُّ مما وقع من إبليس لعنه الله .

ذكر الحديث الوارد فى ذلك
إن صح سنده ورفعه، وبيان الكلام عليه

روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمر أنه سمع نبى الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة : أى رب﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ قالوا : ربَّنا نحن أطوع لك من بنى آدم، قال الله تعالى للملائكة ، هلمّوا مَلَكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظرَ كيف يعملان ؟ قالوا : ربَّنا هاروتُ وماروتُ ، فأهبطا إلى الأرض ، ومُثِّلت لهما الزُّهَرَةُ امرأةً من أحسن البشر، فجاءتهما فسألاها نفسها ! فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك ! فقالا : والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً ، فذهبت عنهما ، ثم رجعت بصبىّ تحمله ، فسألاها نفسها ! فقالت :

لا والله حتى تقتلا هذا الصبى ! فقالا : لا والله لا نقتله أبداً ، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحملُه ، فسألاها نفسها ! فقالت : لا والله حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا فسكرا ، فوقعا عليها ، وقتلا الصبىّ ! فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما شيئاً [مما] أبيتماه علىّ إلاقد فعلتماه حين سكرتما ! فَخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذابَ الدنيا » . وهكذا رواه ابن حبان فى صحيحه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورجاله كلهم ثقاتٌ من رجال الصحيحين ، إلا « موسى بن جبير » ، وهو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى الحذّاء ، رَوى عن ابن عباس وأبى أمامة بن سهل بن حُنيف ونافع وعبد الله بن كعب بن مالك ، وروى عنه ابنُه عبد السلام وبكر بن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحرث ويحيى بن أيوب ، وروى له أبو داود وابن ماجة ، وذكره ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا ، فهو مستور الحال ، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم . وروى له متابعٌ من وجه آخر عن نافع [ثم ذكر ابن كثير روايتين من تفسيرى ابن مردويه والطبرى . ثم قال] : وهذان أيضاً غريبان جدًّا ! ! وأقربُ ما فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار ، لا عن النبى صلى الله عليه وسلم . [ثم ذكر رواية من تفسير عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار . وذكر أنه رواها أيضاً الطبرى وابن أبى حاتم . ثم قال] : فهذا أصحّ وأثبتُ إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين . وسالمٌ أثبتُ فى أبيه من مولاه نافع . فدار الحديثُ ورجَع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بنى إسرائيل . والله أعلم (١) .

---

(١) حديث ابن عمر - المرفوع - الذى ذكره ابن كثير من رواية أحمد - هو فى المسند : ٦١٧٨ . وقد نقلنا كلام ابن كثير الذى هنا فى تعليله . وفصلنا القول فى ضعفه جداً . وأشرنا « إلى مخالفته الواضحة للعقل ، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية ، بل من ناحية أن الكوكب الذى نراه صغيراً فى عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف . فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة ! ! » . ونزيد هنا دليلا على ضعف رواية المسند هذه : أن فى أولها أن قول الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء » - إلخ - كان =

[ثم أطال ابن كثير بسرد روايات عن بعض الصحابة والتابعين فى هذا المعنى ، لا يكاد العقل يقبل شيئاً منها . ثم قال] : وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسُّدىّ والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والرّبيع بن أنس ومقاتل بن حيّان وغيرهم ، وقصّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ، إذْ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصلُ الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بسطٍ ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمنُ بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى . والله أعلم بحقيقة الحال .

وقوله تعالى " وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر " عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتى يريد السحرَ نهياه أشدّ النهى ، وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وذلك أنهما علما الخيرَ والشرّ ، والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحرَ من الكفر . قال : فإذا أبى عليهما أمراهُ أن يأتى مكان كذا وكذا ، فإذا أتاه عاين الشيطانَ فعلّمه . فإذا علّمه خرج منه النورُ فنظر إليه ساطعاً فى السماء ، فيقول : يا حسرتاه ! يا ويله ! ماذا صنع ! وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية : نعم أُنزل الملكان بالسحر ليعلّما الناس البلاءَ الذى أراد الله أن يبتلىَ به الناس . فأُخذ عليهما الميثاقُ أن لا يعلما أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وأما « الفتنة » فهى : المحنة والاختبار . وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال : ﴿ إنْ هى إلا

= بعد إهباط آدم إلى الأرض . وهو مخالف صراحة لنص الكتاب العزيز ، كما مضى فى الآيات : ٣٠ – ٣٨ ، أن قولهم هذا كان قبل خلق آدم ، وقبل أمرهم بالسجود له . وأن إهباطه هو وحواء كان بعد أكلهما من الشجرة .

وقد بينا أيضاً وهى هذه الأخبار فيما علقنا به فى تفسير الطبرى على الحديث : ١٦٨٨ .

وكنت على أن أحذف هذا الحديث أيضاً من هذا الكتاب (عمدة التفسير) – على ما شرطت فى المقدمة ، ص : ٩ . ولكنى رأيت أن معناه يدور على ألسنة الناس ، وتجرى به أقلامهم ، وأنه يجب على البيان . فعملت بالذى هو خير ، ثم نفيت سائر الروايات التى أطال الحافظ ابن كثير بذكرها ، وإن لم يقصر فى الكشف عن عوارها . رحمه الله .

فتنتك ﴾ ، أى : ابتلاؤك واختبارُك وامتحانك ﴿ تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ . وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، ويُستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله قال : « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » . وإسناده جيد ، وله شواهد أخر [١] .

وقوله تعالى "فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه" أى : فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة – ما إنهم ليفرّقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين . كما روى مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنّ الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعثُ سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم عنده فتنةً ، يجىءُ أحدهم فيقول : ما زلتُ بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعتَ شيئاً ، ويجىءُ أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرّقت بينه وبين أهله ، قال : فيقرّبه ويدنيه ويلتزمُه ، ويقول: نَعِم أنت » [٢] . وسبب التفريق بين

---

(١) عبد الله : هو ابن مسعود . والحديث ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤ : ٥٣ ، عنه بنحوه . وقال : « رواه البزار وأبو يعلى ، بإسناد جيد ، موقوفاً » . ثم ذكره بعده – بنحوه أيضاً – وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته ثقات » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥ : ١١٨ . وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا هبيرة بن يريم ، وهو ثقة » .

وإسناد البزار – الذى ذكره ابن كثير هنا – ليس من رواية « هبيرة بن يريم » عن ابن مسعود . بل هو من رواية « همام » ، وهو ابن الحرث النخعى التابعى الكبير الثقة – عن ابن مسعود . فالظاهر أن البزار رواه بإسنادين من الوجهين .

وهذا الحديث ، وإن كان موقوفاً فى ظاهره ، فإن معناه الرفع يقيناً ، لأن حكم الصحابى بأن هذا العمل كفر – مما لا يقال بالرأى ولا يؤخذ بالقياس . كما هو ظاهر .

(٢) الحديث فى مسلم ٢ : ٣٤٦ ، مع اختلاف قليل فى اللفظ ، لعله اختلاف نسخ . وقوله فى آخره « نعم أنت » – ضبطه النووى فى شرحه ١٧ : ١٥٧ « بكسر النون وإسكان العين ، وهى نعم – الموضوعة للمدح » . ولكن ضبط هنا فى المخطوطة الأزهرية بكسرة تحت النون ، أى كما ضبطه النووى – وبفتحة فوقها أيضاً ، وكتب عليها « معاً » ، يعنى بالضبطين . فتكون « نعم » التى للجواب ، بسكون الميم . وهى جيدة المعنى هنا . كأنه يقول له : نعم ، أنت الذى أجدت فعلتك منهم .

الزوجين بالسحر بالخيْل إلى الرجل[١] أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو بغضة ، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة . و"المرء" عبارة عن الرجل . وتأنيثه "امرأة" ويثنى كل منهما ولا يجمعان . والله أعلم .

وقوله تعالى "وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله" قال سفيان الثورى : إلا بقضاء الله . وقال محمد بن إسحق : إلاّ بتخلية الله بينه وبين ما أراد .

وقوله تعالى " ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم" أى : يضرهم فى دينهم وليس له نفعٌ يوازى ضررَه . "ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق" أى : ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسل لَـمَنْ فعل فعلهم ذلك أنه ما له فى الآخرة من خلاق . قال ابن عباس : من نصيب . وقوله تعالى "ولبئس ما شروا به أنفسهم لوكانوا يعلمون" يقول تعالى : ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسل ، لو كان لهم علم بما وعظوا به . "ولو أنهم آمنوا واتقوْا لمثوبة من عند الله خيرٌ" أى : ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقَوُا المحارم لكان مثوبةُ الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضُوا به . كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

وقد يستدل بقوله " ولو أنهم آمنوا واتقوا " من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف . وقيل : بل لا يكفَّر ، ولكن حدّه ضربُ عنقه . لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل عن بَجَالةَ بن عَبَدَة قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنِ اقتلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاثَ سواحر . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً[٢] . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرتْ بها فقتلت . قال

---

(١) « الخيل » — بفتح الخاء وسكون الياء : مصدر « خال الشىء يخاله خيلا » ، أى : ظنه . وفى المطبوعة « ما يخيل » ، وكأنه تصرف من ناسخ أو طابع . والأصل صحيح سليم المعنى .

(٢) هو جزء من حديث طويل ، فى المسند : ١٦٥٧ . والبخارى ٦ : ١٨٤ — ١٨٥ (فتح) . وتخريجه مفصل فى شرح المسند .

الإمام أحمد بن حنبل : صحّ عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى قتل الساحر . وروى الترمذى عن جندب الأزدى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حد الساحر ضربةُ بالسيف » . ثم قال : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وإسمعيل بن مسلم يضعّف فى الحديث ، والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفاً . قلت : قد رواه الطبرانى من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً . والله أعلم (١).

فصل : حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفّروا من اعتقد وجوده . قال : وأما أهل السنة فقد جوّزوا أن يقدر الساحر أن يطيرَ فى الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً ! إلاّ أنهم قالوا : إنّ الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحرُ تلك الرقى والكلمات المعينة . فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجومُ فلا ، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة . ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى : " وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله " ، ومن الأخبار بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُحِرَ ، وأن السحر عَمِل فيه .

[ثم قال الرازى] : إن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور . اتفق المحققون على ذلك ، لأن العلم لذاته شريف ! وأيضاً لعموم قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ﴾ . ولأن السحر لو لم يُعلَم لما أمكن الفرقُ بينه وبين المعجزة ! والعلم بكون المعجز معجزاً واجبٌ ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب !! فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً ،

---

(١) الحديث فى الترمذى ٢ : ٣٣٨ . ورواه أيضاً الحاكم ٤ : ٣٦٠ . وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ، وإن كان الشيخان تركا حديث إسمعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح » . ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٨ : ١٣٦ وأعله بإسمعيل . و « إسمعيل بن مسلم المكى » : ليس ضعيفاً ، كما قال الترمذى والبيهقى . بل حديثه حسن ، ومن تكلم فيه فإنما تكلم من قبل حفظه . وأثنى عليه جداً محمد بن عبد الله الأنصارى ، فرجحه على يونس بن عبيد ، وشهد له بحفظ الحديث — كما فى ترجمته فى طبقات ابن سعد ٧ / ٢ / ٣٤ . وقد حسن له الترمذى حديثاً آخر . وقال : « وقد تكلم الناس فى إسمعيل بن مسلم المكى من قبل حفظه » . انظر شرحنا للترمذى ١ : ٤٥٢ — ٤٥٤ .

وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً ؟ ! هذا لفظه بحروفه فى هذه المسئلة . وهذا الكلام فيه نظر من وجوه : أحدها : قوله العلم بالسحر ليس بقبيح — إن عنى به ليس بقبيح عقلا ، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا ، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعاً ، فى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر ، وفى الصحيح : « من أتى عرّافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد » . وفى السنن : « من عقد عقدة ونَفَثَ فيها فقد سَحَر » . وقوله ولا محظور اتفق المحققون على ذلك — كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث ؟ واتفاق المحققين يقتضى أن يكون نصٌّ على هذه المسئلة أئمة العلماء أو أكثرهم ، وأين نصوصهم على ذلك ؟ ! ثم إدخاله على السحر فى عموم قوله تعالى ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ فيه نظر ! لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعى ، ولِمَ قلتَ إن هذا منه ؟ ! ثم ترقّيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به — ضعيف ، بل فاسد ، لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ثم العلمُ بأنه معجز لا يتوقّف على علم السحر أصلا . ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامّتهم كانوا يعلمون المعجزَ ويفرّقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلّموه ولا علّموه . والله أعلم .

[ثم نقل الحافظ ابن كثير عن الفخر الرازى فصلاً طويلاً فى أنواع السحر ، لا نرى لذكره فائدة ، ولا طائل تحته ، إلا نوعين مما ذكر . نرى من الفائدة إثباتهما ، لابتلاء كثير من الناس فى هذا العصر ببعض ما فيهما ، بما تركوا من علم الشريعة ، وبما اتبعوا من الهوى] : من السحر : الأعمالُ العجيبة التى تظهر من تركيب الآلاتِ المركبة من النسب الهندسية ، كفارس على فرس فى يده بوق ، كلما مضتْ ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد . ومنها الصور التى تصورها الروم والهند ، حتى لا يفرّق الناظرُ بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية . إلى أن قال : فهذه

الوجوه من لطيف أمور المخاييل . قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل . قلت : يعني ما قاله بعض المفسرين : أنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصيّ ، فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق ، فيخيّل إلى الرائى أنها تسعى باختيارها . قال الرازى : ومن هذا الباب تركيبُ صندوق الساعات . ويندرج فى هذا الباب علم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة ، قال : وهذا فى الحقيقة لا ينبغي أن يعدّ من باب السحر ، لأن لها أسباباً معلومةً يقينية ، من اطلع عليها قدر عليها . قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم ، بما يُرُونهم إياه من الأنوار ، كقضية قُمامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروجُ على العوامّ منهم . وأما الخواصّ فهم يعترفون بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغاً لهم . وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدى الكرّامية الذين يرون جوازَ وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب ، فيدخلون فى عداد من قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار » . وقوله : « حدثوا عني ولا تكذبوا عليّ ، فإنه من يكذب عليّ يلج النار » . ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان ، وهو : أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور ترقّ له فتذهبُ فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به ، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله ، وتوصّل إلى أن جعله أجوفَ ، فإذا دخلته الريح يُسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر ، وانقطع فى صومعة ابتناها ، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم ، وعلّق ذلك الطائر فى مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية ، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيُسمع صوتها كذلك الطائر فى شكله أيضاً ، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً ، فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة ، ولا يدرون ما سببه ! ! ففتنهم بذلك ، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر ، عليهم لعائن الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة .

ومن السحر : الاستعانةُ بخواصّ الأدوية ، يعنى فى الأطعمة والدهانات .
قال : واعلم أن لا سبيل إلى إنكار الخواصّ ، فإن أثر المغناطيس مشاهد .
قلت : يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقرَ ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواصّ ، مدعياً أنها أحوال له ، من مخالطة النيران ، ومسك الحيات ، إلى غير ذلك من المحالات . ومن السحر : تعليق القلب ، وهو : أن يدعى الساحرُ أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون ذلك السامعُ ضعيفَ العقل قليلَ التمييز ، اعتقد أنه حق ، وتعلق قلبه بذلك ، وحصل فى نفسه نوعٌ من الرعب والمخافة ، فإذا حصل الخوفُ ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء . قلت : هذا النمط يقال له « التنبلة » . وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم . وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان المتنبل حاذقاً فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا ، وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥)

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم . وذلك : أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقُّص – عليهم لعائن الله – فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولوا " راعنا " يورون بالرعونة . كما قال تعالى : ﴿ من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غيرَ مسمع وراعنا ، ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ . وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون : السامُ عليكم ، والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نردّ عليهم بـ « وعليكم » . وأنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض : أن الله

تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً ، فقال "يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم" . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبدَ اللهُ وحدَه لا شريك له ، وجُعل رزقى تحتَ ظلّ رمحى ، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[١]. وروى أبو داود: « من تشبه بقوم فهو منهم »[٢]. ففيه دلالة على النهى الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم ، وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولم نقرّ عليها[٣]. وعن ابن عباس "راعنا" أى : أرعنا سمعك . وعنه أيضاً ، قال : « كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : أرعنا سمعك ، وإنما "راعنا" كقولك: عاطنا »[٤]. وقال عطاء : كانت لغةً يقولها الأنصار ، فنهى الله عنها . وقال الحسن : " الراعن " من القول : السخرىّ منه ، نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم وما يدعوهم إليه من الإسلام . وكذا روى عن ابن جريج أنه قال مثله . . قال ابن جرير : والصواب من القول فى ذلك عندنا : أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم " راعنا " لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم ، نظير الذى ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقولوا للعنب الكرم ، ولكن قولوا: الحَبَلَة » . و « لا تقولوا عبدى ، ولكن قولوا : فتاى »[٥] . وما أشبه ذلك .

---

(١) المسند : ٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧ . وهو فى مجمع الزوائد ٥ : ٢٦٧ ، و ٦ : ٤٩. وذكره الحافظ فى الفتح ٦ : ٧٢ ، عن رواية المسند .

(٢) هذا جزء من الحديث السابق . وهو فى أبى داود : ٤٠٣١ .

(٣) فانظر إلى ما يفعل المسلمون – بل المنتسبون للإسلام – فى عصرنا ، من التشبه بالكفار فى كل شىء ، حتى ليريد الوقحاء من الكتاب أن يدخلوا شعائرهم أو ما يشبهها فى عباداتنا . وحتى ضربوا على أنفسهم الذلة والصغار ، باصطناع تشريع أوربة الوثنية الملحدة فى قوانينهم الوضعية المجرمة الكافرة . أعاذنا الله من الفتن ، وأعاد للمسلمين عقولهم ودينهم .

(٤) رواه الطبرى : ١٧٣١ . بإسناد ضعيف .

(٥) هذان حديثان ، ذكرهما الطبرى بدون إسناد: ١٧٣٩ ، ١٧٤٠ . وأولهما رواه أحمد=

وقوله تعالى " ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم" يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، الذين حذّر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ، ليقطعَ المودة بينهم وبينهم . وينبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التامّ الكامل، الذى شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى " والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم" .

ربع ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧)

قال ابن عباس "ما ننسخ من آية" ما نبدّل من آية . وقال السدى : نسخُها قبضها . وقال ابن أبى حاتم : يعنى قبضها : رفعها، مثل قوله : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » . وقوله : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً » . وقال ابن جرير "ما ننسخ من آية" ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيّره . وذلك : أن يحوّل الحلالُ حراماً والحرامُ حلالا ، والمباحُ محظوراً والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى ، والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ . وأصل " النسخ " من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها ، فكذلك معنى " نسخ" الحكم إلى غيره : إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيره . وسواء نسخ حكمها أو خطُّها ، وهى فى كلتى حالتيها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ ، والأمر فى ذلك قريب . لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء . ولخص بعضهم : أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر . فاندرج فى ذلك نسخ الأخف بالأثقل ، وعكسُه ، والنسخ لا إلى

= فى المسند : ٨٥٠٩ ؛عن أبى هريرة ، ورواه الشيخان وغيرهما . وثانيهما رواه الشيخان عن أبى هريرة أيضاً . انظر الفتح ٥ : ١٢٨ – ١٣١ ، وصحيح مسلم ٢ : ١٩٧ .

بدل . وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه — فمبسوطة فى أصول الفقه. وقوله تعالى "أو ننسأها" فقرئ على وجهين: "نَنْسَأْهَا" و"نُنْسِهَا" . فأما من قرأها "ننسأها" بفتح النون والهمزة بعد السين ، فمعناه : نؤخرها . قال ابن عباس "ما ننسخ من آية أو ننسأها" يقول : ما نبدّل من آية أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود "أو ننسأها" نثبت خطها ونبدل حكمها . وقال أبو العالية "أو ننسأها" أى : نؤخرها عندنا . وأما على قراءة " أو ننسها " — فقال قتادة : كان الله عز وجل ينسى نبيه ما يشاء ، وينسخ ما يشاء . وروى ابن جرير عن القاسم بن ربيعة ، قال : سمعت سعد بن أبى وقاص يقرأ " ما ننسخ من آية أو ننسأها " قال : قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأ "ننسها" قال : فقال سعد : إنّ القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ! قال الله جل ثناؤه: ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ . ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ . وكذا رواه عبد الرزاق . وأخرجه الحاكم، وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1]. قال ابن أبى حاتم : وروى عن محمد بن كعب وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال عمر : علىّ أقضانا ، وأبىّ أقرؤنا ، وإنا لندعُ من قول أبىّ ، وذلك أنّ أبيًّا يقول:

---

(١) رواه الطبرى بثلاثة أسانيد : ١٧٥٥ — ١٧٥٧ . وأحدها من طريق عبد الرزاق ، وهو فى تفسير عبد الرزاق ، ص : ١١٠ (مخطوط مصور عندى) . ورواية الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٤٢ .

والذى فى رواية تفسير عبد الرزاق ورواية الحاكم أن قراءة سعد بن أبى وقاص « أو ننساها » ، وقراءة ابن المسيب « أو ننسها » وهو الثابت فى مخطوطة مختصر المستدرك للذهبى ، ص : ٢٦٥ . وهذا — عندى — هو الصواب ، خلافاً لما ثبت فى طبعتنا للطبرى ومطبوعة ابن كثير ومخطوطة الأزهر — لأنه هو المناسب لسياق الكلام ، لا يفهم على وجهه إلا به .

وقد نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح ٨ : ١٢٧ — ١٢٨ هذا الخبر ، فقال : « وأما قراءة من قرأ بضم أوله فمن النسيان ، وكذلك كان سعيد بن المسيب يقرؤها ، فأنكر عليه سعد بن أبى وقاص — أخرجه النسائى وصححه الحاكم . وكانت قراءة سعد « أو تنساها » بفتح المثناة ، خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم ، واستدل بقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى) » . وهو يوافق ما رجحنا فى قراءة ابن المسيب . وأما قراءة سعد فلا تتجه على النحو الذى ضبطه الحافظ مع الاستدلال بالآية . وإنما تتجه على ما أثبتنا ، أنها « ننسأها » ، أى : نؤخرها .

ما أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يقول " ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " . ورواه للبخارى ، بنحوه [١] .

وقوله " نأت بخير منها أو مثلها " ، أى : فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين . وقال أبو العالية " ما ننسخ من آية " فلا نعمل بها " أو ننسأها " أى : نرجئها عندنا ، نأت بها أو نظيرها . وقال قتادة " نأت بخير منها أو مثلها " يقول : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهى .

وقوله " ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير * ألم تعلم أنّ الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير " يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف . فكما يخلقهم كما يشاء ، يسعد من يشاء ويشقى من يشاء ، ويُصحّ من يشاء ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء = كذلك يحكم فى عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء ، وهو الذى يحكم ما يريد ، لا معقِّب لحكمه ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون . ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى . فالطاعةُ كل الطاعة فى امتثال أمره واتّباع رسله فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أُمروا ، وترك ما عنه زَجروا . وفى هذا المقام ردّ عظيم وبيانٌ بليغ لكفر اليهود ، وتزييف شبهتهم — لعنهم الله — فى دعوى استحالة النسخ ، إمّا عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً ، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية : ألم تعلم يا محمد أن لى ملكَ السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى ، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وآمرُ فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخُ وأبدّلُ وأغيّر من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء ، إذا أشاء ، [وأقرّ فيهما ما أشاء] [٢] .

---

(١) هو فى المسند ٥ : ١١٣ (حلبى) . والبخارى ٨ : ١٢٧ (فتح) .
(٢) الزيادة من الأزهرية والطبرى .

ثم قال : وهذا الخبرُ — وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته — فإنه منه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نسخَ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوّة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أنّ له ملك السموات والأرض وسلطانَهما ، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته ، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له أمرَهم بما يشاء ، ونهيهم عما يشاء ، ونسخَ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه .

قلت : الذى يحمل اليهود على البحث فى مسئلة النسخ إنما هو الكفرُ والعناد ، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما يفعل ما يريد . مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية . كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ، ثم حرّم ذلك . وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ، ثم نسخ حِلّ بعضها . وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وقد حُرّم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها . وأشياء كثيرة يطول ذكرها . وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه ! وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية ، فلا يصرف الدلالة فى المعنى ، إذ هو المقصود . كما فى كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر باتّباعه ، فإنه يفيد وجوبَ متابعته عليه السلام ، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته ، وسواء قيل : إن الشرائع المتقدمة مُغياة إلى بعثته عليه السلام — فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله : ﴿ ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ . وقيل : إنها مطلقة ، وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها . فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين ، لأنه جاء بكتاب هو آخرُ الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى . وقال أبو مسلم الأصبهانى المفسر : لم يقع شىء من ذلك فى القرآن ! وقوله ضعيف مردود مرذول . وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ ! فمن ذلك : قضية العدّة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول ، لم يجب على ذلك بكلام مقبول . وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس ، ولم يجب بشىء .

ومن ذلك : نسخُ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين . ومن ذلك: نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك . والله أعلم (١) .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبْدَ لكم ﴾، أى: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تُبَيَّن لكم، ولا تسألوا عن الشىء قبل كونه ، فلعله أن يحرَّم من أجل تلك المسئلة . ولهذا جاء فى الصحيح : « إنّ أعظم المسلمين جُرماً من سأل عن شىء لم يحرَّم فحرّم من أجل مسئلته » . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فإن تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك ؟ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكم الملاعنة . ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » . وفى صحيح مسلم : « ذرونى ما تركتم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » . وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أنّ الله كتب عليهم الحج ، فقال رجل : « أكلّ عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، ثم قال عليه السلام : لا ، ولو قلتُ نعم — لوجبتْ ، ولو وجبتْ لما استطعتم » . ثم

(١) رأى أبى مسلم الأصفهانى ، والرد عليه — لم يذكر فى الأزهرية . وأثبتناه لجودته وإتقانه ، ولما يتجه إليه كلام المجددين فى هذا العصر ! ! للانتصار لهذا الرأى « الضعيف المرذول » ، اجتهاداً منهم ، زعموا ! ! وقد كتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضع دفاعاً عن أبى مسلم ضعيفاً ، لا طائل تحته .

قال : « ذرونى ما تركتكم » ، الحديث . وهكذا قال أنس بن مالك : « نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء ، فكان يعجبنا أن يأتىَ الرجل من أهل البادية فيسألَه ونحن نسمع » . وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب، قال : « إنْ كان ليأتى علىّ السنةُ أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأتهيبَ منه ، وإنْ كنا لنتمنّى الأعراب » [١]. وروى البزار : عن ابن عباس قال : « ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن اثنتى عشر مسئلة ، كلها فى القرآن: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ ، و ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ ، و ﴿ يسألونك عن اليتامى ﴾ ، يعنى هذا وأشباهه » [٢].

وقوله تعالى " أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل " أى : بل تريدون ، أو هى على بابها فى الاستفهام ، وهو إنكارى ، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين ، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع ، كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ .

والمراد : أن الله ذمّ من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شىء على وجه التعنت والاقتراح ، كما سألتْ بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنُّتاً وتكذيباً وعناداً . قال الله تعالى " ومن يتبدل الكفر بالإيمان " أي : ومن يشترِ الكفر بالإيمان " فقد ضل سواء السبيل " أى : فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال . وهكذا حالُ الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتّباعهم والانقياد لهم — إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التى لا يحتاجون

---

(١) لم أجده فى مجمع الزوائد . وإسناده صحيح .

(٢) رواه أيضاً الدارمى ١ : ٥٠ — ٥١ . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١ : ١٥٨ — ١٥٩ . ولكن عندهما « عن ثلاث عشرة مسألة » . وقال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه عطاء بن السائب ، وهو ثقة ، ولكنه اختلط ، وبقية رجاله ثقات » . فلم ينسبه للبزار مع الطبرانى ، ولعله سهو منه . وإسناد الدارمى وإسناد البزار الذى نقله ابن كثير — هما من طريق « ابن فضيل عن عطاء » . وابن فضيل سمع من عطاء بعد اختلاطه . فيكون هذا الإسناد حسناً .

إليها على وجه التعنّت والكفر . كما قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدلوا نعمةَ الله كفراً وأحلوا قومهم دارَ البوار * جهنمَ يصلونها ، وبئس القرار ﴾ .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٠)

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم . ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتى أمرُ الله من النصر والفتح . ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاه الزكاة ، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه . كما روى محمد بن إسحق عن ابن عباس، قال: «كان حُيَيٌّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشدّ يهودَ للعرب حسداً ، إذْ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهدَيْن فى ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما " ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم" الآية » . " من بعد ما تبين لهم الحق " قال ابن عباس : يقول الله تعالى : من بعد ما أضاء لهم الحق ، لم يجهلوا منه شيئاً ، ولكن الحسد حملهم على الجحود ، فعيرهم ووبخهم ولامهم أشدّ الملامة . وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال أبو العالية: تبين لهم أن محمداً رسول الله ، يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسداً وبغياً ، إذْ كان من غيرهم . وقوله تعالى" فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره " مثل قوله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

قال ابن عباس فى قوله " فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره " نسخ ذلك قوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، وقوله : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ . فنسخ هذا عفوَه عن المشركين . وكذا قال قتادة والسدى ، أنها منسوخة بآية السيف . ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله " حتى يأتى الله بأمره " . وروى ابن أبى حاتم عن أسامة بن زيد ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله " فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأوّل من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بقتلٍ ، فقَتَلَ الله به من قَتَلَ من صناديد قريش » . وإسناده صحيح . ولم أره فى شىء من الكتب الستة ، ولكن له أصل فى الصحيحين عن أسامة بن زيد[1] .

وقوله تعالى " وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله " يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكّن الله لهم النصرَ فى الحياة الدنيا ويومَ يقوم الأشهاد ﴿ يوم لا ينفعُ الظالمين معذرتهم ولهم اللعنةُ ولهم سوء الدار ﴾ . ولهذا قال تعالى " إن الله بما تعملون بصير " يعنى : أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيعُ لديه ، سواء كان خيراً أو شرًّا ، فإنه سيجازى كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى " إن الله بما تعملون بصير " هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين : أنهم مهما فعلوا

---

(١) هذا الحديث رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن أبى اليمان . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه البخارى ٨ : ١٧٣ - ١٧٥ (فتح) . ورواه مسلم أيضاً . ولكن ظن الحافظ ابن كثير أنه حديث مستقل ، فكاد ينفى أنه فى الكتب الستة . ولكنه استدرك بعد ذلك فزاد الجملة الأخيرة : أن له أصلا فى الصحيحين . وهذه الجملة ليست فى المخطوطة الأزهرية . وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٠٧ مختصراً ، أطول قليلا مما هنا ، ونسبه للصحيحين وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى الدلائل . وأجاد فى ذلك .

من خير أو شرّ، سرًّا وعلانيةً – فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيراً وبالإساءة مثلها . وهذا الكلامُ وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً ، وذلك أنه أعلم القومَ أنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدّوا فى طاعته ، إذْ كان ذلك مدّخراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ ، وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله " بصير " فإنه « مبصر » ، صرفَ إلى « بصير » ، كما صرف « مبدع » إلى « بديع » ، و « مؤلم » إلى « أليم » . والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَٰرَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَٰبَ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١١٣)

يبيّن تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾ . فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه يعذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادّعوا لما كان الأمر كذلك . وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد عليهم تعالى فى ذلك . وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادّعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ، فقال " تلك أمانيهم " قال أبو العالية : أمانىّ تمنَّوها على الله بغير حق . وكذا قال قتادة . ثم قال تعالى " قل " أى يا محمد " هاتوا برهانكم " قال أبو العالية ومجاهد : حجتكم ، وقال قتادة : بينتكم على ذلك

"إن كنتم صادقين" كما تدعونه . ثم قال تعالى "بلى من أسلم وجهه لله" أى : من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ ، الآية . "وهو محسن" أى متبع : فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما : أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » . رواه مسلم من حديث عائشة . فعمل الرهبان ومن شابههم — وإنْ فرض أنهم يخلصون فيه لله — فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة . وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾. وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ . وروى عن أمير المؤمنين عمر : أنه تأوّلها فى الرهبان .

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصدَ لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله . وهذا حال المنافقين والمرائين ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤن ، ويمنعون الماعون ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . وقال فى هذه الآية الكريمة "بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن" . وقوله "فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيلَ الأجور ، وآمنهم مما يخافونه من المحذور ، فـ "لا خوف عليهم" فيما يستقبلونه "ولا هم يحزنون" على ما مضى مما يتركونه . كما قال سعيد بن جبير "فلا خوف عليهم" يعنى فى الآخرة "ولا هم يحزنون" للموت .

وقوله تعالى "وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب" يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم

وتعاندهم . كما روى محمد بن إسحاق : عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتتهم أحبارُ يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حُرَيْملَة : ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله فى ذلك من قولهما " وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب " قال : إن كلاً يتلو فى كتابه تصديقَ من كفر به ، أى : يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة ، وفيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما فى يدى صاحبه . وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء . وظاهر سياق الآية يقتضى ذمّهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك . ولهذا قال تعالى " وهم يتلون الكتاب " أى : وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعةً فى وقت ، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلةً للفاسد بالفاسد ، كما تقدم عن ابن عباس . وقوله " كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم " يبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول . وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى " الذين لا يعلمون " فقال الربيع بن أنس وقتادة : قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال السدى فهُمُ العرب ، قالوا : ليس محمد على شيء . واختار ابن جرير أنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعيّن واحداً من هذه الأقوال . فالحمل على الجميع أولى . والله أعلم . وقوله تعالى " فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون" أى : أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة . وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد ﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ قل يجمعُ بيننا ربنا ثم يفتحُ بيننا بالحقّ وهو الفتاح العليم ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ، أُولَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ . لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿١١٤﴾

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها ، على قولين : أحدهما ما رواه العوفى فى تفسيره عن ابن عباس قال : هم النصارى. وعن قتادة : هو بختنصر وأصحابُه ، خرّب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى . القول الثانى : ما رواه ابن جرير عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طوًى وهادنهم ، وقال لهم : ما كان أحدٌ يُصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده ، فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باقٍ . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : « أن قريشاً منعوا النبى صلى الله عليه وسلم الصلاةَ عند الكعبة فى المسجد الحرام ، فأنزل الله " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه" » . ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشاً لم تسعَ فى خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس . قلت : والذى يظهر – والله أعلم – القول الثانى ، كما قاله ابن زيد وروى عن ابن عباس . لأن النصارى إذْ منعت اليهودَ الصلاةَ فى البيت المقدس كان دينُهم أقومَ من دين اليهود، وكانوا أقربَ منهم ، ولم يكن ذكرُ الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك ، لأنهم لعنوا من قبلُ على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وأيضاً : فإنه تعالى لما وجّه الذمّ فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين، الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام . وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟! أخرجوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم . كما قال تعالى : ﴿ وما لهم ألاّ يعذبهم الله وهم

يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إنْ أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ . وقال تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ،أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون* إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ . فقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ . فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها فأىّ خراب لها أعظم من ذلك ؟! وليس المراد بعمارتها زخرفتُها وإقامةُ صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى " أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين " هذا خبر معناه الطلب ، أى : لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية . ولهذا لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منًى : « ألا لا يحجنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته » . وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ . وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحدٌ منهم إلا خائفاً ، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إنْ لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد ، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان ، وأن يُجلَى اليهودُ والنصارى منها . ولله الحمد والمنة . وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام ، وتطهير البقعة التى بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، صلوات الله عليه . وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا ،

لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما صَدُّوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدُّوا عنه ، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها . " ولهم فى الآخرة عذاب عظيم " على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه ، من نصب الأصنام حوله ، والدعاء إلى غير الله عنده ، والطواف به عرياً ، وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله . وأما من فسر بيت المقدس، فهذا لا ينفى أن يكون داخلاً فى معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا بيتَ المقدس بامتهان الصخرة التى كانت يُصلى إليها اليهود ، عوقبوا شرعاً وقدراً بالذلة فيه ، إلا فى أحيان من الدهر امتُحِن بهم بيت المقدس . وكذلك اليهود لما عصَوا الله فيه أيضاً أعظمَ من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظمَ . والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزىَ فى الدنيا بخروج المهدى . وفسره قتادة بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . والصحيح : أن الخزى فى الدنيا أعمُّ من ذلك كله . وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، فروى الإمام أحمد عن بُسْر بن أرْطأة ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » . وهذا حديث حسن ، وليس فى شىء من الكتب الستة[1] .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥)

وهذا — والله أعلم — فيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه ، فلما قدم المدينة وُجِّه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعدُ . ولهذا يقول

---

(١) المسند : ١٧٧٠٥ . ورواه البخارى فى التاريخ الكبير ١ / ٢ / ١٢٢ - ١٢٣ بالإشارة إليه كعادته فيه . وذكره الهيثمى فى الزوائد ١٠ : ١٧٨ ، ونسبه لأحمد والطبرانى ، وقال : « ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبرانى ثقات » .

تعالى " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " . روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ : عن ابن عباس قال : « أول ما نسخ من القرآن — فيما ذكر لنا والله أعلم — شأنُ القبلة ، قال الله تعالى " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحوَ بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها، فقال : ﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ »[1]. وقال ابنُ أبي حاتم — بعد روايته الأثرَ المتقدمَ عن ابن عباس فى نسخ القبلة عن عطاء عنه — : وروى عن أبى العالية والحسن وعطاء الخراسانى وعكرمة وقتادة والسدّى وزيد بن أسلم نحوُ ذلك . وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرضَ التوجهَ إلى الكعبة ، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤا من نواحى المشرق والمغرب ، لأنهم لا يوجهون وجوهَهم وجهاً من ذلك وناحيةً إلاّ كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية ، لأن له تعالى المشارقَ والمغاربَ ، وأنه لا يخلو منه مكان ، كما قال تعالى : ﴿ولا أدنَى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا﴾ . قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجهَ إلى المسجد الحرام . هكذا قال . وفى قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان — إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فإن علمه تعالى محيطٌ بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً[2]. قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية

---

(١) إسناده صحيح . ورواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٦٧ — ٢٦٨ ، من طريق ابن جريج . وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه بهذه السياقة » . ووافقه الذهبى . ولكن سقط أول إسناده إلى ابن جريج من نسخة المستدرك ، وموضعه هناك بياض . ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٢ : ١٢ ، عن الحاكم من طريق ابن جريج . فيستفاد أول إسناد الحاكم من سنن البيهقى — فى موضع ذاك البياض . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٠٨ ، وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبى حاتم . ورواية ابن أبى حاتم أشار إليها ابن كثير — بعد هذه الرواية .

(٢) لا يفهم من كلام الطبرى إلا الوجه الأول الصحيح . وقد صرح بذلك فى تفسير سورة المجادلة (٢٨ : ١٠ طبعة بولاق) . ولكن هذه الشبهة إنما جاءت بما غلب على الناس من اصطلاحات علماء الكلام المتأخرين ، حتى تكاد تخرج العربية عن دلالتها الصحيحة .

على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذناً من الله أن يصلى المتطوعُ حيث توجّه من شرق أو غرب فى مسيره فى سفره ، وفى حال المسايفة وشدة الخوف . ثم رَوى عن ابن عمر : « أنه كان يصلى حيثُ توجهتْ به راحلته ، ويذكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك . ويتأول هذه الآية " فأينما تولوا فثم وجه الله" » . ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه[١]. وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة ، من غير ذكر الآية . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر : « أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصَفها ، ثم قال : فإن كان خوفٌ أشد من ذلك صلّوْا رجالا قياماً على أقدامهم ، وركباناً ، مستقبلى القبلة وغيرَ مستقبليها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلاّ عن النبى صلى الله عليه وسلم » .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلتْ هذه الآيةُ فى قوم عُمّيَت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها ، فصلّوْا على أنحاء مختلفة ، فقال الله تعالى : لى المشارقُ والمغاربُ ، فأين ولّيتم وجوهكم فهنالك وجهى ، وهو قبلتكم ، فعليكم بذلك ، إنّ صلاتَكم ماضيةٌ . [ثم ذكر حديثاً ضعيفاً رواه الطبرى فى هذا . وأبان ابن كثير عن ضعفه جدًّا] .

وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلةٌ » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[٢]. وقال : وقد رُوى عن غير واحد من الصحابة : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » ، منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس . وقال ابن عمر : إذا جعلتَ المغربَ عن يمينك والمشرقَ عن يسارك فما بينهما قبلة إذا استقبلتَ القبلة[٣]. قال ابن جرير :

---

(١) صحيح مسلم ١ : ١٩٥ . ورواه أيضاً أحمد فى المسند : ٤٧١٤ ، ٥٠٠١ .

(٢) الترمذى ١ : ٣٤٤ (٢ : ١٧٣ بشرحنا) . ورواه ابن ماجة . ونسبه السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٠٩ لابن أبى شيبة أيضاً .

(٣) وروى الحاكم ١ : ٢٠٥ ، عن ابن عمر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » . وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وكذلك رواه الدارقطنى والبيهقى. وهذا اللفظ عام وخاص : عام لرفع الحرج عن تحرى عين القبلة لمن هو ناء عنها ، يكفى أن يتجه

ويحتمل : فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهنالك وجهى أستجيبُ لكم دعاءكم . ثم روى عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ ، قالوا : إلى أين ؟ فنزلت " فأينما تولوا فثم وجه الله " . قال ابن جرير : ويعنى بقوله " إنّ الله واسع عليم " يَسعُ خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود . وأما قوله " عليم " فإنه يعنى : عليم بأعمالهم ، ما يغيب عنه منها شىء ، ولا تعزُب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ ، بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿١١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتى قبلها على الرد على النصارى — عليهم لعائن الله — وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ، ممن جعل الملائكة بنات الله . فأكذبَ اللهُ جميعَهم فى دعواهم وقولهم إنّ لله ولداً ، فقال تعالى " سبحانه " أى : تعالى وتقدّس وتنزّه عن ذلك علوًّا كبيراً " بل له ما فى السموات والأرض " أى : ليس الأمر كما افترَوْا ، وإنما له ملك السموات والأرض ، وهو المتصرف فيهم ، وهو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم ومسخّرهم ومسيّرهم ومصرّفهم كما يشاء . والجميع عبيدٌ له وملكٌ له ، فكيف يكون له ولد منهم ؟ والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين . وهو تبارك وتعالى ليس له نظيرٌ ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ، ولا صاحبةَ له ، فكيف يكون له ولد ؟ ! كما قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن

= نحو القبلة . وخاص بالجهات التى شمالى مكة وجنوبيها ، كالمدينة واليمن . أما الجهات التى تكون شرقى مكة فإنما يتجهون لجهة الغرب ، كبلاد نجد مثلا ، والتى تكون غربيها فإنما يتجهون لجهة الشرق ، كجدة والسودان مثلا . . وما كان بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، فإنهم يتجهون إلى الجهة التى تواجه مكة من قبلهم ، كما هو البديهى الذى لا يحتاج إلى دليل .

ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ . وقال تعالى: ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . فقرّر تعالى فى هذه الآيات الكريمة : أنه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقةٌ له مربوبةٌ ، فكيف يكون له منها ولد ؟ ! ولهذا روى البخارى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : كذّبنى ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدرُ أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله لى ولد ، فسبحانى أن أتخذ صاحبةً أو ولداً » . انفرد به البخارى من هذا الوجه[1] . وروى ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : كذّبنى ابنُ آدم ولم ينبغ له أن يكذبنى ، وشتمنى ولم ينبغ له أن يشتمنى ، فأما تكذيبه إيّاى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أوّل الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولداً ، وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »[2]. وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحد أصبرُ على أذًى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم »[3]. وقوله "كل له قانتون" قال عكرمة: مقرّون له بالعبودية . وقال سعيد بن جبير : الإخلاص . وقال مجاهد : مطيعون ، طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره . وهذا القول عن مجاهد — وهو اختيار ابن جرير — يجمع الأقوال كلها . وهو : أن القنوت هو الطاعةُ والاستكانة إلى

---

(١) ٨ : ١٢٨ من الفتح .

(٢) ورواه البخارى أيضاً ٨ : ٥٦٨ . ونسبه السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٠٩ إليهما وإلى البيهقى فى الأسماء والصفات .

(٣) البخارى ١٣ : ٣٠٥ (فتح) . ومسلم ٢ : ٣٤٤ . من حديث أبى موسى الأشعرى .

الله . وذلك شرعىّ وقدرىّ . كما قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ .

وقوله تعالى " بديع السموات والأرض " أى : خالقهما على غير مثال سبق . قاله مجاهد والسدى ، وهو مقتضى اللغة . ومنه يقال للشىء المحدَث « بدعة » . كما جاء فى الصحيح لمسلم : « فإن كل محدَثة بدعة » . والبدعة على قسمين : تارةً تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وتارة تكون بدعةً لغوية ، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعةُ هذه . وقال ابن جرير : و"بديع السموات والأرض" مبدعهما . وإنما هو « مُفْعِل » فصرف إلى « فعيل » . كما صُرف المؤلم إلى الأليم ، والمسمع إلى السميع . ومعنى البديع : المنشئ والمحدثُ ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحدٌ . قال : ولذلك سمى المبتدعُ فى الدين مبتدعاً ، لإحداثه فيه مالم يسبقه إليه غيره . وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً لم يتقدمه فيه متقدّم ، فإن العرب تسميه « مبتدعاً » . قال ابن جرير : فمعنى الكلام : سبحان الله ، أنّى يكون له ولد وهو مالك ما فى السموات والأرض ، تشهد له جميعها — بدلالتها عليه — بالوحدانية ، وتقرّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدُها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله عبادَه أن ممن يشهد له بذلك المسيحُ الذى أضافوا إلى الله بنوّته ، وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال — هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته . وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة . وقوله تعالى " وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون " يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونَه فإنما يقول له "كن" أى : مرةً واحدة " فيكون " أى : فيوجد على وفق ما أراد . كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح

بالبصر ﴾ . ونبه تعالى بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة " كن " فكان كما أمره الله . قال الله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ، كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨)

روى محمد بن إسحق عن ابن عباس ، قال : « قال رافع بن حُرَيْملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد إن كنتَ رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمعَ كلامه ! فأنزل الله في ذلك من قوله " وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية " ». وقال مجاهد : النصارى تقوله . وهو اختيار بن جرير . قال : لأن السياق فيهم . وفى ذلك نظر . وقال أبو العالية والربيع ابن أنس وقتادة والسدى في تفسير هذه الآية : هذا قول كفار العرب ، و " الذين من قبلهم " : هم اليهود والنصارى . ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب — قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ۚ الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاته ، سيصيب الذين أجرموا صَغارٌ عند الله وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تفجُرَ لنا من الأرض يَنبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيراً * أو تسقطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قَبيلاً * أو يكون لك بيتٌ من زُخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرُقيك حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنتُ إلاّ بشراً رسولاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يَرْجون لقاءَنا

(١) الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام . وآخرها من قوله « الله أعلم حيث يجعل رسالاته . . . » — لم يذكر في المطبوعة ، وهو ثابت في المخطوطة . وقوله « رسالاته » — بالجمع . هكذا ثبت فيها . وقراءة عبد الله بن كثير وحفص « رسالته » — بالإفراد . وقرأ باقى القراء السبعة بالجمع .

لولا أنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربّنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتَوْا عتُوّاً كبيراً ﴾. وقوله : ﴿ بل يريد كل امرئٍ منهم أن يُؤتى صحفاً منشرة ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوّهم وعنادهم وسؤالهم مالا حاجة لهم به . إنما هو الكفر والمعاندة ، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم . كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذْ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ﴾ .

وقوله " تشابهت قلوبهم " أى : أشبهت قلوبُ مشركى العرب قلوبَ من تقدمهم فى الكفر والعناد والعتوّ . كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به ، بل هم قوم طاغُون ﴾ . وقوله " قد بينا الآيات لقوم يوقنون " أى : قد وضّحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يُحتاج معها إلى سؤالٍ آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدّق واتبع الرسل وفهمَ ما جاؤا به من الله تبارك وتعالى . وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوةً فأولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يرَوُا العذابَ الأليم ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (١١٩)

روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنزلت علىّ " إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً " قال : بشيراً بالجنة ، ونذيراً من النار »(١).

---

(١) إسناده ليس بالقوى . فيه « عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزارى العرزمى » : روى ابن أبى حاتم ٢ / ٢ / ٢٨٢ عن أبيه قال : « ليس بقوى » . وفى لسان الميزان ٣ : ٤٢٨ — ٤٢٩ أنه ضعفه الدارقطنى وذكره ابن حبان فى الثقات . والغالب فى هذا الحديث أن يكون من كلام ابن عباس .

وقوله " ولا تسئل عن أصحاب الجحيم " قراءة أكثرهم " ولا تُسئل " بضم التاء على الخبر. وقرأ آخرون " ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم " بفتح التاء على النهى . أى : لا تسألْ عن حالهم[١] .

وروى أحمد عن عطاء بن يسار ، قال : « لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرْنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ؟ فقال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، وحرْزاً للأميين ، وأنتَ عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لا فظّ ولا غليظ ولا سَخابٌ فى الأسواق ، ولا يَدفع بالسيئة السيئةَ ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملةَ العوجاءَ ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتحَ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمًّا ، وقلوباً غُلفاً » . انفرد بإخراجه البخارى . ورواه ابن مردويه[٢] .

---

(١) هذه قراءة نافع . والأولى قراءة باقى السبعة . ثم ذكر ابن كثير هنا حديثين مرسلين ضعيفين جدا ، من رواية عبد الرزاق ورواية الطبرى : أن سبب نزول هذه الآية سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عما فعل أبواه ؟ ثم نقل عن القرطبى « أن الله أحيا أبويه حتى آمنا به » . ثم قال ابن كثير : « والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام ــ ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها . وإسناده ضعيف » . وهو كما قال . وما نقله عن القرطبى والرد عليه ليس فى المخطوطة الأزهرية .

(٢) هو فى المسند : ٦٦٢٢ . وفى البخارى ٤ : ٢٨٧ – ٢٨٨ (فتح) . وفى الأدب المفرد ، ص : ٣٨ – ٣٩ . وطبقات ابن سعد ١ / ٢ / ٨٨ . وذكره ابن كثير أيضاً من رواية المسند هذه ، عند تفسير الآية : ٤٥ من سورة الأحزاب ، وزاد نسبته لابن أبى حاتم . وذكره أيضاً عند تفسير الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف ، من رواية الطبرى .

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٢١)

قال ابن جرير : يعنى بقوله جل ثناؤه "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم" - : وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلبَ ما يُرضيهم ويوافقهم ، وأقبلْ على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق . وقوله تعالى " قل إنّ هدى الله هو الهدى " أى : قل يا محمد : إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى ، يعنى : هو الدين المستقيم الصحيحُ الكامل الشامل . " ولئن اتبعتَ أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير " فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتّباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة ، عياذاً بالله من ذلك . فإن الخطابَ مع الرسول والأمرَ لأمته [1].

---

(١) عصم الله المسلمين ، منذ أن هداهم الله للإسلام إلى قريب من عصرنا هذا - من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارى ، إلا ما يكون من حوادث فردية ، أكثرها من المعاصى العملية . ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى ، فزادوا فى التشبه بهم قليلا قليلا . ثم وجد من أهم العلم فيهم ومن أهل الرأى - من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع ، فصاروا يتقربون شيئاً فشيئاً لسادتهم ، بتأويل القرآن والسنة ، وتحريف معانيهما ، ليقاربوا بين شريعتهم المطهرة ، وشرائع تلك الأمم الضالة والمغضوب عليها . بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا . فكان فى علمائنا وكتابنا من ينكر الغيب أو أكثره ، فيتأولون صفة الملائكة ، ووصف الجن ، وينكرون المعجزات النبوية عامة - لأنها لم ترد فى القرآن ، زعموا ! ثم يحرفون المعنى فيما ثبت منها فى القرآن أو السنة المتواترة . ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة . ثم استباحوا أكثر المحرمات ، يصرحون بإباحتها عن غير حياء ولا غيرة . ثم صاروا ينبزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية ، لينفروا الناس منها . وقامت فى عصرنا هذا الدعوة سافرة وقحة إلى تغيير الشريعة النقية فى تعدد الزوجات والطلاق والمواريث . بل إن بعض من يحمل شهادة العالمية من الأزهر كتب فى الصحف عن غير حياء =

وقوله " الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته " عن قتادة : هم اليهود والنصارى . وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . واختاره ابن جرير. وروى عن قتادة : هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال أبو العالية : قال ابن مسعود : والذى نفسى بيده ، إن حق تلاوته : أن يحلّ حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرّفَ الكلمَ عن مواضعه ، ولا يتأوّلَ منه شيئاً على غير تأويله . وكذا رواه عبد الرزّاق . وعن ابن عباس قال : يتبعونه حق اتباعه. ثم قرأ : ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ ، يقول : اتّبعها . ورُوى عن عكرمة وعطاء ومجاهد نحو ذلك .

وقوله " أولئك يؤمنون به " خبر عن " الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته " أى : من أقام كتابه من أهل الكتب المنزّلة على الأنبياء المتقدّمين حقّ إقامته ـــ آمنَ بما أرسلتك به يا محمد . كما قال تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراةَ والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، الآية . وقال : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ . أى : إذا أقمتموها حقّ الإقامة ، وآمنتم بها حقّ الإيمان ، وصدّقتم ما فيها من الإخبار بمبعث محمد صلى الله عليه عليه وسلم ونعته وصفته والأمرِ باتباعه ونصره ومؤازرته ـــ قادكم ذلك إلى الحقّ واتباعِ الخير فى الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ النبىّ الأمىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، الآية . وقال تعالى :

= «أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات» ! وضعف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه ، خشية أن يغضب من وراءه ومن ينصره فى كفره وافترائه على الله . وحتى إن بعض الصحف القوية الماجنة الداعرة لتدعوا إلى الزنا علناً ، دون أن يردعها أحد . بل إن بعضهم ليصرح بمنع العلماء من الكتابة فى هذه المسائل « الاجتماعية » . والصحف الأخرى لا ترضى أن تنشر لأحد من العلماء دفعاً لهذا الكفر البواح . بل إن نسواناً ماجنات فاجرات ينشرن فى الصحف الدعوة السافرة إلى الفجور ، بعد انتشار السفور . فلئن لم يدفع المسلمون ـــ أو المنتسبون للإسلام ـــ هذه المنكرات عن دينهم وعن بلادهم ، ليسلطن الله عليهم عدوهم ، وليستأصلن شأفتهم ، وليستبدلن بهم قوماً غيرهم ، ثم لن يكونوا أمثالهم .

﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلمَ من قبله إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجداً ويقولون سبحانَ ربنا إنْ كان وعدُ ربنا لمفعولاً ﴾ . أى : إن كان ما وعدَنا به من شأن محمد صلى الله عليه وسلم لواقعاً . وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين* أولئك يُؤْتَوْن أجرَهم مرّتين بما صَبرُوا، وَيدْرَؤُن بالحسنة السيئةَ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتابَ والأميين أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوْا ، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغُ ، واللهُ بصير بالعباد ﴾ . ولهذا قال تعالى " ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون " كما قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعدُه ﴾ . وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده ، لا يسمعُ بى أحدٌ من هذه الأمة ، يهودىّ ولا نصرانى ، ثم لا يؤمنُ بى – إلاّ دخل النار » [١].

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿١٢٣﴾

قد تقدّم نظيرُ هذه الآية فى صدر السورة [٢] . وكرّرت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمى الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعته واسمَه وأمرَه وأمته . يحذّرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمةَ الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتمِ منهم، ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

---

(١) هو فى صحيح مسلم ١ : ٥٣ – ٥٤ ، بنحوه ، من حديث أبى هريرة .
(٢) مضى فى الآية : ٤٧ ، ص : ٤٧ .

ربع

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١٢٤)

يقول تعالى منبهاً على شرف إبرهيم خليله عليه السلام ، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يُقتدَى به فى التوحيد ، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهى . ولهذا قال " وإذ ابتلى إبرهيم ربه بكلمات " أى : واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبرهيم وليسوا عليها ، وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين – اذكر لهؤلاء ابتلاءَ الله إبرهيم ، أى : اختبارَه له بما كلفه به من الأوامر والنواهى " فأتمهنّ " أى : قام بهنّ كلهن . كما قال تعالى : ﴿ وإبرهيم الذى وفّىٰ ﴾ ، أى : وفّى جميع ما شُرع له فعمل به ، صلواتُ الله عليه . وقال تعالى : ﴿ إن إبرهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنةً وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبعْ ملةَ إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملةَ إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ما كان إبرهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبرهيم للذين اتبعوه وهذا النبىّ والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾ .

وقوله تعالى " بكلمات " أى : بشرائع وأوامرَ ونَواهٍ . فإن " الكلمات " تطلق ويراد بها الكلماتُ القدرية ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام : ﴿ وصدّقتْ بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ . وتطلق ويراد بها الشرعية ، كقوله تعالى : ﴿ وتمتْ كلماتُ ربك صدقاً وعدلاً ﴾[1] . أى

(١) الآية : ١١٥ من سورة الأنعام . وقراءة حمزة والكسائى وعاصم – الذى حفص أحد رواته – « كلمة » بالإفراد . وقرأ باقى العشرة « كلمات » بالجمع . وهى التى أثبتها الحافظ المؤلف هنا وفسرها بمعنى الجمع . وكذلك ثبتت فى المخطوطة الأزهرية . وغيرت فى المطبوعة إلى « كلمة » على قراءة حفص المعروفة .

كلماته الشرعية . وهى : إما خبرٌ صدق ، وإما طلبٌ عدل إن كان أمراً أو نهياً . ومن ذلك هذه الآية الكريمة "وإذ ابتلى إبرهيمَ ربه بكلمات فأتمهن" . أى : قام بهنّ " قال إنى جاعلك للناس إماماً " أى : جزاءً على ما فعل ، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوةً وإماماً يقتدَى به ويحتذَى حَذْوُه .

وقد اختُلف فى تعيين الكلمات التى اختبرَ اللهُ بها إبرهيمَ الخليل عليه السلام : فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات : فرُوى عنه : ابتلاه الله بالمناسك . وروى عنه : ابتلاه بالطهارة ، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفَرْق الرأس ، وفى الجسد : تقليمُ الأظافر وحلقُ العانة والختان ونتف الإبْط وغسل أثر الغائط والبول بالماء [1] . قلت : وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَشْرٌ من الفطرة : قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقصّ الأظافر وَغسل البرَاجم ونتف الإبط وحلقُ العانة وانتقاصُ الماء » . قال مصعَب : ونسيتُ العاشرة ، إلا أن تكون المضمضة . قال وكيع : انتقاص الماء ، يعنى الاستنجاء . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس : الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط » . ولفظه لمسلم . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية ، قال : عشر ، ستّ فى الإنسان وأربعٌ فى المشاعر ، فأما التى فى الإنسان : فحلق العانة ونتف الإبط والختان ، وكان ابن هبيرة يقول : هؤلاء الثلاثة واحدة ، وتقليم الأظفار وقص الشارب والسواك وغُسل يوم الجمعة ، والأربعة التى فى المشاعر : الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة [2] . وعن عكرمة عن ابن

---

(١) رواه الطبرى : ١٩١٠ ، والحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٦٦ ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

(٢) إسناد ابن أبى حاتم – فى هذا – لابن عباس ، إسناد صحيح .

عباس أنه قال : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كلّه إلا إبرهيم ، قال الله تعالى : "وإذا ابتلى إبرهيم ربه بكلمات فأتمهن" قلت له : وما الكلمات التى ابتلى الله إبرهيم بهن فأتمهنّ ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً ، منها عشر آيات فى براءة : ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية ، وعشر آيات فى أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ ، وعشر آيات فى الأحزاب : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهنّ كلهن ، فكُتب له براءةٌ ، قال الله: ﴿ وإبرهيم الذى وفّىٰ ﴾ . رواه الحاكم وابن جرير وابن أبى حاتم ، وهذا لفظ ابن أبى حاتم . وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : ابتلاه بالكواكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . [ثم نقل الحافظ ابن كثير روايات هنا من الطبرى ومن غيره ، عن مجاهد وعن غيره ، فيها آراء مختلفة . ثم قال] :

قال ابن جرير ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميعُ ما ذُكر ، وجائز أن يكون بعضُ ذلك . ولا يجوز الجزمُ بشىء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع . قال : ولم يصحّ فى ذلك خبرٌ بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجبُ التسليم له .

[ثم حكى كلاماً للطبرى ، فيه احتمال لترجيح ما روى عن مجاهد وبعض من تابعه . ثم قال ابن كثير] : والذى قاله أوّلاً [يعنى ابنَ جرير] — من أنّ الكلمات تشمل جميعَ ما ذُكر — أقوى من هذا الذى جوّزه من قول مجاهد ومن قال مثله ، لأنّ السياق يعطى غير ما قالوه . والله أعلم .

وقوله "قال ومن ذرّيتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين" لما جعل الله إبرهيم إماماً سأل أن تكون الأئمةُ من بعده من ذرّيته ، فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهدُ الله ولا يكونون أئمةً ، فلا يقتدَى بهم . والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ وجعلنا فى ذرّيته النبوّةَ والكتابَ ﴾ ، فكل نبى أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله بعد

إبرهيم – فى ذرّيته ، صلوات الله وسلامه عليه . وأما قوله " قال لا ينال عهدى الظالمين " فقال ابن عباس : يخبرُه أنه كائنٌ فى ذرّيته ظالمٌ لا ينال عهدَه ، ولا ينبغى أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرّية خليله . ومحسنٌ ستنفذُ فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسئلته . [ونقل الحافظ أقوالاً كثيرة متقاربة المعنى . ثم قال] : فهذه أقوالُ مفسّرى السلف فى هذه الآية على ما نقله ابن جرير وابن أبى حاتم . واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانتْ ظاهرةً فى الخبر أنه لا ينال عهدُ الله بالإمامة ظالماً – ففيها إعلامٌ من الله لإبرهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذرّيتك من هو ظالم لنفسه .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال ابن عباس : قوله تعالى " وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس " يقول : لا يَقضُون منه وَطراً ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . " وأمناً " قال أبو العالية : أمناً من العدوّ وأن يحمل فيه السلاح ، وقد كانوا فى الجاهلية يُتخطَّف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسْبَوْن .

ومضمون ما فسَّر به الأئمةُ هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقَدَراً ، من كونه مثابةً للناس ، أى : جعله محلاً تشتاق إليه الأرواحُ وتحنّ إليه ، ولا تَقضى منه وطراً ولو تردّدتْ إليه كل عام ، استجابةً من الله تعالى لدعاء خليله إبرهيم عليه السلام فى قوله : ﴿ فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوى إليهم ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ربنا وتقبل دعائى ﴾ . ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً ، من دخله أمنَ ، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يَعرضُ له ، كما وصفها فى سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ . أى : يدفع عنهم بسبب تعظيمها السُّوءَ ، كما قال ابن عباس : لو لم يحجّ الناسُ هذا البيتَ لأطبق الله السماءَ على الأرض . وما هذا الشرفُ إلاّ لشرف بانيه أوّلاً ، وهو خليل الرحمن ، كما قال تعالى :

﴿ وإذ بوّأنا لإبرهيم مكانَ البيت أن لا تشركْ بى شيئاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن أوّل بيت وُضعَ للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبرهيم ، ومن دخله كان آمناً ﴾ . وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبرهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال " واتخذوا من مقام إبرهيم مصلى " .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمَقَام ما هو ؟ فروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : مقام إبرهيم الحرمُ كله . ورَوَى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك . وقال سعيد بن جُبير : الحجر مقامُ إبرهيم نبى الله قد جعله الله رحمةً ، فكان يقومُ عليه ويناولُه إسمعيل الحجارةَ . وروى ابن أبى حاتم عن جابر ، فى حديثه عن حجة النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لما طاف النبى صلى الله عليه وسلم قال له عمر : هذا مقامُ أبينا ؟ قال : نعم ، قال : أفلا نَتَّخذه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل "واتخذوا من مقام إبرهيم مصلى" » . وروى ابن مردويه عن عمر بن الخطاب : « أنه مرّ بمقام إبرهيم ، فقال : يا رسول الله ، أليس تقوم بمقام خليل ربنا ؟ قال : بلى ، قال : أفلا نتخذه مصلى ؟ فلم يلبثْ إلا يسيراً حتى نزلتْ "واتخذوا من مقام إبرهيم مصلى » . وروى البخارى عن أنس بن مالك ، قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقتُ ربى فى ثلاث ، أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذتَ من مقام ابرهيم مصلى ؟ فنزلت " واتخذوا من مَقام إبرهيم مصلى " وقلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البرّ والفاجرُ ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغنى معاتبةُ النبى صلى الله عليه وسلم بعضَ نسائه ، فدخلت عليهنّ ، فقلت إنِ انتهيتُنّ أو ليبدلَنّ الله رسولهَ خيراً منكنّ ، حتى أتت إحدى نسائه فقالت : يا عمر ، أما فى رسول الله ما يعظُ نساءه حتى تَعظهنّ أنت ؟ فأنزل الله : ﴿عسى ربه إن طلقكنّ أنْ يُبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة . وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه الإمام على بن المدينى ، وقال : هذا من صحيح الحديث[1] . وروى مسلم

---

(١) فتح البارى ٨ : ١٢٨ . ومسند أحمد : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ٢٥٠ . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١١٨ ، وخرجه من دواوين كثيرة .

عن ابن عمر عن عمر ، قال : « وافقت ربى فى ثلاث : فى الحجاب ، وفى أسارى بدر ، وفى مقام إبرهيم »[١] . وروى أبو حاتم الرازى عن أنس بن مالك قال : قال قال عمر بن الخطاب : « وافقنى ربى فى ثلاث ، أو وافقتُ ربى فى ثلاث : قلت : يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقام إبرهيم مصلى ؟ فنزلت " واتخذوا من مقام إبرهيم مصلى " وقلت : يا رسول الله ، لو حجبتَ النساء ؟ فنزلتْ آيةُ الحجاب ، والثالثة : لما مات عبد الله بن أبىّ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، قلت : يا رسول الله ، تصلى على هذا الكافر المنافق ؟ فقال : إيهاً عنك يا ابن الخطاب ، فنزلت : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ » . وإسناده صحيح أيضاً . ولا تعارض بين هذا ولا هذا ، بل الكل صحيح . ومفهوم العدَدِ إذا عارضه منطوقٌ قُدّم عليه . والله أعلم .

وروى ابن جرير عن جابر ، قال : « استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركنَ ، فرملَ ثلاثاً ومشى أربعةً ، ثم نفذَ إلى مقام إبرهيم فقرأ " واتخذوا من مقام إبرهيم مصلى " فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين » . وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه[٢] . وروى البخارى عن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن عمر يقول : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين » . فهذا كله مما يدل على أنّ المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبرهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار أتاه إسمعيل عليه السلام به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، كلما كمل ناحيةً انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها ، وهكذا حتى تم جدارات الكعبة ، كما سيأتى بيانه فى قصة إبرهيم وإسمعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارى . وكانت

---

(١) صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ .

(٢) الطبرى : ٢٠٠٣ . والحديث بطوله فى صحيح مسلم ١ : ٣٤٦ - ٣٤٧ . وكذلك رواه أحمد فى المسند : ١٤٤٩٤ .

آثار قدميه ظاهرةً فيه ، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب فى جاهليتها . ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المعروفة :

وموطىء إبرهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غيرَ ناعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً . كما روى ابن وهب عن أنس بن مالك، قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأَخْمَصُ قدميه ، غير أنه أذهبه مَسحُ الناس بأيديهم . وروى ابن جرير عن قتادة : إنما أُمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلّفت هذه الأمة شيئاً ما تكلّفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عَقبه وأصابعه فيه ، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوْلق وانمحى . قلت : وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليومَ إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنةَ الداخل من الباب فى البقعة المستقلّة هناك . وكأنّ الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضَعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك . ولهذا — والله أعلم — أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبرهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . وإنما أخّره عن جدار الكعبة أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحدُ الأئمة المهديّين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتّباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذَين من بعدى : أبى بكر وعمر » ، وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحدٌ من الصحابة ، رضى الله عنهم أجمعين . وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن الحسين البيهقى عن عائشة : « أن المقام كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر ملتصقاً بالبيت ، ثم أخّره عمر بن الخطاب » . وإسناده صحيح .

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ، قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ، إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

قال الحسن البصرى : قوله " وعهدنا إلى إبرهيم وإسمعيل " قال : أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شيء . والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّىَ بـ « إلى » لأنه فى معنى : تقدّمنا وأوحينا [1] . وقال مجاهد وسعيد بن جبير "طهرا بيتى للطائفين" : أن ذلك من الأوثان والرَّيْب[2] وقول الزور والرجس. وأما قوله تعالى " للطائفين " فالطواف بالبيت معروف . وعن سعيد بن جبير أنه قال : " للطائفين " يعنى : من أتاه من غربة ؟ " والعاكفين " المقيمين فيه . وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه. كما قال سعيد بن جبير، وروى ابن أبى حاتم عن ثابت، قال : قلت لعبد الله بن عُبيد بن عُمير : ما أرانى إلاّ مكلم الأمير أن امنع الذين ينامون فى المسجد الحرام فإنهم يُجنبون ويُحدثون، قال : لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم العاكفون . قلت : وقد ثبت فى الصحيح أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عَزَبٌ . وأما قوله تعالى " والركع السجود " فقال ابن عباس : إذا كان مصلياً فهو من الركّع السجود . وكذا قال عطاء وقتادة .

---

(١) هكذا ثبت فى المخطوطة والمطبوعة « وأوحينا » بالحاء . ولقد يبدو لى أن صوابها « وأوصينا » بالصاد . لأن من معنى « العهد » : التقدم إلى المرء فى الشىء ، ومن معناه أيضاً : الوصية . انظر اللسان وغيره من المعاجم .

(٢) « الريب » هنا : الشر والخوف . انظر الطبرى ٣ : ٣٩ . وهذا هو الثابت فى الأزهرية . وفى المطبوعة « والرفث » ! وهو تصحيف .

وقال ابن جرير : فمعنى الآية : وأمرنا إبرهيم وإسمعيل بتطهير بيتى للطائفين ، والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك . ثم أورد سؤالاً فقال : فإن قيل : فهل كان قبل بناء إبرهيم عند البيت شيء من ذلك الذى أمر بتطهيره منه ؟ وأجاب بوجهين : أحدهما : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يُعبد عنده زمانَ قوم نوح من الأصنام والأوثان ، ليكون ذلك سنةً لمن بعدهما ، إذْ كان الله تعالى قد جعل إبرهيم إماماً يقتدَى به ، كما قال عبد الرحمن بن زيد " أن طهرا بيتى " قال : من الأصنام التى يعبدون ، التى كان المشركون يعظمونها . قلت : وهذا الجواب مفرّع على أنه كان يعبد عندَه أصنامٌ قبل إبرهيم عليه السلام ، ويحتاج إثباتُ هذا إلى دليل عن المعصوم محمد . والجواب الثانى : أنه أمرهما أن يُخْلصا بناءَه لله وحده لا شريك له ، فيبنياه مطهراً من الشرك والرّيْب ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ أفمن أسَّسَ بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هارٍ ﴾ . قال : فكذلك قوله " وعهدنا إلى إبرهيم وإسمعيل أن طهرا بيتى " أى : ابنياه على طهر من الشرك بى والريب . وملخص هذا الجواب : أن الله تعالى أمر إبرهيم وإسمعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحدَه لا شريك له ، للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود ، كما قال تعالى : ﴿ وإذْ بوّأنا لإبرهيم مكانَ البيت أنْ لا تشركْ بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ ، الآيات . والمراد من ذلك الردّ على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسَّس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك يصدّون أهله المؤمنين عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والباد * ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ . ثم ذكَر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر فى سورة الحج أجزاءَها الثلاثة : قيامَها وركوعَها وسجودَها ، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ . وفى هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين ، واكتفى

بذكر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد عُلم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام . وفى ذلك أيضاً رد على من لا يحجُّه من أهل الكتابين : اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلةَ إبرهيم الخليل وعظمتَه ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف فى الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده ، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك ، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ ! وقد حجّ البيتَ موسى بن عمران وغيرُه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،كما أخبر بذلك المعصومُ الذى لا ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحى يُوحى﴾.

وتقدير الكلام إذاً " وعهدنا إلى إبرهيم وإسمعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود " أى : طهراه من الشرك والرّيب ، وابنياه خالصاً لله ، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية ومن قوله تعالى : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمُه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ . ومن السنة من أحاديث كثيرة ، من الأمر بتطهيرها وتطييبها ، وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال عليه السلام : « إنما بُنيت المساجدُ لما بُنيتْ له »[1] . وقد جمعتُ فى ذلك جزءاً على حدة . ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى " وإذ قال إبرهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر " روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبرهيم حرّم بيتَ الله وآمنه ، وإنى حرّمت المدينةَ ما بين لابَتَيها ، فلا يُصاد صيدُها ، ولا يُقطع عِضَاهُها » . ورواه مسلم والنسائى[2] . وروى ابن جرير أيضاً عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبرهيم كان عبدَ الله

---

(١) رواه مسلم ١ : ١٥٧ - ١٥٨ . وابن ماجة : ٧٦٥ - كلاهما من حديث بريدة الأسلمى .

(٢) الطبرى : ٢٠٢٩ . وإسناده صحيح . ومسلم بنحوه ١ : ٣٨٥ . و « اللابتان » هما الحرتان بجانبى المدينة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود التى قد ألبستها لكثرتها . و « العضاه » بكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة وآخره هاء : كل شجر عظيم له شوك .

وخليله ، وإنى عبدُ الله ورسوله ، وإن إبرهيم حرّم مكة ، وإنى حرمتُ المدينة ما بين لابتيها ، عضاهَها وصيدَها ، لا يُحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يقطع منها شجرة إلا لعَلَف بعير » . وهذه الطريق غريبة ليستْ فى شىء من الكتب الستة [١]. وأصلُ الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى هريرة، قال : «كان الناس إذا رأوا أوّل الثمر جاؤا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لنا فى ثَمَرِنا، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مُدّنا ، اللهم إنّ إبرهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدُك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثلِه معه ، ثم يدعو أصغرَ وليدٍ فيعطيه ذلك الثمر»[٢].

وروى ابن جرير عن رافع بن خَديج، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن إبرهيم حرّم مكة ، وإنى أحرّم ما بين لابتيها » . انفرد بإخراجه مسلم[٣]

[ثم ذكر المؤلف الحافظ أحاديث فى هذا المعنى : عن أنس، من الصحيحين . وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ، منهما . وعن أبى سعيد ، من صحيح مسلم . ثم قال] : والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة . وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبرهيم عليه السلام لمكة ، لما فى ذلك من مطابقة الآية الكريمة .

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرّم مكة قبل خلق السموات والأرض ، كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحلّ القتالُ فيه لأحد قبلى ، ولم يحلّ لى إلا ساعةً من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عَرّفها ، ولا يُختلى خَلاها ، فقال العباس : يا رسول

---

(١) الطبرى : ٢٠٣٠ . وإسناده صحيح. ولم أجده أيضاً فى المسند ولا فى غيره مما استطعت الرجوع إليه من المراجع .

(٢) صحيح مسلم ١ : ٣٨٧ ، من طريق مالك . وهو فى الموطأ ص : ٨٨٥ .

(٣) الطبرى : ٢٠٣١ . وصحيح مسلم ١ : ٣٨٥ .

الله ، إلاّ الإذْخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : إلا الإذخر » . وهذا لفظ مسلم[١] . ولهما عن أبي هريرة نحوٌ من ذلك[٢] .

فإذا عُلم هذا ، فلا منافاةَ بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرّم مكةَ يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أنّ إبرهيم عليه السلام حرّمها ، لأن إبرهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تَزَلْ بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبرهيم عليه السلام لها . كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوباً عند الله خاتم النبيين وإن آدمَ لمُنجدلٌ في طينته. ومع هذا قال إبرهيم عليه السلام: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ ، الآية . وقد أجاب الله دعاءَه بما سبق في علمه وقَدَره . ولهذا جاء في الحديث : « أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن بدء أمرك ؟ فقال : دعوةُ أبي إبرهيم ، وبُشرَى عيسى ابن مريم ، ورأتْ أمي كأنه خرج منها نورٌ أضاءَ له قصورُ الشأم » . أي : أخبرنا عن بدء ظهور أمرك ، كما سيأتي قريباً ، إن شاء الله[٣] .

وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال " رب اجعل هذا بلداً آمناً " أي : من الخوف ، لا يرعب أهله . وقد فعل الله ذلك شرعاً وقَدَراً . كقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ . وقوله : ﴿ أولم يَرَوْا أنا جعلنا حرماً آمناً ويُتخطفُ الناسُ من حولهم ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات . وقد تقدمت الأحاديثُ في في تحريم القتال فيها. وقال في هذه السورة "ربّ اجعلْ هذا بلداً آمناً " أي : اجعل هذه البقعة بلداً آمناً . وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبرهيم : ﴿ وإذْ قال إبرهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ . وناسب هذا هناك ، لأنه — والله أعلم — كأنه وقع دعاءً ثانياً بعد بناء البيت واستقرار أهله به ، وبعد مولد إسحق ، الذي هو أصغر سنًّا من إسمعيل بثلاث عشرة سنة .

---

(١) صحيح مسلم ١ : ٣٨٣ . وانظر الطبري وتخريجنا : ٢٠٢٨ .

(٢) ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر بمعناهما ، من حديث صفية بنت شيبة ، رواه ابن ماجة. وذكره البخاري في الصحيح تعليقاً . ثم حديثاً آخر بهذا المعنى ، من حديث أبي شريح العدوي ، رواه الشيخان .

(٣) عند تفسير الآية : ١٣٩ من هذه السورة .

ولهذا قال فى آخر الدعاء : ﴿ الحمد لله الذى وَهبَ لى على الكبر إسمعيل وإسحق ، إن ربّى لسميع الدعاء ﴾ .

وقوله تعالى " قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطرّه إلى عذاب النار وبئس المصير " قال أبىّ بن كعب : هو قول الله تعالى . وهذا قول مجاهد وعكرمة . وهو الذى صوّبه ابن جرير رحمه الله . وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاعٌ فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نُذيقهم العذابَ الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر فلا يحزُنك كفره ، إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ، إن الله عليم بذات الصدور * نُمتعهم قليلاً ثم نضطرّهم إلى عذاب غليظ ﴾ . وقوله : ﴿ ولولا أن يكون الناسُ أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفاً من فضة ومعارجَ عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزُخرُفاً ، وإن كل ذلك لَمَّا مَتاع الحياة الدنيا ، والآخرةُ عند ربك للمتقين ﴾ . وقوله " ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير " أى : ثم ألجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطنا عليه من ظلها — إلى عذاب النار وبئس المصير . ومعناه : أن الله تعالى يُنظرهم ويمهلهم ، ثم يأخذُهم أخذَ عزيز مقتدر . كقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليتُ لها وهى ظالمةٌ ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾ . وفى الصحيحين : « لا أحد أصْبرُ على أذًى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزُقهم ويعافيهم »[1] . وفى الصحيح أيضاً : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذَه لم يُفلته ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذَ القرى وهى ظالمة ، إن أخذَه أليم شديد ﴾ »[2] .

وأما قوله تعالى " وإذْ يرفع إبرهيم القواعدَ من البيت وإسمعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلميْن لك ومن ذرّيتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم " — فالقواعد : جمع قاعدة ، وهى السارية والأساس . يقول تعالى : واذكر يا محمد لقومك

---

(١) مضى فى ص : ٢٢٢ من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٢) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجة ، من حديث أبى موسى . انظر الفتح ٨ : ٢٦٧ .

بناءَ إبرهيم وإسمعيل عليهما السلام البيتَ ورفعهما القواعدَ منه وهما يقولان : " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " . فهما فى عمل صالح ، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما . كما روى ابن أبى حاتم عن وُهيب بن الوَرْد : أنه قرأ " وإذ يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا " ثم يبكى ويقول : يا خليل الرحمن ، تَرْفع قوائمَ بيت الرحمن وأنت مشفقٌ أن لا يقبل منك[1] . وهذا كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلص فى قوله : ﴿ والذين يُؤتون ما آتوْا ﴾ أى : يُعطون ما أعطوْا من الصدقات والنفقات والقرُبات ﴿ وقلوبهم وَجلة ﴾ أى : خائفة أن لا يتقبل منهم .

وقد روى البخارى ههنا عن ابن عباس قال : « أولُ ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسمعيل ، اتخذتْ مِنطقاً لتعفّى أثرَها على سارةَ ثم جاء بها إبرهيم وبابنها إسمعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت ، عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد[2] ، وليس بمكة يومئذ أحدٌ ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضَع عندهما جراباً فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماء ، ثم قَفل إبرهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسمعيل فقالت : يا إبرهيم ، أين تذهبُ وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنسٌ ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آللهُ أمرَكَ بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذَنْ لا يُضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبرهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونَهُ استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنتُ من ذُرّيتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ ، وجعلت أم إسمعيل ترضع إسمعيل وتشرب من ذلك

---

(١) وهيب بن الورد المكى : من كبار العباد الزاهدين ، من شيوخ عبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض وعبد الرزاق . مات سنة : ١٥٣ . مترجم فى التهذيب . والكبير للبخارى ٤ / ٢ / ١٧٧ . والجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٤ / ٢ / ٣٤ . وله ترجمة حافلة جيدة فى الحلية لأبى نعيم ٨ : ١٤٠ – ١٦١ .

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة .

الماء، حتى إذا نَفِدَ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى – أو قال يتلبّط [١] – فانطلقت كراهيةَ أن تنظرَ إليه ، فوجدت الصّفا أقربَ جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرفَ درْعها ثم سعتْ سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المرْوَة فقامت عليها ، فنظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبعَ مرات ، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم: فلذلك سعى الناسُ بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صَهٍ – تريد نفسَها – ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمَعتَ إن كان عندك غُوَاث [٢] ، فإذا هى بالملَكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه – أو قال: بجناحه – حتى ظهر الماء ، فجعلت تُحوّضُه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تَغرف ، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أمّ إسمعيل ، لو تركت زمزم – أو قال : لو لم تغرف من الماء – لكانت زمزمُ عيناً مَعيناً ، قال: فشربت وأرضعتْ ولدَها ، فقال لها الملَك : لا تخافى الضّيعة ، فإن ههنا بيتاً لله يَبنى [٣] هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يُضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك ، حتى مرتْ بهم رفقةٌ من جُرْهم – أو أهلُ بيت من جرهم – مقبلين من طريق كَدَاء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً [٤] ،

---

(١) يتلبط : يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض .

(٢) « غواث » : ضبطت فى اليونينية من البخارى (٤ : ١٤٣ من الطبعة السلطانية) بضم الغين وكسرها وعليها كلمة « صح » . وقال ابن الأثير فى النهاية : « الغواث بالفتح ، كالغياث بالكسر : من الإغاثة . وقد أغاثه يغيثه . وقد روى بالضم والكسر ، وهما أكثر ما يجىء فى الأصوات، كالنباح والنداء . والفتح فيها شاذ » .

(٣) هكذا هو بحذف المفعول . وهو الثابت فى الأزهرية والموافق لما فى البخارى . وفى المطبوعة « يبنيه » . وهو مخالف للرواية الثابتة .

(٤) بالعين المهملة والفاء . وهو الذى يحوم على الماء ويتردد ولا يمضى عنه . قاله الحافظ فى الفتح .

فقالوا إن هذا الطائر ليدُور على ماء ، لعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جَرِيًّا أو جريين (١) ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا ، قال : وأم إسمعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فألفى ذلك أم إسمعيل وهى تحب الأُنْسَ ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلامُ وتعلم العربية منهم وأنفسَهم (٢) وأعجبهم حين شبَّ ، فلما أدرك زوّجوه امرأةً منهم ، وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبرهيم بعد ما تزوج إسمعيل ليطالع تَركته (٣) ، فلم يجد إسمعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بشرٍّ ، نحن فى ضيق وشدّة ، وشكتْ إليه ، قال : فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يُغيرْ عتبةَ بابه . فلما جاء إسمعيل كأنه آنسَ شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسأل عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنّا فى جَهد وشدّة ، قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول : غَيِّرْ عتبةَ بابك ، قال : ذاكِ أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوّج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبرهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعدُ فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ،

---

(١) « الجرى » – بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الياء : الرسول ، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير . سمى بذلك لأنه يجرى مجرى مرسله أو موكله . أو لأنه يجرى مسرعاً فى حوائجه .

(٢) « وأنفسهم » – قال الحافظ فى الفتح : « بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل ، من النفاسة . أى كثرت رغبتهم فيه » . وفى النهاية : « أى : أعجبهم وصار عندهم نفيساً . يقال : أنفسنى فى كذا ، أى رغبنى فيه » .

وهذا الحديث صريح فى الدلالة التاريخية على أن العربية أقدم من إبرهيم وإسمعيل . ولعلها أقدم من السريانية ، والتى هى – يقيناً – أقدم من العبرية ، التى هى لغة أبناء إسرائيل ، الذى هو يعقوب حفيد إبرهيم . بل لعل العربية الأولى هى أم هذه اللغات – التى تسمى « السامية » – كلها . خلافاً لمن جهل ذلك ، فجعلوا كل لفظة عربية توافق حرفاً من تلك اللغات معرباً عنها ! !

(٣) بكسر الراء . أى : يتفقد حال ما تركه هناك .

قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنتْ على الله عز وجل ، قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حَبّ ، ولوكان لهم لدعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلاّ لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومُريه يُثْبتُ عتبةَ بابه ، فلما جاء إسمعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسنُ الهيئة ، وأثنتْ عليه ، فسألنى عنك فأخبرتُه ، فسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرتُه أنّا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبةَ بابك ، قال : ذاكِ أبى ، وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسمعيل يَبرى نبلاً له تحت دَوْحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسمعيل ، إنّ الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رَفعا القواعدَ من البيت ، فجعل إسمعيل يأتى بالحجارة وإبرهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسمعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " » . ورواه عبد بن حميد مطولا . ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير مختصراً . ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مطولاً .

[ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر فى معناه عن ابن عباس أيضاً ، من صحيح البخارى . ثم قال] : والعجبُ أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه فى المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد رواه البخارى كما تـرَى ! ! [ثم ذكر أحاديث آخر ، عن على وابن عباس ، وآثاراً عن بعض التابعين . لم نَرَ داعياً للإطالة بذكرها . ثم قال] :

وقال البخارى رحمه الله : « قوله تعالى " وإذْ يرفع إبرهيم القواعدَ من البيت وإسمعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " : القواعد أساسه ، واحدُها : قاعدة ، والقواعد من النساء واحدتها : قاعدة » . ثم روى عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تَرَىْ أن قومَك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبرهيم ؟ فقلت : يا رسول الله ، ألا تردُّها على قواعد إبرهيم ؟ قال : لولا حِدْثانُ قومك بالكفر ، فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشةُ سمعتْ هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذَين يليان الحِجْر إلاّ أن البيت لم يُتَمَّمْ على قواعد إبرهيم » . ورواه مسلم والنسائى.

وروى مسلم عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لولا أنّ قومك حديثُ عهد بجاهلية – أو قال : بكفر – لأنفقتُ كنزَ الكعبة فى سبيل الله ، ولجعلتُ بابها بالأرض ، ولأدْخلتُ فيها الحِجْر » .

وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال : حدّثتنى خالتى – يعنى عائشة – قالت : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ، لولا قومك حديث عهد بشركٍ لهدمتُ الكعبة فألزقتُها بالأرض ، ولجعلتُ لها باباً شرقيًّا وباباً غربيًّا ، وزدْت فيها ستةَ أذرع من الحِجْر ، فإن قريشاً اقتصرتها حيثُ بنت الكعبةَ » .

ذكر بناء قريش الكعبة

بعد إبرهيم الخليل وقبل البعثة بخمس سنين(١)

وقد نقل معهم رسول الله فى الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة ، صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين. قال محمد بن إسحق فى السيرة : ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يَهُمُّون بذلك ليسقفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت رَضْماً فوق القامة ،

---

(١) وانظر أيضاً فى بناء الكعبة ما كتبه المؤلف فى تاريخه ١ : ١٦٣ – ١٦٦ . و ٢ : ٢٩٨ – ٣٠٥ .

فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان بمكةَ رجل قبطىّ نجار ، فهيأ لهم فى أنفسهم بعضَ ما يُصْلحها ، فلما أجمعوا أمرَهم فى هدمها وبنيانها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن َعبد بن عمران بن مخزوم فقال : يا معشر قريش ، لا تُدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها َمهر بغىّ ، ولا بيعُ رباً ، ولا مظلمةُ أحد من الناس ، ثم إن قريشاً تجزّأت الكعبةَ ، فكان شقّ الباب لبنى عبد مناف وزُهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى ُجمَحٍ وسَهْم ، وكان شقّ الحِجْر لبنى عبد الدار بن قصىّ ، ولبنى أسد بن عبد العزّى بن قصى ، ولبنى عدى بن كعب بن ُلؤَى ، وهو الحطيم ، حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس ، أساس إبرهيم عليه السلام ، أفضَوْا إلى حجارة ُخضر كالأسنة آخذ بعضُها بعضاً ، ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة َتجمع على حدة ، ثم َبنوْها حتى بلغ البنيانُ موضع الركن ، يعنى الحَجَر الأسود ، فاختصموا فيه ، كلّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دونَ الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا ، وأعدّوا للقتال ، فقرّبت بنو عبد الدار َجفنةً مملوءةً دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدىّ بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا « لَعقَةَ الدم » ، فمكثتْ قريش على ذلك أربعَ ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعضُ أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن ُعمرَ بن مخزوم — وكان عامئذ أسنّ قريش كلهم — قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أوّلَ داخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلىّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن ، يعنى الحجر الأسود ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذْ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعَه وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم َبنى عليه ، وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قبلَ أن ينزل عليه الوحيُ «الأمين» . وكانت الكعبة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثمانى عشر ذراعاً ، وكانت تُكسَى القباطىّ ، ثم كسيت بعدُ البرودَ ، وأولُ من كساها الديباجَ الحجاجُ بن يوسف(١) .

قلت : ولم تزل على بناء قريش حتى احترقتْ فى أول إمارة عبد الله بن الزبير ، بعد سنة ستين ، وفى ولاية يزيد بن معاوية ، لما حاصروا ابنَ الزبير ، فحينئذ نقضها ابنُ الزبير إلى الأرض ، وبناها على قواعد إبرهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحِجْر ، وجعل لها باباً شرقيًّا وباباً غربيًّا مُلصَقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشةَ أم المؤمنين ، ولم تزل كذلك مدةَ إمارته حتى قتله الحجاج ، فردّها إلى ما كانتْ عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك ، كما روى مسلم بن الحجاج فى صحيحه عن عطاء قال : « لما احترق البيت زمنَ يزيد بن معاوية ، حين غزاها أهل الشام ، فكان من أمره ما كان ، تركه ابنُ الزبير حتى قدم الناسُ الموسمَ ، يريد أن يُجرّئهم - أو يُحزّبهم - على أهل الشام ، فلما صَدَر الناسُ قال : يا أيها الناس ، أشيروا علىّ فى الكعبة : أنقضها ثم أبنى بناءَها أو أصلحُ ما وَهَى منها ؟ قال ابن عباس : إنه قد خَرَق لى رأى فيها ، أرى أن تُصلح ما وَهَى منها وتَدَع بيتاً أسلمَ الناسُ عليه ، وأحجاراً أسلمَ الناسُ عليها ، وبُعث عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدُهم احترق بيته ما رضىَ حتى يجدّده ، فكيف بيتُ ربكم عز وجل ؟ ! إنى مستخيرٌ ربى ثلاثاً ثم عازمٌ على أمرى ، فلما مضت ثلاثٌ أجمع رأيه على أن ينقضَها ، فتحاماها الناسُ أن ينزلَ بأول الناس يصعد فيه أمرٌ من السماء ، حتى صَعِدَه رجلٌ فألقى منه حجارةً ، فلما لم يره الناسُ أصابه شىء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض ، فجعل ابنُ الزبير أعمدةً فستر عليها الستورَ حتى ارتفع بناؤه ، وقال ابن الزبير : إنى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : إنّ النبى

---

(١) كلام ابن إسحق فى السيرة طويل . انظر سيرة ابن هشام ، ص : ١٢٢ - ١٢٦ (طبعة أوربة) . وقد اختصر الحافظ المؤلف هنا بعضه . واختصرت أنا كثيراً منه : اقتصرت على الضرورى المناسب هنا .

صلى الله عليه وسلم قال : لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوّينى على بنائه ، لكنتُ أدخلتُ فيه من الحِجْر خمسةَ أذرع ، ولجعلت له باباً يدخل الناسُ منه ، وباباً يخرجون منه ، قال : فأنا أجد ما أنفقُ ولستُ أخاف الناسَ ، قال : فزاد فيه خمسةَ أذرع من الحجر حتى أبدى أسًّا نظر الناسُ إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طولُ الكعبة ثمانيةَ عشر ذراعاً ، فلما زاد فيه استقصره ، فزاد فى طوله عشرةَ أذرع وجعل له بابين : أحدهما يُدخل منه ، والآخر يُخرج منه ، فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاجُ إلى عبد الملك يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدولُ من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إنّا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء ! أما ما زاده فى طوله فأقرّه ، وأما ما زاد فيه من الحجر فرُدّه إلى بنائه وسدّ الباب الذى فتحه ، فنقضَه وأعادَه إلى بنائه . وقد رواه النسائى عن عائشةَ بالمرفوع منه ، ولم يذكر القصةَ .

وقد كانت السنة إقرارَ ما فعله عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، لأنه هو الذى وَدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن خشى أن تنكره قلوب بعضُ الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر . ولكن خفيتْ هذه السنّة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روَتْ ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وددنا أنا تركناه وما تَولّى . فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى قَزَعة : أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذْ قال : قاتل اللهُ ابنَ الزبير حيثُ يكذب على أم المؤمنين ! يقول : سمعتها تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة لولا حِدْثان قومِك بالكفر لنقضتُ الكعبةَ حتى أزيد فيها من الحجر ، فإن قومك قَصّروا فى البناء » ، فقال الحرث بن عبد الله بن أبى ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فإنى سمعت أم المؤمنين تحدّث هذا ، قال : لوكنتُ سمعتُه قبل أن أهدمه لتركتُه على ما بَنى ابنُ الزبير .

فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين ، لأنه قد روى عنها من

طرق صحيحة متعددة: عن الأسود بن يزيد، والحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابنُ الزبير ، لو تُرك لكان جيداً .

ولكن بعد ما ترك الأمر إلى هذا الحال فقد كره العلماء أن يغيَّر عن حاله . كما ذُكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدى : أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير ؟ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبةَ الله ملعبةً للملوك لا يشاءُ أحد أن يهدمها إلاّ هدمها ، فترك ذلك الرشيد . نقله عياض والنواوى . ولا تزال — والله أعلم— هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يُخرّبها ذو السُّوَيْقتين من الحبشة ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرّب الكعبةَ ذو السويقتين من الحبشة » . وعن عبد الله بن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كأنى به أسود أفحجَ يَقلعها حجراً حجراً » . رواه البخارى . وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرب الكعبةَ ذو السويقتين من الحبشة ، ويسلبها حليتها ، ويجرّدها من كسوتها ، ولكأنى أنظرُ إليه أُصَيْلعَ أفيدعَ ، يضرب عليها بمسحاته ومِعوَله »[1]. الفدع : زيغ بين القدم وعظم الساق . وهذا — والله أعلم — إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لَيُحَجَّنّ البيتُ ولَيُعتمرَنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج » .

وقوله تعالى حكايةً لدعاء إبرهيم وإسمعيل عليهما السلام " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التوّاب الرحيم " قال ابن جرير : يعنيان بذلك : واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك فى الطاعة أحداً سواك ، ولا فى العبادة غيرَك . " ومن ذرّيتنا أمةً مسلمةً لك " قال السُّدّى: يعنيان العرب . قال

(١) المسند بتحقيقنا : ٧٠٥٣ .

ابن جرير : والصواب أنه يعمّ العرب وغيرَهم ، لأنّ من ذرّية إبرهيم بنى إسرائيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾ . قلت : وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدّى ، فإن تخصيصَهم بذلك لا ينفى مَن عداهم . والسياقُ إنما هو فى العرب ، ولهذا قال بعده : ﴿ ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتابَ والحكمة ويزكيهم ﴾ الآية . والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بُعث فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾ . ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود ، لقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسولُ الله إليكم جميعاً ﴾ . وغير ذلك من الأدلة القاطعة . وهذا الدعاء من إبرهيم وإسمعيل عليهما السلام – كما أخبر اللهُ تعالى عن عباده المتقين المؤمنين فى قوله : ﴿ والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّةَ أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ . وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً ، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحبّ أن يكون من صُلبه من يعبدُ الله وحدَه لا شريكَ له . ولهذا لما قال تعالى لإبرهيم عليه السلام : ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذرّيتى . قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ وهو قوله : ﴿ واجنبنى وَبنىّ أن نعبدَ الأصنام ﴾ . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

" وأرنا مناسكنا " قال عطاء : أخرجها لنا وعلّمناها . وروى أبو داود الطيالسى عن ابن عباس قال : « إن إبرهيم لما أرِى المناسكَ عَرَض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه إبرهيم ، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منًى ، فقال : مناخُ الناس هذا . فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرّض له الشيطان ، فرماه بسبع حصَياتٍ حتى ذهب ، ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى ، فعرّض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أتى به إلى الجمرة القُصْوَى ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، فأتى به جَمْعاً ، فقال : هذا المشعر ، ثم

أتى به عرفة ، فقال : له جبريل : أعرَفْتَ ؟ »[1] .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١٢٩)

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبرهيم لأهل الحرم — أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أى من ذرية إبرهيم . وقد وافقتْ هذه الدعوةُ المستجابةُ قدَرَ الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً فى الأميين ، إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن ، كما روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنى عند الله لَخاتم النبيين وإنّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبى إبرهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأتْ، وكذلك أمهاتُ النبيين يَرَيْنَ »[2] . وروى أيضاً عن أبى أمامة ، قال : « قلت : يا رسول الله ، ما كان أولُ بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبرهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه خرج منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشام »[3] . والمراد: أنّ أوّل من نوّه بذكره وشهره فى الناس إبرهيمُ عليه السلام . ولم يزل ذكرُه فى الناس مذكوراً مشهوراً سائراً ، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً ، وهو عيسى ابنُ مريم عليه السلام، حيث قام فى بنى إسرائيل خطيباً وقال: ﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ . ولهذا قال فى الحديث « دعوة أبى إبرهيم وبشرى عيسى ابن مريم » . وقوله « ورأتْ أمى أنه

---

(١) هو قطعة من حديث طويل ، رواه الطيالسى فى مسنده : ٢٦٩٧ . ورواه أحمد فى المسند أيضاً : ٢٧٠٧ ، ٢٧٠٨ .

(٢) المسند : ١٧٢١٧ ، ١٧٢١٨ ، ١٧٢٣٠ . وأسانيده صحاح . ورواه الطبرى : ٢٠٧١ — ٢٠٧٣ . وفصلنا القول فى تخريجه هناك .

(٣) المسند ٥ : ٢٦٢ (حلبى) . ورواه أيضاً الطيالسى : ١١٤٠ . وكذلك رواه الطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى — كما فى الدر المنثور ١ : ١٣٩ . وفى إسناده الفرج بن فضالة ، وهو ضعيف . ولكنه يصلح شاهداً للحديث الذى قبله .

خرج منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشام » — قيل : كان مناماً رأته حين حملتْ به وقصّته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئةً . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارةٌ إلى استقرار دينه ونبوّته ببلاد الشام . ولهذا تكون الشام فى آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها . ولهذا جاء فى الصحيحين : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقّ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمرُ الله وهم كذلك » . وفى صحيح البخارى : « وهم بالشام » .

وقوله تعالى " ويعلمهم الكتاب " يعنى : القرآن " والحكمة " يعنى : السنة . قاله الحسن وقتادة ومقاتل وغيرهم . وقيل : الفهم فى الدين . ولا منافاة . " ويزكيهم " قال ابن عباس : يعنى طاعةَ الله والإخلاص . وقال محمد بن إسحق : يعلمهم الخير فيفعلوه ، والشر فيتقوه ، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ، ليستكثروا من طاعته ، ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته . وقوله " إنك أنت العزيز الحكيم " أى : العزيز الذى لا يعجزه شىء ، وهو قادر على كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء فى محالّها ، لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٣٢)

يقول تبارك وتعالى ردّاً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله ، المخالف لملة إبرهيم الخليل إمام الحنفاء ، فإنه جرّد توحيدَ ربه تبارك وتعالى ، فلم يَدْعُ معه غيرَه ، ولا أشرك به طرفةَ عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف فى ذلك سائرَ قومه ، حتى تبرأ من أبيه فقال : ﴿ يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبرهيم لأبيه وقومه إننى بَراءٌ مما تعبدون *

إلاّ الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبرهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدَها إياه ، فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه ، إن إبرهيم لأوّاه حليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن إبرهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنةً وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ . ولهذا وأمثاله قال تعالى "ومن يرغب عن ملة إبرهيم" أى : عن طريقته ومنهجه ، فيخالفها ويرغب عنها " إلا من سَفه نفسه " أى : ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره ، بتركه الحقّ إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطُفِىَ فى الدنيا للهداية والرشاد ، من حداثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلاً ، وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء — فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طُرقَ الضلالة والغىّ ، فأىّ سفه أعظمُ من هذا ؟ ! أم أىّ ظلم أكبرُ من هذا ؟ ! كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وقال أبو العالية وقتادة : نزلت هذه الآية فى اليهود ، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبرهيم فيما أخذوه . ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى : ﴿ ما كان إبرهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبرهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ، واللهُ ولى المؤمنين ﴾ .

وقوله تعالى " إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين " أى : أمره تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقَدَراً . وقوله " ووصّى بها إبرهيم بنيه ويعقوبُ " أى : وصّى بهذه الملة ، وهى الإسلام لله ، لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصَّوْا أبناءهم بها من بعدهم : " يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " أى : أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاةَ عليه ، فإنّ المرء يموتُ غالباً على ما كان عليه ، ويُبعث على ما مات عليه . وقد أجرى الله الكريمُ عادته بأن مَن قصد الخيرَ وُفق له ويُسر عليه ، ومن نوَى صالحاً ثبت عليه . وهذا لا يعارض ما جاء فى الحديث الصحيح : « إن الرجل ليعملُ بعمل أهل

الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنّ الرجل ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل يعمل أهل الجنة فيدخلها »[١] — لأنه قد جاء فى بعض روايات هذا الحديث : « فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس »[٢] . وقد قال تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذّب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾ .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٤)

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسمعيل ، وعلى الكفّار من بنى إسرائيل — وهو يعقوب بن إسحق بن إبرهيم عليه السلام — بأن يعقوب لمّا حضرته الوفاة وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم " ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبرهيم وإسمعيل وإسحق " . وهذا من باب التغليب ، لأن إسمعيل عمه . " إلها واحداً " أى : نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره . " ونحن له مسلمون " أى : مطيعون خاضعون ، كما قال تعالى : ﴿ وله أسلم مَن فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبةً وإن تنوّعتْ شرائعهم واختلفتْ مناهجهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد فى المسند : ٣٦٢٤ ، من حديث ابن مسعود . وكذلك رواه البخارى ومسلم وغيرهم . وهو الحديث الرابع من الأربعين النووية .

(٢) هذا جزء من حديث آخر ، عن سهل بن سعد . وإنما اعتبره المؤلف الحافظ من بعض روايات الحديث الذى قبله — باعتبار المعنى ، لا باعتبار اتحاد الصحابى . وحديث سهل بن سعد رواه مسلم ٢ : ٢٩٩ — ٣٠٠ مختصراً . ورواه البخارى ٦ : ٦٦ . ومسلم ١ : ٤٣ — مطولا فى قصة .

من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . والآيات فى هذا كثيرةٌ والأحاديث ، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معشر الأنبياء أولادُ عَلاّت ، ديننا واحدٌ »[1] .

وقوله تعالى " تلك أمة قد خلت " أى مَضَتْ " لها ما كسبت ولكم ما كسبتم " أى : أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم " ولا تسئلون عما كانوا يعملون " .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣٥)

روى محمد بن إسحق عن ابن عباس قال : « قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثلَ ذلك ، فأنزل الله عز وجل " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا " » . وقوله " قل بل ملة إبرهيم حنيفاً " أى : لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ملة إبرهيم حنيفاً ، ، أى : مستقيماً . وقال : مجاهد : مخلصاً .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٣٦)

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلاً ، وما أنزل على الأنبياء المتقدّمين مجملاً ، ونصّ على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرّقوا بين أحد منهم

(١) هو مختصر من معنى حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : ٨٢٣١، ٩٢٥٩، ٩٦٣٠ – ٩٦٣٢ ، من حديث أبى هريرة . ورواه الشيخان وغيرهما .

بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقًّا ﴾ ، الآية . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ، وقولوا " أمنا بالله وما أنزل إلينا " الآية »[1]. وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس ، قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ " آمنا بالله وما أنزل إلينا " ، الآية ، والأخرى بـ " آمنا بالله واشهدْ بأننا مسلمون "» . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل ، كالقبائل فى بنى إسمعيل .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ ﴾ (١٣٨)

يقول تعالى " فإن آمنوا " يعنى : الكفارَ من أهل الكتاب وغيرهم " بمثل ما آمنتم به " أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم " فقد اهتدوا " أى : فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه " وإن تولوا " أى : عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم " فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله " أى : فسينصرك عليهم ويظفرك بهم " وهو السميع العليم " .

روى ابن أبى حاتم عن زيادْ بن يونس ، حدّثنا نافع بن أبى نُعيم ، قال : أرسل إلىّ بعضُ الخلفاء مصحفَ عثمان ليصلحه ، قال زياد : فقلت له : إن الناس ليقولون إن مصحفه كان فى حجره حين قُتل ، فوقع الدم على

---

(١) البخارى ٨ : ١٢٩ (فتح) .

" فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم " . فقال نافع : بَصُرَتْ عينى بالدم على هذه الآية[1] .

وقوله " صبغة الله " قال ابن عباس : دين الله . وانتصابُ "صبغةَ الله" إما على الإغراء كقوله: ﴿ فطرةَ الله ﴾ . أى : الزموا ذلك عليكموه . وقال بعضهم بدلاً من قوله " ملة إبرهيم " . وقال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله " آمنَّا بالله " كقوله : ﴿ وعدَ الله ﴾ .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ، قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤١)

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين—

" قل أتحاجوننا فى الله " أى : أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له والانقياد ، واتِّباع أوامره وترك زواجره " وهو ربنا وربكم " المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ؟ ! " ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم " أى : نحن بُرَءَاء منكم ومما تعبدون ، وأنتم بُرَءَاءُ منّا . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وإن كذّبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىءٌ مما تعملون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمتُ وجهى لله ومن اتّبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوْا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ . وقال تعالى

---

(١) إسناده صحيح إلى نافع . ونافع : هو ابن عبد الرحمن بن أبى نعيم ، أحد القراء السبعة المشهورين . والراوى عنه هو تلميذه فى القراءة : زياد بن يونس الحضرمى الإسكندرانى ، أحد الأثبات الثقات . كان يلقب « سوسة العلم » . مات بمصر سنة ٢١١ .

إخباراً عن إبرهيم : ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان، ولا أخافُ ما تشركون به إلاّ أن يشاءَ ربى شيئاً ، وسعَ ربى كل شيء علماً ، أفلا تتذكرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذى حاجّ إبرهيم فى ربه ﴾ ، الآية . وقال فى هذه الآية الكريمة " ونحن له مخلصون " أى : نحن بُرءاءُ منكم كما أنتم بُرءاءُ منا ، ونحن له مخلصون ، أى : فى العبادة والتوجه . ثم أنكرَ تعالى عليهم فى دعواهم أن إبرهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية أو النصرانية ، فقال " قل أأنتم أعلم أم الله " يعنى : بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى . كما قال تعالى : ﴿ ما كان إبرهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ، الآية والتى بعدها . وقوله " ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله " قال الحسن البصرى : كانوا يقرؤون فى كتاب الله الذى أتاهم أن الدينَ الإسلامُ ، وأن محمداً رسول الله ، وأن إبرهيم وإسمعيل وإسحقَ ويعقوب والأسباط كانوا بُرءاء من اليهودية والنصرانية ، فشهد اللهُ بذلك ، وأقروا على أنفسهم لله ، فكتموا شهادةَ الله عندهم من ذلك . وقوله " وما الله بغافل عما تعملون " تهديد ووعيد شديد ، أى : علمُه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى " تلك أمة قد خلتْ " أى : قد مضتْ " لها ما كسبت ولكم ما كسبتم " أى : لهم أعمالهم ولكم أعمالكم " ولا تسئلون عما كانوا يعملون " وليس يُغنى عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغترّوا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلَهم منقادين لأوامر الله واتِّباع رسله الذى بعث مبشرين ومنذرين . فإنه من كفر بنبىّ واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما بسيّد الأنبياء وخاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين ، إلى جميع الإنس والجن من المكلفين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

الجزء ٢

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَاوَلَّـٰهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قيل : المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب . وقيل : أحبار يهود . وقيل : المنافقون . والآية عامة فى هؤلاء كلهم . والله أعلم . وروى البخارى عن البراء : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستةَ عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاّها صلاةَ العصر وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليتُ مع النبى صلى الله عليه وسلم قِبَل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان الذى قد مات على القبلة قِبَل أن تحوّل قبل البيت رجالاً قُتلوا ، لم ندْر ما نقول فيهم ، فأنزل الله " وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرؤف رحيم " » . ورواه مسلم »[١] . وروى ابن أبى حاتم عن البراء قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلى نحو بيت المقدس ستةَ عشر أو سبعةَ عشر شهراً ، وكان يحبُّ أن يُوجَّه نحوَ الكعبة ، فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطرَ المسجد الحرام ﴾ ، قال : فوُجِّه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس ، وهم اليهود : " ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها " . فأنزل الله : ﴿ قل لله المشرق والمغربُ يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[٢] » .

---

(١) البخارى ٨ : ١٣٠ (فتح) . ومسلم ١ : ١٤٨ . ورواه أحمد ٤ : ٢٨٣ (حلبى) . والبخارى أيضاً ١ : ٨٩ – ٩٠ ، ٤٢١ – ٤٢٢ ، و ١٣ : ٢٠٢ . وابن سعد فى الطبقات ١ / ٢ / ٥ . والطبرى : ٢١٥٣ ، ٢٢٢٢ .

(٢) إسناده صحيح .

وقد جاء فى هذا الباب أحاديثُ كثيرةٌ . وحاصل الأمر : أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلى بين الركنين ، فيكون بين يديه الكعبة ، وهو مستقبل صخرةَ بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذّر الجمعُ بينهما ، فأمره الله بالتوجّه إلى بيت المقدس . فاستمرّ الأمر على ذلك بضعةَ عشر شهراً ، وكان يكثر الدعاءَ والابتهالَ أن يوجَّه إلى الكعبة التى هى قبلةُ إبرهيم عليه السلام ، فأجيبَ إلى ذلك ، وأُمر بالتوجّه إلى البيت العتيق . فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ وأعلمهم بذلك . وكان أوّل صلاة صلاّها إليها صلاة العصر ، كما تقدّم فى الصحيحين من رواية البرّاء . وأما أهلُ قُباء فلم يبلغهم الخبرُ إلى صلاة الفجر من اليوم الثانى . كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر أنه قال : « بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح ، إذ جاءهم آتٍ فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلةَ قرآنٌ ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلُوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة »[1]. وفى هذا دليل على أنّ الناسخ لا يلزم حكمُه إلاّ بعد العلم به ، وإن تقدّم نزوله وإبلاغُه ، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء . والله أعلم .

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتيابٌ وزيغٌ عن الهدى وتخبيط وشكّ ، وقالوا " ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها " أى : قالوا : ما لهؤلاء تارةً يستقبلونَ كذا وتارةً يستقبلون كذا ؟ فأنزل الله جوابهم فى قوله " قل لله المشرق والمغرب " أى : الحكم والتصرفُ والأمر كله لله ، وحيثما تولوا فثمّ وجه الله ، و ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرّ من آمن بالله ﴾ . أى : الشأن كله فى امتثال أوامر الله ، فحيثما وجَّهَنا توجهنا ، فالطاعة فى امتثال أمره ، ولو وجّهنا فى كل يوم مراتٍ إلى جهات متعدّدة ، فنحن عبيده وفى تصريفه وخُدّامه ، حيثما وجَّهَنا

---

(١) البخارى ١ : ٤٢٤ ، و ٨ : ١٣١ (فتح) . ومسلم ١ : ١٤٨ . ورواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : ٤٦٤٢ ، ٤٧٩٤ ، ٥٨٢٧ ، ٥٩٣٤ .

توجهنا . وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عنايةٌ عظيمة ، إذْ هداهم إلى قبلة إبرهيم خليل الرحمن، وجعل توجُّههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له ، أشرفِ بيوت اللهِ فى الأرض ، إذْ هى بنايةُ إبرهيم الخليل عليه السلام . ولهذا قال : " قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ". وقد روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعنى فى أهل الكتاب — : « إنهم لا يحسدونا على شىء كما يحسدونا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلّوا عنها ، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلفَ الإمام " آمين " »[١] .

وقوله تعالى " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً " يقول تعالى : إنما حوّلناكم إلى قبلة إبرهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيارَ الأمم ، لتكونوا يومَ القيامة شهداء على الأمم ، لأنّ الجميع معترفون لكم بالفضل . والوسط ههنا : الخيارُ والأجودُ ، كما يقال فى قريش : أوسطُ العرب نسباً وداراً ، أى : خيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطاً فى قومه ، أى : أشرفهم نسباً . ومنه « الصلاة الوسطى » التى هى أفضل الصلوات ، وهى العصر ، كما ثبت فى الصحاح وغيرها . ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب ، كما قال تعالى : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملةَ أبيكم إبرهيم ، هو سماكم المسلمين من قبلُ وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُدْعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغتَ ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد . فيقال لنوح : من يشهدُ لك؟ فيقول محمدٌ وأمتُه . قال : فذلك قوله " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً " . قال : الوسط العدل ، فتدْعَوْن فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشْهدُ عليكم » . رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن

(١) المسند ٦ : ١٣٤ — ١٣٥ (حلبى)، فى حديث طويل . وإسناده صحيح .

ماجة[١] . وروى الحاكم وابن مردويه — واللفظ له — من حديث مصعب بن ثابت ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن جابر بن عبد الله ، قال : « شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازةً فى بنى سَلِمَة ، وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعمَ المرءُ كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان ، وأثنوا عليه خيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت بما تقول ؟ فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر . فأما الذى بدا لنا منه فذاك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وَجَبَتْ، ثم شهد جنازةً فى بنى حارثة ، وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : يا رسول الله، بئس المرءُ كان ، إنْ كان لفظًّا غليظاً ، فأثنوْا عليه شرًّا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم : أنت بالذى تقول ؟ فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وجبتْ . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قرأ " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً " » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٢] . وروى الإمام أحمد عن أبى الأسود أنه قال : « أتيت المدينة ، فوافقتها وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً ، فجلست إلى عمر بن الخطاب ، فمرّت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرٌ ، فقال : وجبتْ ، ثم مُرّ بأخرى فأثنى عليها شرٌّ ، فقال عمر : وجبتْ ، فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما مسلم شهد له أربعةٌ بخير أدخله الله الجنة ، قال : فقلنا : وثلاثة ؟ قال : وثلاثة ، قال : فقلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله عن

---

(١) المسند : ١١٣٠٣ . والبخارى ٦ : ٢٦٤ ، و ٨ : ١٣٠ — ١٣١ ، و ١٣ : ٢٦٦ . ورواه الطبرى : ٢١٧٩ — ٢١٨١ . وذكره ابن كثير هنا من رواية أخرى لأحمد أيضاً . وهى فى المسند : ١١٥٧٩ .

(٢) المستدرك ١ : ٢٦٨ .

الواحد » . وكذا رواه البخارى والترمذى والنسائى(١) . وروى ابن مردويه عن أبى بكر بن أبى زُهير الثقفى عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبناوة يقول : « يوشك أن تعلموا خيارَكم من شراركم ، قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيء ، أنتم شهداء الله فى الأرض » . ورواه الإمام أحمد وابن ماجة(٢) .

وقوله تعالى " وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله " يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجهَ أوّلاً إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنه إلى الكعبة – ليظهرَ حالُ من يتبعك ويطيعك ويستقبلُ معك حيثما توجهتَ " ممن ينقلب على عقبيه " أى : مرتداً عن دينه " وإن كانت لكبيرةً " أى : هذه الفعلة ، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أى : وإن كان هذا لأمراً عظيماً فى النفوس " إلا على الذين هدى الله " قلوبهم ، وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأنّ كلّ ما جاء به فهو الحق الذى لامرية فيه ، وأنّ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخَ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك . بخلاف الذين فى قلوبهم مرض ، فإنه كلّما حدث أمرٌ أحدث لهم شكّاً كما يحصل للذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال الله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عَمًى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

---

(١) أبو الأسود : هو الدؤلى . والحديث فى المسند برقم : ١٣٩ .

(٢) المسند : ١٥٥٠٦ . وابن ماجة : ٤٢٢١ . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجة : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات . وليس لأبى زهير – هذا – عند ابن ماجة سوى هذا الحديث . وليس له شئ فى بقية الكتب الستة » . أقول : وليس له فى مسند أحمد غيره أيضاً . وقد أشار إليه البخارى فى الكنى رقم : ٢٨٦ ، فى ترجمة أبى زهير .

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه فى ذلك ، وتوجَّه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب – من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أنّ السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار : هم الذين صلَّوُا القبلتين . [وأشار المؤلف الحافظ إلى حديث ابن عمر فى قصة أهل قباء الذى مضى من رواية الشيخين ، ص : ٢٦٢ ، ثم قال] : ورواه الترمذى ، وعنده : « أنهم كانوا ركوعاً فاستدارُوا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع » . وكذا رواه مسلم عن ثابت عن أنس مثله[١] . وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله ، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل . رضى الله عنهم أجمعين .

وقوله " وما كان الله ليضيع إيمانكم " أى : صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ، لا يضيعُ ثوابها عند الله . وفى الصحيح عن البراء قال : « مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى " وما كان لله ليضيع إيمانكم " » . ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه[٢] . " إن الله بالناس لرؤف رحيم " وفى الصحيح : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبْى قد فُرِّق بينها وبين ولدها ، فجعلتْ كلما وجدت صبيًّا من السبْى أخذته فألصقتْه بصدرها ، وهى تَدُور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمتْه ثديها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتُرَوْن هذه طارحةً ولدَها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فوالله لَلهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها »[٣] .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ

---

(١) أما رواية الترمذى ٤ : ٧٠ فإنها مختصرة . فكأن الحافظ المؤلف يشير إليها بالمعنى . وأما رواية مسلم من حديث أنس – فهى فى صحيحه ١ : ١٤٨ . ولقد مضى أيضاً ، ص : ٢٦١ من لفظ البخارى فى حديث البراء هذا المعنى نفسه : أنهم كانوا راكعين : « فداروا كما هم قبل البيت » .

(٢) انظر فى حديث البراء – البخارى ١ : ٨٩ – ٩٠ ، و ٨ : ١٣٠ (فتح) وفى حديث ابن عباس – الترمذى ٤ : ٧٠ .

(٣) رواه البخارى ١٠ : ٣٦٠ – ٣٦١ . ومسلم ٢ : ٣٢٤ – ٣٢٥ ، كلاهما من حديث عمر بن الخطاب .

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

قال ابن عباس : كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة ، وذلك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعةَ عشر شهراً ، وكان يحبّ قبلةَ إبرهيم ، فكان يدعو إلى الله ، وينظر إلى السماء ، فأنزل الله " قد نرى تقلب وجهك فى السماء " إلى قوله : " فولوا وجوهكم شطره " فارتاب من ذلك اليهود ، وقالوا : ﴿ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب﴾ ، وقال : ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ . وروى الحاكم عن يحيى بن قمطة قال : « رأيت عبد الله بن عمرو جالساً فى المسجد الحرام بإزاء الميزاب ، فتلا هذه الآية "فلنولينك قبلةً ترضاها" قال : نحوَ ميزاب الكعبة » . ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن أبى حاتم[1] . وهذا قول أبى العالية ومجاهد وعكرمة وغيرهم. وكما تقدم فى الحديث الآخر : « ما بين المشرق والمغرب قبلة »[2] . وروى النسائى عن أبى سعيد بن المعلّى ، قال : «كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [فنمرّ على المسجد][3] فنصلى فيه ، فمررنا يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت : لقد حدث أمر ، فجلست ،

(١) المستدرك ٢ : ٢٦٩ . ووافقه الذهبى على تصحيحه . وراوى الحديث « يحيى بن قمطة » : تابعى ثقة . وأبوه « قمطة » بالقاف والميم والطاء ، كما فى الطبرى وتفسير عبد الرزاق (المخطوط) ومراجع الترجمة . ولكن وقع فى مطبوعة ابن كثير هنا « قطة » بدون الميم . وهو خطأ . وثبت على الصواب فى مخطوطة الأزهر ، وكذلك ثبت على الصواب فى مخطوطة مختصر الذهبى للمستدرك — التى عندى . والحديث رواه الطبرى : ٢٢٤٧ — ٢٢٤٩ . بنحوه . وقد فصلنا القول فيه هناك .

(٢) مضى ، ص : ٢٢٠

(٣) الزيادة من الأزهرية .

فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية " قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها " حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبي : تعال نركعْ ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكونَ أولَ من صلى ، فتوارينا فصليناهما ، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم وصلى للناس الظهرَ يومئذ »[1] .

وقوله " وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره " أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة فى حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجَّه قالبه ، وقلبُه نحوَ الكعبة . وكذا فى حال المسايفة فى القتال ، يصلى على كل حال . وكذا من جهل جهةَ القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئاً فى نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاّ وسعها .

وقوله " وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم " أى : واليهود — الذين أنكروا استقبالكم الكعبةَ وانصرافكم عن بيت المقدس — يعلمون أن الله تعالى سيوجِّهك إليها ، بما فى كتبهم عن أنبيائهم ، من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمّته . وما خصه الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة . ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ، ولهذا يُهدّدهم تعالى بقوله " وما الله بغافل عما يعملون " .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٥)

---

(١) هذا من السنن الكبرى للنسائى . وأما الذى فى السنن الصغرى ١ : ١١٩ — ١٢٠ فإنه مختصر هكذا : « كنا نغدو إلى السوق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنمر على المسجد فنصلى فيه » . وأما هذا المطول ، فقد ذكره الهيثمى فى الزوائد ٢ : ١٢ — ١٣ ، بنحوه ، ونسبه للبزار والطبرانى فى الكبير .

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتّبعوه وتركوا أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . ولهذا قال ههنا " ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك " . وقوله " وما أنت بتابع قبلتهم " إخبار عن شدّة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم متمسكون بآرائهم وأهوائهم – فهو أيضاً متمسك بأمر الله وطاعته واتّباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم فى جميع أحواله . وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس لأنها قبلة اليهود – وإنما ذلك عن أمر الله تعالى . ثم حذّر تعالى عن مخالفة الحقّ الذى يعلمه العالم إلى الهوى . فإن العالمَ الحجةُ عليه أقوى من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد الأمة " ولئن اتبعتَ أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين " .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١٤٧)

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحةَ ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدُهم ولدَه . والعرب كانت تضربُ المثل فى صحة الشىء بهذا ، كما جاء فى الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صغير : ابنك هذا ؟ قال : نعم يا رسول الله ، أشهدُ به ، قال : أما إنه لا يجنى عليك ولا تجنى عليه »[1]. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمى " ليكتمون الحق " أى : ليكتمون الناسَ ما فى كتبهم من صفة النبى صلى الله عليه وسلم " وهم يعلمون " . ثم ثبّت تعالى نبيّه والمؤمنين ، وأخبرهم

---

(١) رواه أحمد فى المسند : ٧١٠٦ ، من حديث أبى رمثة . ورواه بعد ذلك بأسانيد كثيرة . وقد فصلنا القول فى تخريجه هناك .

بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحقّ الذى لا مِرْية فيه ولا شكّ ، فقال " الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين " .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٤٨﴾

قال أبو العالية : لليهودىّ وجهة هو مولّيها ، وللنصرانى وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم – أيتها الأمة – إلى القبلة التى هى القبلة . وروى عن مجاهد وعطاء نحو هذا . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ . وقال ههنا " أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ، إن الله على كل شىء قدير " أى : هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٥٠﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقوله " لئلا يكون للناس عليكم حجة " أى : أهل الكتاب ، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجُّهَ إلى الكعبة ، فإذا فَقدُوا ذلك من صفتها ربما احتجُّوا بها على المسلمين . أو لئلا يحتجُّوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس . وهذا أظهر . وقوله " إلا الذين ظلموا منهم " يعنى : مشركى قريش . ووجَّهَ بعضُهم حجةَ الظلمة – وهى داحضة – أنْ قالوا : إن هذا

الرجل يزعم أنه على دين إبرهيم ، فإن كان توجُّهه إلى بيت المقدس على ملة إبرهيم، فلِمَ رجع عنه ؟ والجواب : أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أوّلاً لما له تعالى فى ذلك من الحكمة ، فأطاع ربه تعالى فى ذلك . ثم صرفه إلى قبلة إبرهيم وهى الكعبة ، فامتثل أمر الله فى ذلك أيضاً . فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيعٌ لله فى جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر الله طرفةَ عين ، وأمته تبعٌ له . وقوله " فلا تخشوهم واخشونى " أى : لا تخشوا شُبهَ الظلمة المتعنتين ، وأفردُوا الخشيةَ لى . فإنه تعالى هو أهلٌ أن يُخشَى منه . وقوله " ولأتمَّ نعمتى عليكم" عطف على " لئلا يكون للناس عليكم حجة " أى : لأتم نعمتى عليكم فيما شرعته لكم من استقبال الكعبة ، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها " ولعلكم تهتدون " أى: إلى ما ضلَّتْ عنه الأمم ، هديناكم إليه ، وخصصْناكم به . ولهذا كانت هذه الأمةُ أشرفَ الأمم وأفضلَها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ (١٥٢)

يُذكّر تعالى عبادَه المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكّيهم ، أى : يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب ، وهو القرآن ، والحكمة وهى السنة[١] ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . فكانوا فى الجاهلية الجهْلاء يَسْفهون بالقول الفرَى[٢] ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويُمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء . فصاروا أعمقَ

(١) تفسير الحكمة بالسنة هو الحق الصحيح . وهو الذى اختاره الإمام الشافعى ، ونصره بأقوى الدلائل والحجج . انظر كتاب الرسالة للشافعى بتحقيقنا ، فى الفقرات : ٢٤٥ — ٢٥٤ .

(٢) « الفرى » — بكسر الفاء : جمع فرية . ووصف « القول » — وهو مفرد — بالجمع ، يوجه بأنه فى معنى الجمع ، لأنه يصدق على الكلام الكثير والقليل . وفى المطبوعة « بالعقول الفراء » ! ! وهو لا معنى له .

الناس علماً ، وأبرّهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً ، وأصدقهم لهجةً . وقال تعالى : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾ ، الآية . وذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة . فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ . قال ابن عباس : يعني محمداً صلى الله عليه وسلم . ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . فقال : " فاذكروني أذكرْكم واشكروا لي ولا تكفرون " . قال مجاهد في قوله " كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم " يقول : كما فعلتُ فاذكروني . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول الأزدي ، قال : « قلت لابن عمر : أرأيتَ قاتلَ النفس وشاربَ الخمر والسارقَ والزانيَ يذكر الله ؟ وقد قال الله تعالى " فاذكروني أذكركم " ؟ قال : إذا ذكر اللهَ هذا ذكره اللهُ بلعنته حتى يسكتَ »[١] . وعن سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ، وفي رواية : برحمتي . وفي الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خيرٍ منه »[٢] . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، إنْ ذكرتَني في نفسك ذكرتُك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملإ ذكرتك في ملإ من الملائكة — أو قال : في ملإ خيرٍ منهم ، وإنْ دنوتَ منّي شبراً دنوتُ منك ذراعاً ، وإنْ دنوتَ مني ذراعاً دنوتُ منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرولُ » . صحيح الإسناد . وأخرجه البخاري[٣] .

---

(١) إسناده صحيح . ومكحول الأزدي — هذا : هو العتكي البصري . وهو تابعي ثقة . وهو غير « مكحول الشامي » التابعي الكبير . وهذا الذي قال ابن عمر حق ، ينطبق تماماً على ما يصنع أهل الفسق والمجون في عصرنا ، من ذكر الله — سبحانه وتعالى — في مواطن فسقهم وفجورهم ، وفي الأغاني الداعرة ، والتمثيل الفاجر الذي يزعمونه تربية وتعليماً ، وفي قصصهم المفترى ، الذي يجعلونه أنه هو الأدب وحده أو يكادون ، وفي تلاعبهم بالدين ، بما يسمونه « القصائد الدينية » و « الابتهالات » ، التي يتلاعب بها الجاهلون من القراء ، يتغنون بها في مواطن الخشوع وأوقات التخلي للعبادة ، حتى لبسوا على عامة الناس شعائر الإسلام . فكل أولئك يذكرون الله فيذكرهم الله بلعنته حتى يسكتوا .

(٢) رواه أحمد في المسند : ٧٤١٦ ، بنحوه ، من حديث أبي هريرة . ورواه أيضاً الشيخان ، كما بينا في شرح المسند .

(٣) المسند : ١٢٤٣٢ .

وقوله تعالى " واشكروا لى ولا تكفرون " أمر الله تعالى بشكره ، ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبى رَجَاء العُطَاردى قال : خرج علينا عمران بن حُصين وعليه مِطرَفٌ من خَزٍّ لم نره عليه قبل ذلك ولا بعدَه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنعم الله عليه نعمةً فإن الله يحبّ أن يَرى أثر نعمته على خلقه »[١] .

﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ، إنَّ اللهَ مَعَ الصَّـٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (١٥٤)

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر ، شرع فى بيان الصبر ، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة . فإن العبد إمّا أن يكون فى نعمة فيشكر عليها ، أو فى نقمة فيصبر عليها . كما جاء فى الحديث : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى اللهُ له قضاءً إلاّ كان خيراً له ، إن أصابته سَرّاءُ فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضَرّاءُ فصبر كان خيراً له[٢] . وبين تعالى أن أجود ما يُستعان به على تحمل المصائب الصبرُ والصلاةُ ، كما تقدّم فى قوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾ . وفى الحديث : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبَهُ أمر صلى»[٣]. والصبر صبران : فصبرٌ على ترك المحارم والمآثم ، وصبرٌ على فعل الطاعات والقرُبات ، والثانى أكثر ثواباً ، لأنه المقصود .

---

(١) المسند ج ٤ ص ٤٣٨ (حلبى) . ومعناه ثابت أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، فى المسند : ٦٧٠٨ . و « المطرف » ، قال ابن الأثير : « بكسر الميم وفتحها وضمها : الثوب الذى فى طرفيه علمان . والميم زائدة » .

(٢) رواه أحمد فى المسند ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، و ٦ : ١٥ ، ١٦ (حلبى) ، من حديث صهيب . وكذلك رواه مسلم ٢ : ٣٩٢ .

(٣) عند الآية : ٤٥ ، ص : ١٤٣ – ١٤٤ .

وقوله تعالى " ولا تقولوا لمن يُقتل فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء " : يخبر تعالى أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون . كما جاء فى صحيح مسلم : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ، تَسرح فى الجنة حيث شاءتْ ، ثم تَأوى إلى قناديلَ معلقة تحت العرش ، فاطّلع عليهم ربك اطّلاعةً ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا ، وأىّ شىء نبغى وقد أعطيتنا مالم تُعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يُسألوا ، قالوا : نريد أن تَرُدّنا إلى الدار الدنيا فنقاتلَ فى سبيلك حتى نقتلَ فيك مرةً أخرى ، لما يَرَوْن من ثواب الشهادة ، فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبتُ أنهم إليها لا يُرْجعون »[1] . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، عن الإمام الشافعى ، عن الإمام مالك ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَسَمَةُ المؤمن طائرٌ تَعْلُقُ فى شجر الجنة ، حتى يَرْجعه الله إلى جسده يوم يَبعثه »[2] – ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً ، وإن كان الشهداء قد خُصّصوا بالذكر فى القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

أخبر تعالى أنه يبتلى عباده ، أى : يختبرهم ويمتحنهم ، كما قال تعالى :

---

(١) مسلم ٢ : ٩٨ بمعناه . وسيذكره المؤلف الحافظ بلفظ مسلم عند تفسير الآية : ١٧٠ من سورة آل عمران ، إن شاء الله . وقد رواه الطبرى فى التفسير : ٨٢٠٦ – ٨٢٠٨ . وفصلنا القول فى تخريجه هناك .

(٢) المسند : ١٥٨٤٣ . وسيذكره المؤلف الحافظ عند الآية : ١٧٠ من آل عمران ، إن شاء الله . وقوله « تعلق » : هو بفتح أوله وضم ثالثه ، من باب « قتل » . قال ابن الأثير : « أى تأكل . وهو فى الأصل للإبل إذا أكلت العضاه . يقال : علقت تعلق علوقاً . فنقل إلى الطير » .

﴿ ولنبلونّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ . فتارةً بالسرّاء ، وتارة بالضرّاء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف ﴾ . فإن الجائع والخائف كل منهما يَظهر ذلك عليه . ولهذا قال ﴿ لباس الجوع والخوف ﴾ . وقال ههنا "بشيء من الخوف والجوع " أى : بقليل من ذلك " ونقص من الأموال " أى : ذهاب بعضها " والأنفس " كموت الأصحاب والأقارب والأحباب " والثمرات " أى : لا تُغلّ الحدائقُ والمزارع كعادتها . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عبادَه ، فمن صبر أثابه ، ومن قَنَط أحلّ به عقابه . ولهذا قال تعالى "وبشر الصابرين" ثم بيّن تعالى مَن الصابرون الذين شكرهم ، فقال " الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " أى : تسلّوْا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله يتصرفُ فى عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يَضيع لديه مثقالُ ذرّة يومَ القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافَهم بأنهم عبيدُه وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال " أولئك عليهم صلوات من ربهم " أى : ثناء من الله عليهم " ورحمةٌ " . قال سعيد بن جبير : أى : أمنَةٌ من العذاب " وأولئك هم المهتدون " قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « نعم العِدْلان ونعمت العِلاَوَة " أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة " فهذان العِدْلان "وأولئك هم المهتدون" فهذه العِلاَوة " » . وهى ما يُوضع بين العدْلين ، وهى زيادة فى الحمل[1] . وكذلك هؤلاء ، أعطوا ثوابَهم وزِيدُوا أيضاً .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع ، وهو قول " إنا لله وإنا إليه راجعون " عند المصائب — أحاديثُ كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة ، قالت : « أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً سُررتُ به ، قال : لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبةٌ فيسترجعَ عند مصيبته ثم يقول: اللهم أْجُرْنى فى

---

(١) حديث عمر — هذا — رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٧٠ ، وصححه على شرط الشيخين . ووافقه الذهبى . و « العدل » بكسر العين : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .

مصيبتى وأخْلفْ لى خيراً منها – إلاّ فعل ذلك به، قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعتُ وقلت : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منه ، ثم رجعتُ إلى نفسى ، فقلت : من أين لى خيراً من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدّتى استأذن علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ إهاباً لى ، فغسلت يدى من القَرَظ ، وأذنتُ له ، فوضعتُ له وسادَةَ أدم حَشوُها ليف ، فقعد عليها ، فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته ، قلت : يا رسول الله ، ما بى أن لا يكونَ بك الرغبةُ ، ولكنى امرأة فىّ غَيرة شديدة ، فأخاف أن تَرَى منّى شيئاً يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلتُ فى السنّ ، وأنا ذاتُ عيال ، فقال : أما ما ذكرتِ من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السنّ فقد أصابنى مثلُ الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالُكِ عيالى، قالت : فقد سلّمتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت أم سلمة بعدُ : أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه ، رسولَ الله صلى الله عليه وسلم »[١] .

ربع ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَآئِرِ اللَّهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

روى الإمام أحمد عن عروة ، عن عائشة ، قال : « قلتُ : أرأيتِ قول الله تعالى " إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما " قلت : فوالله ما على أحد جناحٌ أن لا يطّوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئسما قلتَ يا ابن أختى ، إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهِلّون لمناة ، الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلّل ،

---

(١) الحديث فى المسند : ١٦٤١٢ . وقد روى مسلم نحو معناه ، مختصراً من حديث أم سلمة ١ : ٢٥١ . وذكره المؤلف الحافظ هنا ، وحذفناه ، إذ هو فى معنى هذا . ثم ذكر حديثاً فى الاسترجاع ، رواه أحمد وابن ماجة ، من حديث الحسين بن على . وإسناده ضعيف جداً . ثم ذكر حديثاً فى معنى الاسترجاع أيضاً ، من حديث أبى موسى ، رواه أحمد والترمذى .

وكان من أهلَّ لها يتحرّج أن يطوّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرّج أن نطّوف بالصفا والمروة فى الجاهلية ؟ فأنزل الله عز وجل " إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما " قالت عائشة : ثم قد سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطوافَ بهما ، فليس لأحد أن يَدَعَ الطواف بهما » . أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية عن الزهرى أنه قال : فحدثتُ بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فقال : إنّ هذا العلمُ ، ما كنتُ سمعتُه ، ولقد سمعتُ رجالاً من أهل العلم يقولون : إن الناس — إلا من ذكرتْ عائشة — كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذه الحجرين من أمر الجاهلية ، وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نُؤمر بالطواف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى " إن الصفا والمروة من شعائر الله " قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلتْ فى هؤلاء وهؤلاء[١]. وروى البخارى : عن عاصم بن سليمان ، قال : « سألت أنساً عن الصفا والمروة ؟ قال : كنا نَرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عز وجل " إن الصفا والمروة من شعائر الله " »[٢] .

وفى صحيح مسلم حديثُ جابر الطويل ، وفيه : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول "إن الصفا والمروة من شعائر الله" ثم قال : أبدأ بما بدأ الله به » . وفى رواية النسائى : « ابدؤا بما بدأ الله به » . وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبى تَجْرَاة ، قالت : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه وهو وراءهم ، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى ، يدورُ به إزارُه ، وهو يقول : اسْعَوا ، فإن الله كتب عليكم السعى »[٣].

---

(١) انظر المسند ٦ : ١٤٤ ، ٢٢٧ (حلبى) . وفتح البارى ٣ : ٣٩٧ — ٤٠١ . وتفسير الطبرى : ٢٣٥٠ ، ٢٣٥١ .

(٢) فتح البارى ٨ : ١٣٢ . والطبرى : ٢٣٣٩ .

(٣) المسند ٦ : ٤٢١–٤٢٢ (حلبى) . وابن سعد ٨ : ١٨٠ . والدر المنثور ١ : ١٦٠ .

وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن فى الحج ، كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه ، ورواية عن أحمد ، وهو المشهور عن مالك . وقيل : إنه واجب وليس بركن . وقيل : بل مستحب . والقول الأول أرجح . لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال : « لتأخذوا عنى مناسككم » . فكل ما فعله فى حجته تلك واجب لابد من فعله فى الحج ، إلا ما خرج بدليل . والله أعلم . فقد بيّن الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أى : مما شرع الله تعالى لإبرهيم فى مناسك الحج . وقد تقدم فى حديث ابن عباس : أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجَر وتردادها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نَفِدَ ماؤها وزادها ، حين تركهما إبرهيم عليه السلام هنالك ليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت الضَّيعة على ولدها هنالك ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فلم تزل تَرَدَّدُ فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللةً خائفةً مضطرةً فقيرةً إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتَها وآنس غربتها وفرّج شدتَها ، وأنبع لها زمزم التى ماؤُها «طعام طُعْم ، وشفاء سُقْم»[1] . فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذلّهُ وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوّله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (١٦٢)

---

(١) اقتباس من حديث « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » . رواه ابن أبى شيبة والبزار ، من حديث أبى ذر - كما فى الجامع الصغير .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب ، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلتْ فى أهل الكتاب ، كتموا صفةَ محمد صلى الله عليه وسلم . ثم أخبر أنهم يلعنهم كلّ شىء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء — فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلعنهم اللهُ ويلعنهم اللاعنون . وقد ورد فى الحديث المسند من طرق يشدّ بعضها بعضاً ، عن أبى هريرة وغيره ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سُئل عن علم فكتمه ألجم يومَ القيامة بلجام من نار »[1] . والذى فى الصحيح عن أبى هريرة أنه قال : « لولا آية فى كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً "إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى" الآية » . وروى ابن أبى حاتم عن البراء بن عازب قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فقال : إنّ الكافر يُضرب ضربةً بين عينيه ، فيسمع ضربتَه كلُ دابة غيرُ الثقلين ، فتلعنه كل دابة سمعتْ صوته ، فذلك قول الله تعالى "أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" يعنى دوابّ الأرض » . ورواه ابن ماجة[2] . وقد جاء فى الحديث : « إنّ العالم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر »[3] . وجاء فى هذه الآية أنّ كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون . واللاعنون أيضاً ، وهم كل فصيح وأعجمى ، إما بلسان المقال أو الحال ، أو لو كان له عقل ، أو يوم القيامة . والله أعلم . ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال "إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا" أى : رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا كتموه "فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم" . وفى

---

(١) رواه أحمد فى المسند : ٧٥٦١ ، من حديث أبى هريرة . وقد فصلنا تخريجه هناك . ورواه ابن حبان فى صحيحه : ٩٥ بتحقيقنا . والحاكم فى المستدرك ١ : ١٠١ .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٦٢ ، ونسبه لابن ماجة ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم . وهو فى ابن ماجة : ٤٠٢١ مختصراً .

(٣) هو جزء من حديث ، رواه الترمذى ٣ : ٣٨٠ - ٣٨١ ، عن أبى الدرداء . وذكر شارحه أنه رواه أيضاً أحمد ، والدارمى ، وأبو داود ، وابن ماجة .

هذا دلالة على أنّ الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .
وقد ورد أنّ الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم . ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة ، صلوات الله وسلامه عليه .

ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنّ " عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها " أى : فى اللعنة البالغة لهم إلى يوم القيامة ، ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم ، التى " لا يخفف عنهم العذاب " فيها ، أى : لا ينقص عمّا هم فيه " ولا هم ينظرون " أى: لا يغيّر عنهم ساعة واحدةً ولا يفتر ، بل هو متواصل دائم . فنعوذ بالله من ذلك .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٦٣)

يخبر تعالى عن تفرّده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وقد تقدّم تفسير هذين الاسمين فى أوّل الفاتحة . وفى الحديث عن أسماء بنت يزيد بن السّكن ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين "وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم" و « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم »[١] .

ثم ذكر الدليل على تفرّده بالإلهية بتفرّده بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك ، مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته ، فقال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٤)

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٦ : ٤٦١ (حلبى) ، بنحوه . ورواه أبو داود : ١٤٩٦ ، وهذا لفظه . قال المنذرى : « وأخرجه الترمذى وابن ماجة . وقال الترمذى : حديث حسن » . وهو فى ابن ماجة : ٣٨٥٥ .

يقول تعالى " إنّ في خلق السموات والأرض " تلك فى ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض فى انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، "واختلاف الليل والنهار" هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار وكل فى فلك يسبحون﴾، وتارةً يطول هذا ويقصر هذا، وتارةً يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل﴾، أى: يزيد من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا " والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس " أى: فى تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب، لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء " وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها " كما قال تعالى: ﴿وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾. " وبث فيها من كل دابة " أى: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه من ذلك شيء، كما قال تعالى: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرّها ومستودَعها، كل فى كتاب مبين﴾. " وتصريف الرياح " أى: فتارةً تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب، وتارةً تأتى مبشرة بين يدى السحاب، وتارة تسوقه وتارة تجمعه، وتارة تفرّقه وتارة تصرفه. "والسحاب المسخر بين السماء والأرض" يسخر إلى ما يشاء من الأراضى والأماكن كما يصرّفه تعالى " لآيات لقوم يعقلون " أن فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (١٦٧)

يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أنداداً ، أى : أمثالاً ونظراءَ يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضدّ له ولا ندّ له ولا شريك معه . وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : « قلت يا رسول الله ، أىّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك» . وقوله "والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله" ، ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ويلجؤن فى جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك ، فقال " ولو يرى الذين ظلموا إذْ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً " أى : أن الحكم له وحده لا شريك ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه " وأن الله شديد العذاب " كما قال : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابَهُ أحد ، ولا يوثق وَثَاقه أحد﴾ . يقول : لو علموا ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوْا عما هم فيه من الضلال . ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرىءْ المتبوعين من التابعين ، فقال " إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا " تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ . ويقولون : ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ . والجن أيضاً تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم

القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . وقال تعالى : ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلاسيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾. وقال الخليل لقومه : ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضُكم ببعض ويلعنُ بعضُكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾. وقال تعالى : ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضُهم إلى بعض القولَ ، يقول الذين استُضْعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضْعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليلِ والنهار إذْ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يُجزَون إلا ما كانوا يعملون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قُضى الأمر إن الله وعدكم وعدَ الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ ، إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ . وقوله " ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب " أى : عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسبابُ الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً . وقوله " وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا " أى : لو أن لنا عودةً إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت إليهم ، بل نوحد الله وحده بالعبادة ؟ ! وهم كاذبون فى هذا ، بل لو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك . ولهذا قال : " كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم " أى : تذهب وتضمحل . كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾ ، الآية . وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ﴾ ، الآية . ولهذا قال تعالى " وما هم بخارجين من النار " .

تم الجزء الأول

من

﴿ عمـــدة التفسير ﴾

الجزء الثانى أوله قوله تعـالى :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مما فى الأرض حلَالاً طيّباً ﴾

الآية : ١٦٨ من سورة البقرة

مسند

الجزء الأول

من (عمدة التفسير) *

* هو فهرس للأحاديث المرفوعة — وما في حكمها — التي في هذا الجزء ، على مسانيد الصحابة ، بترتيب أسمائهم على الحروف . وما كان عن صحابي مبهم ذكر في اسم التابعي الذي رواه . وكذلك الحديث المرسل يذكر باسم التابعي .

ولم نذكر أقوال الصحابة التي هي تفسير للآيات لكثرتها ، وهي التي بني عليها أكثر التفسير المأثور .

الأحاديث التى لم يذكر صحابيها



فهرس

الجزء الأول

من

﴿ عمدة التفسير ﴾ *

(*) نفصل فى هذا الفهرس بعض الأبحاث المهمة ، دون استيعاب .